على طريق التنور العربى الحديث (١)

الاحتكاك الحضاري العربي الغربي الحديث و أثرة في تطور النقد و التفكير الأدبي في مصر في الربع الثاني من القرن العشرين

د. عبد الحكيم العبد

على طريق التنور العربي الحديث (١)

الاحتكاك الحضاري العربي الغربي الحديث
وأثره في تطوُّر النقد والتفكير الأدبي
في مصر في الربع الثاني من القرن العشرين

الدكتور

عبد ا كيم العبد

مركز اللغات والترجمة- أكاديمية الفنون

الفهرس

مقدمة

التعريف العام للأدب يشمل شتى أنواع الإبداع والتأليف: أدبيها وتاريخيها وسياسيها واقتصاديها وتربويها ودينيها وعلميها جميعا، ومعنانا من "التفكير الأدبي" مزيج من ذلك كله، ولكنه أقرب أمدا؛ إذ لم أوغل فيه إلا بقدر ما يبين عن سمات الاستنارة المصرية، أو خصائص المزاج الثقافي للشخصية المصرية الحديثة على أصعدة التعليم والإحياء والصحافة والترجمة، مع ما يداخل ذلك كله بالضرورة من مساس بالتاريخ والسياسة والاقتصاد فضلاً عن الأدب بمعناه الخاص [1]. وهذا هو المزاج الذي أثمر في الأدب النقد تيارات محدودة في الربع الأول من القرن، سرعان ما تطورت إلى مدارس واتجاهات نقدية أقرب إلى التحديد والتفصيل في الربع الثاني منه.

ومن ثم تصورنا للبحث إطارين: تاريخي، وثقافي أدبي، وسلكناه هنا في مجلدين، وخلاصة مستقلة.

- الأول بعنوان: (الاحتكاك الحضاري العربي الغربي الحديث وآثاره في السياسة والأدب).
- والثاني بعنوان (مدارس النقد الأدبي واتجاهاته السائدة في الربع الثاني من القرن العشرين).

وقع الباب الأول في ثلاثة فصول، تمثلنا في الأول والثاني منها تجربة مصر الحياتية الحديثة في إطارين:

- الإطار الأول هو إطار الاتصال المباشر بالغرب عن طريق الاحتلال والاستعمار المفروض على البلاد في العصر الحديث إلى ثورة ١٩٥٢ م، مجذرين لمزاج المصريين الأدبي في التاريخين التركي والعلوي، ومتلمسين تنامي الفكرتين القومية والوطنية في ذات الإطار.
- الإطار الثاني هو إطار الترجمة، باعتبار البحث لها في مصر والشام المقفى على أثرها مواكبة لعملية الإحياء والتحديث، ومفجر أفكار وقضايا: حركة ثقافية كبرى ثالثة بعد حركتي الترجمة العربيتين التاريخيتين أوائل العصر العباسي، وفي عصر المأمون الزاهر.

---

(1) أوستين وارين ورينيه ويلك، نظرية الأدب (مترجم)، ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، ٧٢/ جـ (فصل) ١و ٣: "تعريفات وفروق"، والاتجاه الخارجي لدراسة الأدب – ص ١١ – ٧٥ و٨٩ – ١٦١، ويتابع مناهج بيف وتين وبرنتيير ولانسون بفصل الترجمة وإلحانا إلى الأدب بمعنييه: العام والخاص بفصل الأدب للزيات بفصل الترجمة ص ٨٠ ف ٣.

فبقدر ما كان الاتصال القسري عن طريق الغصب الاستعماري والتغلـب التركـي ممتحنًـا صعبا للشخصية المصرية، ووجها قبيحا للصلة بأوروبا في العصر الحـديث، كانـت الترجمـة بحسب ما أومأنا نقيضا للاستعمار، وقد كان لها أثرها في إنعاش وإثراء التفكير الأدبـي بعامـة والنقد الأدبي بخاصة، كما كان – حتى للمرتد منها عن المترجم من العربية نفسها إلـى لغـات العالم – حضور ما، أوضح دلالاته تمثلت في تطور الترجمة والمقدمين الغربيين للقرآن الكـريم من التنقص إلى الإتجار والالتذاذ، ثُم إلى نحومن الموضوعية، وحتى إلى الاعتناق أحيانًا، وقـد كان هذا التيار الذاهب الآيب مفجر قضايا الشعر الجاهلي وترجمة القرآن والأسـاليب المقدسـة وغير ذلك.

وفصل ختام الباب الأول (الفصل الثالث) جمعة لشتى عناصر الفصلين السابقين.

فيه لخصنا ملامح ما عنيناه بتطور الفكر الأدبي التي كانت هي نفسها ملامح التنور والتطور في:

- الإطار التاريخي.
- صعيد التعليم والإحياء.
- "الإعلام الثقافي في الصحافة".
- "المذهبية السياسية والاقتصادية".
- "الترجمة".

* * *

اعتبرت الحرب العالمية الأولى نقطة بدء، وتقدمت أحيانًا على تاريخها أو تـأخرت بحـسب المقتضى، وكثيرا ما لجأت لذلك؛ بهدف مكاملـة النظـرة إلـى الواقـع والحـدث المقـصود في المحل الأول.

أما مقتضى البدء من الحرب الأولى؛ فعزوفنا عن مألوف العادة بالتأريخ لأدبنا الحديث بحملة "نابليون"، نظرا لما يشي به هذا التحديد من تعليل النهضة بتلك الحملة، وهـي وشـاية رأيناهـا خاطئة بالقدر الذي يقع فيه من ينسب هذه النهضة إلى حملة "فريـزر" الإنجليزيـة المـدحورة ١٨٠٨ م، مثلاً، أو إلى الاحتلال الإنجليزي الفادح للبلاد منذ ١٨٨٢ م.

كذلك كانت للدراسة ضرورات، منها التوسع بذكر مترجمات سبقت أو لحقت فترتنا الخاصة، ومنها مكاملتنا فصل الترجمة بموضوع (في محاولات نقد القرآن وترجمته في العصر الحديث)، ومنها اقتصاري في الاتجاه التاريخي على ما يجزئ من درس طور، ونمى بعضه بعـد ذلـك في مجلدين (!) من هذه الضرورات كذلك اقتصاري في الاتجاه البياني – وبعد الربط المنطقـي بمرحلة تياره الأولي، وبقضية الأسلوب – على الرافعي؛ في الوقت الذي بلغت فيه عدة كُتابنـا المعتبرين في الاتجاه البياني في فترتنا في مصر وحدها أكثر من أربعين أديبا، وقد كان أظهرهم

إلى جانب الرافعي أحمد حسن الزيات الذي خصصته بالدرس في رسالتي الجامعية الأولى، ولم تحرم هذه الدراسة من أدمه الشهي النافع أيضا. هذا إلى ضرورة مد الاتجاه العلمي إلى ١٩٥٠ و١٩٥٩؛ لتعلقه بمحاولة التجديد في موسيقى الشعر، وهذا متجه مستقبلي حثيث.

* * *

وبعد فإن هذا التقديم لا ينسى أن يذكر بتدقيقات داخلته كما داخلت مباحث وعبارات من هـذا الأعداد للدراسة التي قُدمت في الأساس للدكتوراه بجامعة الإسكندرية سنة ١٩٨٥م. ولا شك أن هذه الدراسة مدينة بشكل أو بآخر لدراسات سبقتها في موضوعها، إحداها للدكتور عبد العزيـز الدسوقي، وأخرى للدكتور حلمي علي مرزوق؛ ولكنها – وبدرجـة كبيـرة – وليـدة شـرعية لاحتكاك وممارسة فعلية خلال اشتغالي بالمحاضرة والتدريس بقسم اللغة العربية بكليـة الآداب جامعة بايرو بـ "نيجيريا" وغير ذلك.

أما ديني لأستاذتي الأعلام من لدن الدكتور طه الحاجري إلى الدكتور محمد مصطفى هدارة وغيرهما ممن عمرَ بهم قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية فدين عظيم، وفـضل المشرفين المتعاقبين الأستاذ الدكتور حلمي مرزوق، والأستاذ الدكتور عثمـان مـوافي فضل مباشر، فيما أنا مدين به لكل هؤلاء أدعو لهم، كما أدعو أن ينفع ا وطننا وأمتنا بهذا الغراس، وأن يثيبني على قدر نيتي، إنه نعم المولى ونعم المثِيب.

عبد الحكيم العبد

الفصل الأوّل

في التجربة الوطنية المصرية الحديثة

أولاً: الحركة الوطنية بين التبعية التركية والنزعة الاستعمارية:

١- بين التغلب التركي المملوكي والتغلب الاستعماري.

٢- في مواجهة الحداثة والاستعمار والحكم الفردي العلوي.

٣- الأرضنة في الأوراق والأشخاص.

ثانيا: الحركة الوطنية في إطار معركتي التعليم والاستقلال:

١- سعد ومعركة الجامعة.

٢- سعد ومعارك أخرى.

٣- الائتلاف والأحرار الدستوريون.

٤- في أعقاب الاستعمار، والثورة الثالثة.

(١)

* ونقول بادئ ذي بدء بأننا نلاحظ تخلق التفكير الأدبي بالمعنى الذي بيناه في القرنين التاسع عشر والعشرين في مصر من تفاعل التاريخ الطويل بالمواطنة القائمة، خلال ذلك نبت الرواد ونشئوا أو برزوا، وكان منهم الشيخ كالعطار ومحمد عبده، وكان الشيخ المتَرجِم كرفاعة، وكان الشاعر الفارس والمتحدث الفارس كالبارودي وعرابي، كما كان القانوني الخطيب كسعد زغلول وهكذا.

مثل هؤلاء العبقرية المصرية في جوانبها العلمية والعملية: الدينية والدنيوية. لم يعمِ عن أصالتها وخلفيتها القريبة – وإن تكن متواضعة – مظاهر التفوق العسكري والعلمي الغربي الحادثة، كما لم تشوش عليها أجنبية أو تأجنب بعض حكام مصر، وإن عززتها نزعات الاستغراب لدى بعضهم، كذلك لم تُخْمِد طاقتها ما درج عليه هؤلاء الحكام من طبائع خاصة، كاستبداد محمد علي بهم وهم من ولوه أمرهم، وكازدراء إسماعيل لهم، وكاغتيال فؤاد لدستورهم وأوقافهم، أو كأبيقورية فاروق التي أودت به بعد. والواقع أن التسميات اللقبية المتعاقبة على حكام مصر من الأسرة العلوية: ولاية، فخديوية، فلسلْطَنة، فملكية لم تعن شيئًا كثيرا من حيث الفعالية، إلا أشياء لا يستهان بدلالتها على نوع من الاسترضاء للنوازع الوطنية المحلية التي كانت على استعداد لتقبل هذه التسميات العربية الإسلامية الرنين في الغالب [1]. وقد ظلت أفعل خيوط الأحداث متنازعة في الغالب بين الوطنيين وبين الإنجليز.

والمباحث الثلاثة التالية تنطلق من الحرب الأولى كما مهدنا؛ لتبلور ملامح شخصيتنا المصرية وبعض مشكلاتها في التاريخين التركي والاستعماري، وستتلوها مباحث ثلاث أخرى ترصد هذا التكوين الوطني نفسه، وقد متع بعض الشيء في إطار معركتي التعليم والاستقلال وما إليهما، ثُم لنلج مع هذه الشخصية خضم المواجهة الأدل مع الغرب في إطار حركة الترجمة، إيذانًا بتركيز الحديث في موضوعات النقد بخصوصها في الربع الثاني من القرن العشرين: مدارس أو نحوها كالديوان وأبوللو، ثُم اتجاهات أشمل وأكثر استقرارا عددناها من قبل.

هكذا يمكننا أن نتخذ من الحرب الأولى نقطة بدء؛ إذ مثلت هذه الحرب للمصريين والعرب امتحانًا حضاريا ذا ثلاث شعب تتعقد إحداها بأخرى في غير موضع. أولاها اضطرارهم إلى

---

(1) الولاة: محمد علي (- ١٨٤٩ م) – إبراهيم (١٨٤ م، (مدة شهرين) عباس الأول.

الخديوية: إسماعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩ م) – توفيق (١٨٧٩ – ١٨٩٢ م) – عباس الثاني (١٨٩٢ – ١٩١٤ م؛ حيث منع من العودة من تركيا لدى الحرب الأولى).

السلطنة: حسين كامل (اسمية في ظروف الحرب ١٩١٤ م).

الملكية: فؤاد (١٩١٧ – ١٩٣٦ م – فاروق (إلى عزل الثورة له ١٩٥٢ م).

تكرار حربهم للأتراك الذين ظلت لهم بفضل بلائهم في الحـرب رجلانًـا وفرسـانًا، وبفـضل استحواذهم على السلطنة مكانة في النفوس. أي رغم ما سبق من حربنا لهم تحت قيادة إبراهيم، ورغم مسئولية فتحهم لمصر عن إحباط مسعانا تحت الغوري لإنقاذ الأندلس، ورغم ما سرى في طباع الترك من عنجهية وفساد، ولا سيما أواخر حكمهم للمسلمين السنيين جميعـا، حتـى درج المؤرخون على الربط بين سياستهم وبين انتقال عادات القتل والمثلة الوحشية إلى المسلمين مـن البيزنطيين [١]. وسيلي ما نستدل به من جيوم على تأثير حربنا للترك في فهمه أحـد الأصـول الإسلامية؛ وهو الجهاد نفسه.

وأما الشعبة الثانية فمن صنع الدول الأوروبية التي نصبت لتركيا ولألمانيـا حبائـل النفـسة الاستعمارية في تلك الحرب الضروس. وأما الثالثة فتوشك أن تكـون مـن صـنع المـصريين بأنفسهم فمنذ تمردوا مسلمين وأقباطًا على الدولة العباسية سنة ٢١٨ هـ/ ٨١٣ م قرر المعتصم عزل الجند المصريين وتعيين الأتراك جندا عليهم ولهم.

ومنذ المعتصم لم تعد للمصريين في الغالب دراية بغيـر الزراعـة والـصناعات المحليـة والمعمار وعلوم الدين ومظاهره [٢]، وهي درايات أضعفها تركيز سليم الأول لمهرة الصناع في الآستانة، كما أضحلها إهمال الأساس العلمي الرياضي لها في مناهج الأزهر خلال القرن الثامن عشر [٣] لقد عاشت مصر في التاريخ التركي والمملوكي محنة بـدأت مـن عـصر المعتـصم العباسي، وانتهت أو دخلت في طورها الأخير مع جماعة الضباط القوميين الأتراك المبهـورين بأوروبا ونهضتها الحديثة، الراغبين في منافسة قادتها المستعمرين فـي الـسيطرة، وإن كانـت سيطرتهم المبتغاة كانت قائمة بالفعل على العالم العربي إلى أواخر حكم السلطان الخليفـة عبـد

---

(1) في مشاعر المصريين تجاه الأتراك راجعنا فضلاً عن المصادر العربية Lawrence and the Arabs p.54، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٧١١، ٧١٦، وفي سريان العادات الوحشية في الترك تراجع (مثلاً) "الحضارة الإسلامية" لآدم متز ص ٣٦، ٣٩، ٤٠، وفيه عن الجاحظ ص ١٠٥. وفي بلاء الترك في "فتح القسطنطينية" تراجع برناردين كآيلتي في كتابها "فتح القسطنطينية" أو وصفها للانكشارية ص ١٢٨ وبه وصف لدخول الترك في الإسلام قبائل ص ٥٠، وفي مقدمة ترجمتـه العراقيـة تراجـع رسالة الفاتح إلى عزيز مصر وريف مكة والأحاديث المروية في القسطنطينية ص ب – هـ.

(2) في تمرد المصريين على المعتصم راجعنا "تاريخ اللغة العربية في مصر" د. أحمد مختـار ط الثقافـة ١٩٧٠، ص ٤٧.

في امتياز المحاسبة الإسلامية الرأسية على الطريقة الأفقية وتفضيل المماليك للطريقة الثانيـة، واسـتخدامهم القبط فيها دون المسلمين راجعنا وصف مصر مجلد ١٥ نشر الخانجي ط ٧٩ ص ٤٦.

(3) مناهج التعليم أو العلوم العشرون حسب (سند الشيخ الدمنهوري)، وشكوى الـشيخ العطـار (١٨٣٢ م) أستاذ رفاعة من إهمالها، وشهوده الحملة الفرنسية في "محمد عبده" للعقاد، ص ٤٨، ٤٩ – وفي افتقـاد سليم لمصر نيفًا وخمسين صنعة، انظر الدراسة هـ ص ٣٧٦.

الحميد الذي ألب الغرب عليه هؤلاء الضباط، كما ألب العرب على هؤلاء الضباط ضيقو الأفـق أيضا [١].

والمحنة بين المبدأ والمعاد قد كان لها حتى في غير المعتصم وعبد الحميد عمل. عملت فـي نظام حكم سليمان القانوني وهو في مجده العسكري وخرابه العائلي، كما سبق وعملت في بيـت الرشيد العباسي [٢]، ثُم ما عتمت بعد أفول نجم الخلافة التركية أن استؤنفت في مصر بالإنجليز، بعد أن نجحوا في قطع ما يتعلق به المصريون والعرب في تركيا من أواصر سياسـية وربقـة دينية. ناهيك عن عمق نزعة الفتك في تاريخنا المملوكي والروماني والجاهلي البعيد.

ب- وقد أوقفنا بحثنا في ممتحن المصريين والمسلمين بالترك وبحكامهم المـستخلفين فـيهم والمتغلبين على العموم على مكانين للأرضة التي أوهت هذه العلائق وقطعتها، وهمـا (فضلاً عن إهمال العلم المادي) نظام الحريم، وعجز المسلمين عن وضع نظام الشورى النظري الصالح لديهم موضع التنفيذ في العمل السياسي. ومن حريم سـليمان القـانوني اطرد عمل الأرضة في البيت المسلم منذ خنق القـانوني ابـن ربيبتـه المـشهود لـه (مصطفى) سنة ١٥٥٣ م، واطردت نزعة الفتك إلى غير حد من قبل ومن بعـد بـين المماليك في مصر أيضا.

ومزايا هذا الفتك لم تنكر حين كان يلزم، وربما برز في الغـرب خاصـة بمبـدأ الـشرف الموناركي [٣]، ولكنه محرم في الإسلام، ونظام الحريم قد جدت اجتهادات رأبت الـصدع فيـه، ولكنه لم يكن قاصرا على الترك أو المسلمين، وقد كاد أن يكون في كل القـصور وكثيـر مـن الدور.

---

(1) في جماعة الضباط الأتراك راجعنا كتاب لورنس الجزيرة العربية السابق ذكره ص ١٥، ١٦. وكتـاب "أرنولد لدوتوبني" الإسلام والغرب والمستقبل، وكتاب سعيد الأفغاني من حاضر اللغة العربيـة معنيـان بالقضية من وجهتيها الغربية والعربية على تناقضهما الحاد فيها، وفي مستوى فكـر هـؤلاء الـضباط باعتبارنا إياهم أنصاف متعلمين ألمحنا صدد سلامة موسى في الاتجاه الاجتماعي.

(2) في تفاقم الخلاف بين الأمين والمأمون راجع حوادث سنة ١٩٤ هـ وما بعدها بتاريخ الطبري وهي في طبعة دار سويدان جـ ٨، ص ٤٢٨ – ٤٣٢.

(3) رأى منتسكيو أن المبدأ المسيطر على الشكل الموناركي في الحكم هو مبدأ الشرف Honour باعتبـار الامتياز والانفرادية (الفريدة)، وإن كان منتسكيو رده إلى دافع الخوف: رآه – يداخل الحاكم كما يـداخل المحكوم. وقد رأى أن الاعتدال هو مبدأ الحكومة الأرستقراطية (وهو مبدأ أرسطي قديم) ولكن منتـسكيو شرطه بالاستناد إلى مبدأ الفضيلة، وأن يدعم بالروح أو الطاقة. أما الحكومة الجمهورية فإن مبدأها هـو الفضيلة Vitue بالمعنى السياسي لا المسيحي (حب الوطن وحب المساواة إلخ)، وفـي المقتـبس عـن منتسكيو راجعنا الفكر السياسي الغربي، د. علي عبد المعطي، ص ٢٧٩، ٢٨٠، وبه إشـارة إلـى روح القوانين في الإنجليزية book VIII, ch i.

وفي ظل الترك يستمر فتاك * آخرون، يحمل عبئهم المصريون بالإضافة إلى عبء التـرك: مالاً ورجالاً، يقودهم المماليك، ولا يتخلف منهم أحد عن صد (الموسقو)؛ أي الروس أو غيرهم، خلافًا لما على مصر أن تتولاه وحدها من النفقة على حماية حدودها قبالة أوروبـا. وإذ تعجـز (هجومانية) الخيول والسيوف عن مباراة هجومانية البنادق والبارود الجديدة [1] تعـاني مـصر نابليون وكليبر ومينو ثلاث سنوات، وتتأمل حالتيها مليا.

وإذا كان محمد علي قد وجد له مكانًا في النهضة المصرية الوطنية أفضل من مكان المملوك والسنجق وأدنى من مكان الحاكم الفيلسوف [2]، فإن نموذجا للمملوك يصلح التمثيل به في هـذا

---

* من تتبعنا لنزعة الفتك العثمانية المملوكية وأصولها في الفتك البيزنطي وغيره، وجدناها بلغت ذروة لها في خنق القانوني لابن ربيبته المشهود له مصطفى، وهما في غزو فارس، إلى قتل بيبرس لقطـز فـي غـزة مرجعهما في دحر التتار في عين جالوت (٦٥٨ هـ) إلى خلع الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١ هـ)، واحتياله للعودة وله مزايا خاصة. ثم إلى خنق الأشرف (آخر الملوك القلاوونية) بواسطة مماليكه وذبحهـم لأمرائه، وهو في أبهة حجه، وأخذهم جواريه وتوليهم الأمريات والجبايات بتعبير الجبرتي، إلـى بـروز برقوق أدهى الجراكسة فـيهم، إلـى فتـك الفـاتح التركـي الجديـد سـليم (يـاوز) العربيـد الـسكير في وصف بروكلمان بآخر المماليك قنصوة الغوري سنة ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م في مصر، بينمـا الغـوري يحاول مساعدة الأندلس ضد مذابح فرديناند وإيزابيلا، وهما جادان في سحق الإسلام هناك باسم القوميـة والمسيحية بطريقة القرن الخامس عشر الماكيافيلية عينها. (وعبارة بروكلمان بتاريخ الشعوب الإسـلامية، ص ٤٥٨، وتابع توثيقنا للنزعة نفسها في مطرد هذا الهامش صورة نزعـة الفتـك ومبادئهـا الوصـولية في كتاب الأمير لماكيافيللي معروفة في الغرب منذ القرن الخامس عشر، وقد اطلعنا عليـه فـي نـسخته الإنجليزية ومنها فيه "أجاثوكليس" السيسلي و"هاميلار القرطجاني ص ٥٩، ذبح الأول حتى خاله الذي رباه، واغتال فيها الثاني أعضاء الشيوخ والأغنياء في اجتماع دعاهم إليه، ونحو من ذلك مذبحة نابليون في يافـا ومذبحة القلعة لمحمد علي، أما صور الفتك العثماني والمملوكي فعمـدتنا فيهـا كـان الجبرتـي، ومتـز وبروكلمان، وغيرهم وقد مرت إشارة لنا فيها عن متز وفي معانيات المصريين في الحرب الأولى راجعنا لورنس الجزيرة العربية، وبروكلمان، وسعيد الأفغـاني وزعـيم الثـورة سـعد زغلـول وغيـر ذلـك. أما في أحمد باشا الجزار فقد راجعنا مقالاً فيه بقلم الكاتب الفلسطيني قسطنين خمار بمجلة العربي – إبريل سنة ١٩٨٢ ص ١٦٦ – ١٧١.

(1) الهجومانية بتعبيرنا موافقة لدلالة الهجوم العربية ولمدلول Hogominy الإنجليزية، ولعل ذلك بطـرق النقل أو الأصل المشترك.

(2) قد نذهب إلى حد القول بأن محمد علي تقرب إلى العلماء للوصول إلى حكم العامة كما ذهب مؤرخونا، فتلك طريقة ذكرها ماكيافيللي بين طرق البراعة في الإمارة، ولكنها ربما لم تكن لتجوز على العلماء، كما أن محمد علي نفسه كان أميا أريبا لم يكتب في لغة من اللغات إلا على الكبر، فضلاً عن أن المـدة بـين ماكيافيللي ومحمد على تقارب القرنين (توفى ماكيافيللي سنة ١٦٧٩ وتوفى محمد على سنة ١٨٤٩ وكان علماؤنا أرادوا استبداله من الوالي التركي المكروه فيهم خورشيد وتمسكوا بمحمد علي حتى ضـد إرادة

=

المبحث يتمثل في أحمد باشا الجزار فترة خدمته لعلي بك الكبير في مصر، وفي فتـرة خدمتـه للسلطنة في سوريا، حيث نجح في التصدي لنابليون وأساليبه الوحشية بأساليب مماثلـة، وكـان الجزار بحسب ما تبين نموذجا للملوك في نزعته إلى الفتك النامية معه مولدا وتـشردا فظـائع وألقابا، وبسالة منقطعة النظير وسادية جنسية مهتاجة بنظام الحريم أيضا.

* هكذا كان عدم انضباط المصريين عصر المعتصم مبدءا أبعد لمحنتهم بـالترك وبـالغرب والعلوية. ففي ذلك العصر القديم كان عزلهم من الجندية، وكان تعيين الترك علـيهم، إلـى أن ضحل علمهم المادي في القرن الثامن عشر، وربما أغرقوا في نوع من التصوف بعد أن كـانوا انعزلوا في الأديرة وعولوا على الأرض، إلى أن دهمهم نابليون ١٧٩٨ واحتلتهم إنجلترا ١٨٨٢ م، رغم هزيمتهم لها سنة ١٨٠٧ م، ثُم لتطحن منهم مليونًا ونصفًا في حرب الترك وحلفائهم في الحرب العالمية الأولى، كما طُحِنوا بامتحانات شتى من قبل ومن بعد، فهل نـدهش إذا تـسمعنا أصداء من كل ذلك في تاريخنا المتأخر فكرا ونقدا؟

أوجزنا في المبحث السابق حال المصريين منذ المعتصم العباسي إلى جماعة الضباط الأتـراك انطلاقًا من الحرب العالمية الأولى، كما ألمحنا بتوصيف ضمني للفعال والشخصيات المتغلبة في مصر إلى أحمد باشا الجزار ومحمد علي فالفرنسيين والإنجليز، ونوجز في هذا المبحث كفـاح المصريين مع الطهطاوي وعرابي في مواجهة الحداثة والاستعمار، في التعامل مع الحكم الفردي العلوي، وصولاً إلى توصيف أوضح للشخصية المصرية الرافدة للفترة التاريخية التي نعني بهـا بصفة خاصة.

أ- لقد سارع المصريون منهزم الحملة الفرنسية سنة ١٨٠١ م إلى أخـذ زمـامهم بأيـديهم، وألبسوا محمد علي خلعة الولاية، وتمسكوا به ضد إرادة السلطان والمماليـك والإنجليـز جميعا، وكان القدر في صفه؛ فأنقذه من الغرق ومن الكوليرا وأمات له إبراهيم بك ومراد بك حتف أنفيهما، وأجهز هو على عدد كبير من المماليك وغيرهم فـي مذبحـة القلعـة، واندفع بالمصريين فضرب العثمانيين الوهابيين المنفردين بالإصلاح السلفي في الجزيـرة العربي، واستدار بجيشه من المصريين الذين أحيا فيهم نزعة العروبـة؛ فاكتـسح الـشام وهزم السلطان في عدة مواقع [1]، إلى أن ردته أوروبا عنه وعنها إلى حدوده في مـصر والسودان لا غير، وإن لم يكن للغرب في ذلك مقنع.

تركيا حين بعثت إليهم بثالث في عمارة بحرية من عدة سفن وظل يرقص حولها الإنجليز حتى هـزمهم المصريون سنة ١٨٠٧، وسيلي وصفنا لتصرف محمد علي مع العلماء مبحث ٣ ف أ، ص ١٥.

(1) دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي (إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا).

ب- يتوالى في البحث تبلور النزعة الوطنية من خلال النزعات الإسلامية والقومية وما إلـى ذلك، ومن مواضع ذلك في الدراسة تقييم لشعر وأناشيد الوطنية عند شوقي، وعبد الرحمن صدقي، والرافعي وغير ذلك، كما سيلي تجذير لنفس النزعة في أوروبا.

ولكن تجذير نزعتنا بالطهطاوي وإبراهيم بن محمد علي يعتبر تقريرا لأكثر لونات الانتمـاء نصوعا وثباتًا إلى يومنا:

- لقد كان لرفاعة- فضلاً عن المستقصى من أعماله في كتاب تلميذه السيد صالح مجـدي، "حلية الزمن بمناقب خادم الوطن"، وفضلاً عما اطرد من تعداد أعماله في الدراسـات الجديـدة، ومنها دراستنا عن دوره في الترجمة في هذه الرسالة أيضا- دور في تقـديم الفكـرة الوطنيـة الحديثة في ثوب إسلامي مقبول لعامة المصريين وخاصتهم، وكان هو مدفوعا في ذلك- كما في سائر إصلاحاته- بالعزم الذي توسمه في الشيخ السادات وبطبيعة طيبة ونفس خيرة قوية. وقـد تغنى بحبه لمصر في الكثير الغالب من شعره الرشيق السهل "وهو قصائد ومقطوعات وأناشـيد وطنية وفي كتبه المختلفة؛ كان يعقد الفصول الطوال للتحدث عن الوطن والوطنية وتحليل هـذا المعنى وضرب الأمثلة بمن عاشوا وضحوا في سبيل أوطانهم، ومنهم الفرنسيون فـي ثـورتهم التي لمس رفاعة آثارها عن كثب كما هو معروف".

لكن قد سبق هذا الأثر الفرنسي في نفس رفاعة أثر فطنته وحديث الرسـول ﷺ والـصحابة وديوان الشعر العربي، ولقد كان لرفاعة نفسه شعر وطني أحيا فيه الأوزان القصيرة والقـوافي المنوعة العذبة؛ فكان دوره في ذلك إحيائيا تجديديا أو قُلْ تأصيليا انتقل فيه رفاعة من الأغراض التي كانت متداولة حتى أيامه كالمديح والرثاء وتاريخ المنشآت والغزل إلـى أغـراض سـامية أخرى في التغني بحب الوطن مصر والإشادة بذكرها وبذكر جيشها ومواقفه وأبطاله؛ وهو بذلك رائد الشعر الوجداني الجمعي الحديث، وأفكاره في ذلك مبسوطة في نثره أيـضا فـي الوقـائع المصرية وروضة المدارس وغيرهما. أنشد تحت عنوان "المجد الأثيل" في نظام الرباعيات الذي نعود إلى بيان أهميته في الاتجاه العلمي:

أبناء مصر نحن موطننـا أصـيل	**حسب عريق زانـه مجـد أثيـل**
وفخارنا في الكون جل عن المثيل	**لرحابنا تطوى المهامـه بـالطلاح**

وفي "مصر نور الكون" أنشد:

يـا صـاح حـب الـوطن	**حليـــة كـــل فطـــن**
محبــــة الأوطـــان	**مـــن شـــعب الإيمـــان**
فـــي أفخـــر الأديـــان	**آيـــة كـــل مـــؤمن**

ولم نقل كمؤرخينا المحدثين "ارتفع" فيه رفاعة عن الأغراض المتداولة، وقلنا انتقل؛ فـشعر الوجدان الجمعي (شعر الوطنية) صنو الشعر القبلي القديم، وإن تُخيرت له في مـدنيتنا الحديثـة الأوزان الخفيفة. والذي يمكن أن نضيفه من رأينا الخاص بعد ذلك هو ربطنـا شـعر الوطنيـة

الحديثة في أدبنا بتاريخ الظاهرة القومية السياسية، وهي ظاهرة إن تكن عرفت في صورتها القبلية عندنا في العصر الجاهلي كما ألمحنا وفي صورتها الإقليمية في الأقطار الإسلامية المستقلة عن بغداد في القرن الرابع فإنها متأثرة بالفلسفة القومية الغربية التي بدأت في الأدب الغربي ربما مع "بترارك"، وقد أورد "ماكيافيللي" منه في الإيطاليين:

- Virtuousagainst fell warth
- Will take up arms; and be the combat quickly sped!
- For sure, the ancient worth,
- Than in Italins the heart, is not yeat dead.

وأشباه ذلك كثير في الشعر الأوروبي منذ هذا التاريخ وإلى أن ادعيت للدولة القومية الحديثة رسالة إنسانية وتحولت إلى القهر والاستعمار، ولا سيما بالفلسفة الهيومانية الاسمية الإنجليزية، وإنما تفرد المصريون في ذلك كما سنذكر بربط العاطفة الوطنية بالعاطفة الدينية خلافًا للغرب، وحظوا بتاريخ وحضارة عتيدة سهل على الشعراء والكتاب الاستمداد منها كما أن السبق ودعوى الرسالة مقبولة لها في غيرها على نحو ما سنعرض له في الاتجاه الاجتماعي وغيره [١].

أما مقالات الطهطاوي في الوطنية فهي كثيرة يغنينا منها في نقل الشيال عنه:

"إرادة التمدن للوطن لا تنشأ إلا عن حبه من أهل الفطن، كما رغب فيه الشارع. ففي الحديث "حب الوطن من الإيمان"، كذلك أورد الباحث ذكر الطهطاوي حديث الرسول في مكة حين أخرجه قومه منها، واستقاءه من عمر ﷺ قوله: "عمر ا البلاد بحب الأوطان"، ومن علي كرم ا وجهه: "سعادة المرء أن يكون رزقه في بلده".

ولا زال رفاعة في سياق أول لهذا المقتبس يستشهد بأقوال الحكماء والأدباء العرب، ومنهم الأصمعي وابن الرومي وميسون بنت بحدل زوج معاوية وغيرهم، وذلك في معنى حب الوطن بصفة عامة، وقد بين الطهطاوي خصوصية إسلامية له في مصر رفعته في نفوس المصريين إلى مقام فوق هذا المقام؛ إذ إنه "في الأثر من أعيته المكاسب فعليه بمصر وعليه بالجانب الغربي منها. "وقسمت البركة عشرة أجزاء، تسعة في مصر وجزء في الأمصار كلها، ولا يزال في مصر بركة ما في الأرضين كلها.

---

(1) مادتنا الأولية عن رفاعة من د. جمال الدين الشيال في رفاعة رافع الطهطاوي ط المعارف ١٩٥٨ ص ٥٧ – ٧٢، ٧٧، ٧٨ + ومن تحقيقه لكتاب "حلية الزمن بمناقب خادم الوطن" ط الحلبي ١٩٥٨ م وشاهد ماكيافيللي من بترارك آخر كتابه الأمير The prince – a mentor book new american library p. 127 وفي الهيومانية لنا عود في الاتجاه الاجتماعي، أما تطور الفكرة القومية في الغرب منذ دانتي اليجيري إلى برنارد بوزانكيت فلها علاج في ضوء التراث العربي في محاولة تأليفية أخرى لنا.

وقد أورد رفاعة في النص نفسه أيضا أحاديث أخرى نبوية وأحاديث للصحابة فـي مـصر، واستقى قول القرآن الكريم فيها، وما ينشره التاريخ من أخبارها وعمرانها القديم. قال الباحث:

"وما زال رفاعة بهذا المعنى يستقصيه، حتى جعل مصر فرضة (ميناء) يحمل خيرهـا إلـى سواها.. من سائر الأقطار المعمورة.. وتكثر مخالطتها من جميع الأمم (حتى).. يـصير تمـدنًا راسخ القدم يحميه أهلها، ومغالاتهم في حب الأوطان.. بقدح زنـاد الكـد والكـدح والنهـوض بالحركة والنقل والإقدام على ركوب الإخطار.

على أن هذه العاطفة الوطنية التي لن تخفى؛إذ إننا حين نأتي إلـى تنـاول بعـض الأناشـيد الوطنية المصرية فيما بعد عند شوقي وعبد الرحمن صدقي والرافعي – هذه النزعة في مرحلتها المبكرة عند الطهطاوي ها هنا قد ارتبطت كما هو معروف بمطامح محمـد علـي واسـتعراب إبراهيم، أو لضرب السلطنة، إن لم يكن لضرب الوهابيين أيضا.

* ولقد شمل رفاعة بحب الوطن وطنه الخصوصي (طهطا) أيضا، وسارت به همتـه فـي كتاباته في تربية البنين والبنات، والمناداة بتعليم المرأة، ووجوب تعليم الأزهريين العلـوم العصرية، إلى غير ذلك من التوجيهات والأفكار والعواطف والمشاعر التي سـرت فـي خالفيه، وربما صارت تُعرف بهم هم دون رفاعة، سواء أكانوا منشدين وطنيين مثل مـن ذكرنا منذ قليل أم كانوا دعاة خطباء وكُتابا مثل مصطفى كامل، وقاسم أمـين، وطلعـت حرب، ومحمد عبده، ولطفي السيد وغيرهم. وعبر هذا النهر الثري ومنذئذ كـان الـولاء لتركيا – وإن كان وجد داعيته الصدوق في مصطفى كامل وحزبه الوطني وقاسم أمين – فإنه خفت بعدهما إلا موجات في محيط شوقي المزدحم بقصرياته وفرعونياته وإسلامياته، ونحو ذلك. وقد كان الشعور- وقد ظل- في الغالب مصريا عروبيا، ويزداد توهجا كلمـا تقدم به الحماس على إيقاع دعوات التحرر من الاستعمار ومن الفردية العلوية، فضلاً عن دعوات الائتلاف والوحدة الوطنية والنهوض بصفة عامة، مما ينم عن الوطنية في مطردها في مصر مثلت مذهبية تتسم بالتكثيف والصدق والبلورة حقًا، ولم تكن مجـرد انعكـاس، رغم بعض المنعطفات التعصبية [1].

---

(1) حول نشيدي شوقي وصدقي الوطنيين انظر ص ١٧٩ – ١٨٢ ونشيد الرافعي مشهور، ومنه:

اسلمي يا مـصر إننـي الفـدا ذي يدي إن مـدت الـدنيا يـدا

أبـــدا لـــن تـــستكيني أبـــدا إنني أرجـو مـع اليـوم غـدا

ومعي عزمي وعقلـي للجهـاد ولقلبي أنـت بعـد الـدين ديـن

لك يا مصر السلامة وسلاما يا بلادي

واسلمي في كل حين

=

ج- لقد مثلت ثورة المصريين مع عرابي أو به سنة ١٨٨١ م إرادة وطنية مثل تلك التي عبر عنها المصريون في تنصيبهم لمحمد علي سنة ١٨٠١ م، وقد صادفت هنا توفيقًا والتدخل الأوروبي المقاص لدور تركيا رغم أن من عوامل شحذ الشعور بالوطنية لدى العنـصر المصري شيء من التنظيم الحديث سمح به الأتراك للولايات اضطرارا، وشـيء مـن سلطات محدودة للتشريع والتسليح. ولقد جاء هذا السماح اضطرارا وتقليـدا للحركـات القومية في الغرب أو استعدادا لشرها الوشيك، فإذا ما التقى ذلك بمشاعر العروبة التـي حركها إبراهيم بن محمد علي ورفاعة الطهطاوي و"بلنت" كل على طريقته فقـد تيـسر التفتي بالسيف والقلم أو اللسان عند البارودي وعرابي وغيرهما، ولا سيما مع معايـشة أفكار تحررية لم ينعدم هبوبها من الغرب، كما لم تحرم مـن دعـاة مـسلمين لـسنين كالأفغاني ونديم وغيرهما، وبذلك اشرأب المصري الجديد للطيران بجناحين من التحديث والإحياء، وهو متغرض من ثلاثة:

السلطان، والاستعمار، والوالي أو الخديوي.

** لذلك لا نعجب إذا وجدنا أن حملة نابليون قد دفعت المصريين إلـى اسـتحياء أصـول حضارتهم وإلى مواءمة حسنات الحضارة الغازية معها، ولا سيما عن طريق الترجمـة. وكان مما أعجبهم في الحضارة الغازية إجراءات العدالة في القـضاء الفرنـسي؛ حيـث فضلوا الأخذ بهذه الإجراءات لشريعتهم النظرية مفضلين ذلك على أسلوب أوباش العساكر في الفتك وهدم البنية الإنسانية، ولكنهم لم يعموا عن رؤية جوهر الوحشية فـي المظهـر القانوني لبعض جوانب العدالة الفرنسية نفسها، وعن عيوب أو غرائب العدالة الأوروبيـة الاجتماعية الأخرى. ولعلهم لم يسلموا قيادهم لمحمد علي إلا باعتباره شرا لا بد منه.

د- لقد كانت مناوأة أوروبا للمصريين والعرب مبررة لديها (لا بالمصلحة الاقتصادية فحسب) ولكن بخوفها منهم ومن الترك ومن المسلمين بعامة، ولا سيما بعد فتح الـسلطان محمـد للقسطنطينية ٤٥٣ هـ وحصار فيينا الذي حدث مرتين كما نفهم من "كايلتي" و"تـوينبي"، ولكن نظرنا في العقل الإنجليزي في فترة البحث دلنا على ما لا مبرر لـه مـن منـاوأة إنجلترا للحرية في مصر، وعلى نحو من ذلك صدد الثورة الفرنسية والثورة الأمريكيـة، فضلاً عن أيرلندا.

القومية كمذهب من المذاهب الأدبية: مفهومه المتبلور، وشروط الصدق والتكثيف والبلورة والتمحيص وركيزتاه: المحلية والإنسانية، وخطر التركيز على العبقرية القومية وتمجيد (العرقية) بكتاب د. نبيـل راغـب/ المـذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، الهيئة المصرية.. ط ١٩٧٧، ص ٢٠٦ – ٢١٨، ٢١٦، ٢١٨.

كذا دلنا البحث على استفزاز السياسة البريطانية للتطرف وتشعبها بالفلسفة النفعية في أكثر صورها دمامة، وفي الأساليب الماكيافيللية في أخص معانيها. وكذا بدا العقل السياسي الإنجليزي طيلة فترة الطمع الاستعماري مثلاً للرجعية والتعصب ومدابرة روح التعقل وروح العلم والتحرر التي سرت في التمدن الإنساني الحديث حتى في إنجلترا صاحبة الثـورة الديمقراطيـة الرائـدة ١٦٦٨ م وسيلي ما ندل به على شح الغرب على المصريين حتى بالديمقراطية نفـسها، وعلـى اسمية التفلسف الإنساني البريطاني أيضا.

لقد كانت الديمقراطية الغربية في المرحلة الاستعمارية ديمقراطية برجوازية حقًا، كما كانـت ديمقراطية متعالية (سوبرمانية)، وإن ادعت مبادئ الحرية والمساواة؛ فقد قصرتها على الرجـل الأبيض في الغرب غالبا، وإن كانت تلونت بلون الإنسانية (الهيومانية) الاسمية التي وقفنا عليها في الاتجاه الاجتماعي، بل لم تعدم الحرية اضطهادا في إنجلترا كما لم تعدمه في بلاد أخرى.

هـ- وقد رأينا مطرد تيار العنف والاغتيال السياسي في مـصر موازيـا لمطـرد سياسـة بريطانيا في مصر، وقد ظل هذا التيار ولا يزال يمثل رقيبا على السياسي المـصري، إن هـو تسامح في حقوق بلاده أو قيمها بدرجة خطيرة، وقد بدأت أحداثه مع الاستعمار ما في ذلك شك، وأهمها:

- مذابح في دمنهور والمحلة وغيرهما للأجانب؛ بسبب حكم الإنجليز بإعدام عرابي أدت إلى العدول عن الإعدام إلى النفي سنة ١٨٨٢ م.
- قتل "عردون" الحاكم البريطاني للسودان سنة ١٨٨٤ م.
- اتفاق محمد عبده والأفغاني على قتل الخديوي إسماعيل على كـوبري قـصر النيـل لصالح برنامجهما لتوفيق*.
- مقتل بطرس غالي سنة ١٩١٠ م، وحوادث ومذابح سـنة ١٩١٩ م ضـد الإنجليـز معروفة، والوجه السياسي والتعليمي لثورة ١٩١٩ م وارد في البحث.

كانت حادثة ١٩١٠ م أو بدايتها إهانة الناظر المصري لأعضاء الجمعيـة التـشريعية فـي محاولتهم منعه من ارتكاب حماقة مد الامتياز الممدود لقناة السويس (تأييـده)، وكـان لا يـزال ساريا إلى سنة ١٩٦٨ م، وأراد مده أربعين سنة أخرى(١)، وسيلي بيان ذو مغزى لواصف بـن بطرس في الدعوة إلى تجاوز هذه الأزمة، إلى جانب أدوار لمستنيرين مصريين عديدين (٢).

---

* محمد عبده للعقاد، وزارة الثقافة، العدد ١ ص ١٦٠، ١٢٨، ١٢٩ + الإسلام والحضارة الغربية، د. محمد محمد حسين، دار الإرشاد، ١٩٦٦ م، ص ٨١.

(1) انظر أيضا ٧٢ بصدد مدح شوقي لواصف بمدرسة الديوان.

(2) هذا الشرق العربي، ط دار المعارف بمصر، يوليو ٥٧، ص ٤٧ – ٥٣.

وقد ظهر من مذكرات سعد زغلول، وبشهادة الطبيب المصري الدكتور بهجت وهبي أن وفاة بطرس لم تنتج مباشرة عن الطلق الناري الذي صوبه إبراهيم الورداني، وأنها إنما نتجت عن جراحه الدكتور "ملتون"، بل ذكر الطبيب المصري أن الجراحة لم يكن ثمة ضرورة لها، وهو رأي له وزن؛ لأن الطب في مصر حتى ذلك الوقت كان قدوة للعلماء في سوريا وغيرها، على ما سنبين في الاتجاه العلمي. وهكذا اجتهد الإنجليز في تبرير الحكم بإعدام المصري الثاني بعد ما سببوه، سواء بسياستهم أو بجراحتهم من مقتل المصري الأول [1].

- إطلاق نار وإلقاء قنبلة على موكب حسين كامل في القاهرة والإسكندرية في ٤ و٦/ ١٩١٥ م.
- طعن وزير أوقافه بالسكين في محطة القاهرة في ٥/ ١٢/ ١٩١٥ م.
- كذا كانت محاولة اغتيال رئيس الوزراء محمد سعيد سنة ١٩٢٠ م، واغتيل عضوان من الأحرار الدستوريين سنة ١٩٢٢ م، ثُم جرت محاولة للاعتداء على حياة سعد نفسه.
- وصرع السير "لي ستاك" (حاكم إنجليزي آخر للسودان) كان في القاهرة سنة ١٩٢٤ م.
- وقد جرت محاولة نسف منزل النحاس سنة ١٩٢٦م.
- واستشهد طلبة في سبيل إعاقة محاولات نسيم إعادة الحماية، ولإعادة دستور سنة ١٩٢٣ م، سنة ١٩٣٥ م، ومن الطلبة علي طه عفيفي، ومحمد عبد الحكيم الجراحي، وقد أصيب جمال عبد الناصر أثناءها.

كذا قتل الدكتور أحمد ماهر، وجرت محاولة لاغتيال النحاس بواسطة حسين توفيق وأنور السادات سنة ١٩٤٥، وهما اغتالا أمين عثمان لإسرافه في التودد إلى الإنجليز سنة ١٩٤٦ م.

وتم اغتيال أحمد الخازندار وكيل محكمة الاستئناف، وسليم زكي حكمدار القاهرة، وشاعت حوادث انفجارات وحرائق في القاهرة سنة ١٩٤٨.

---

(1) مذكرات سعد زغلول: دراسة، ص ١٥٣، ١٥٤ وهذا الشرق العربي، ص ٤٨. وتطور المشكلة في المؤتمر القبطي بأسيوط، والمؤتمر المصري بالقاهرة بأدب المقالة الصحفية في مصر، جـ ٤، ١٩١ – ٢٠٤. وفي الطب المصري نقتبس" من ضمن ما فكر فيه الشاميون (عهد حكومتهم الفيصلية) إصدار مجلة طبية عربية تسجل ما يقوم به المصريون في مختلف فروع الطب من أبحاث واختبارات. (يقول د. رمسيس جرجس الأستاذ بكلية الطب وعضو مجمع اللغة العربية) وكان أستاذ الجراحة إذ ذاك إنجليزيا.. وأخذ يحاجني.. مؤكدا أنه مشروع فاشل (وأنه سيقضي على الطب في مصر" وفي بقية النص احتجاج د. رمسيس بسبق العرب في درس الطب – حاشية "من حاضر اللغة العربية" لسعيد الأفغاني، ص ١٣١، ١٣٢، عن مقال الدكتور رمسيس بجريدة مصر، العدد ١٣١ في ٢٩/ ٢/ ١٩٥٨م.

وتم اغتيال النقراشي والشيخ حسن البنا كليهما سنة ١٩٤٩، ثُم جرت حرب العصابات في القناة سنة ١٩٥١ فأزال الإنجليز كفر عبده وبطشوا بشرطة الإسماعيلية، فأضربت شرطة القاهرة، ونشبت حرائقها ووقع انقلاب وثورة الضباط الأحرار سنة ١٩٥٢.

ووقع حادث إطلاق النار على عبد الناصر بالإسكندرية سنة ١٩٥٤، وجرى اغتيال أنور السادات نفسه سنة ١٩٨١ بواسطة الإسلامبولي وغيره. وفي اسم "أنور" و"الإسلامبولي" دلالة على ما بينا من الروح المحافظة والدوافع القومية العاملة في هذا التيار منذ مطلع القرن [1].

و- لكن حتميات للعصر لم تعدم حين وجد المصريون لهم في أحلك الأوقات فكرا أو حلفاء (ما) من جانب أعدائهم، حتى اقترن منهم في تحصيلنا لهذا الأمر اسم "توماس بين" و"بيرنارد شو" و"بلنت" و"لامبير" باسم عرابي ومصطفى كامل وغيرهما [2]. والعطاء

(1) فسر ألبير كامي حوادث الاغتيال والعنف في دول أوروبا في القرن التاسع عشر باعتبار الاغتيال في أوروبا كان "هو القيمة المتعالية الوحيدة لبشر لا يؤمنون با " أملاً منهم في "عدالة أناس آخرين لم يولدوا بعد... كانوا أملهم الأخير في كتاب كامي "المتمرد" من فصله "السافحون المترفقون" "Les meurtriers Délicates" ص ١٥٦ + وفرق ما بين القتلة الأوربيين والمصريين فرق بين الملحدين والمؤمنين لكن كلاً منهم له دافع وطني دنيوي.

لكن تسميتي جمال (عبد الناصر) وأنور (السادات) وإن باينتا تسمية الإسلامبولي التركية الإسلامية الأعم تسميتان من جيل فترة الحرب العالمية الأولى فيهما تيمن بأعلام من جمعية الاتحاد والترقي، وكان أعضاؤها بادئ أمرهم دعاة ديمقراطية ضد الخلافة في تركيا، وكان لهم بطولات في صد غارات اليونان على تركيا، لكن اتجاهاتهم إلى التتريك ثار بالعرب وبعض المصريين البارزين تحت إمرة شريف مكة، وعاونهم الغرب على النحو الذي بيناه في الاستشراق في الترجمة وفي الاتجاه التاريخي. وكمال أتاتورك مشهور. وأحمد جمال باشا الملقب بالسفاح لسوقه قافلتين من أعضاء الجمعيات الثورية العربية، ولهم اتصال لم يدع الترك للعرب معدي عنه بالسفارات والقنصليات الغربية – إلى المشانق في دمشق وبيروت. وأنور باشا قائد تركي آخر في الجبهة العربية في الحرب الأولى. وقد نجحت الثورة العرابية بمعاونة عزيز المصري وما زاد على المليون مصري في القضاء على الأتراك في المنطقة العربية. ولم تعد الأسماء التركية موضع تيمن في العالم العربي ورادفتها الدعاية للعروبة والإسلام، بل ذاهبة في هذا إلى حد الثورة والاغتيال للوطنية والعروبة والإسلام، كما هو مدرك من تواريخ الأعلام المصريين جمال وأنور والإسلامبولي هؤلاء.

(2) ويلفريد بلنت بالثورة العرابية لكرومر، ص ٦، وشبه دلائل على استعرابه بترجمته في "المستشرقون جـ ١، ط٢، وحسبانه في أغراض الاستعمار في "الإسلام والحضارة الغربية" جـ ١، هـ ص ١٥٣.

الإنساني لاستنارة ق ١٨، وتغير النظام الرأسمالي في أوروبا بعد الحرب الأولى إلى لونة اجتماعية كأثر للحرب ولضغط الماركسية معروفان *.

ز- ولما كانت الشورى الإسلامية كما ذكرنا، وكانت الديمقراطية على نحو ما بينا، فلم يكن بد من التسلط ومن الخوف، وكان الخوف من دوافع الثورة كما ذكر أرسطو ورآه كرومر في كتابه عن الثورة العرابية، ولا نستطيع حذفه من دوافع محمد علي في مذبحة القلعة، ولا في دوافع من ذكرنا من المماليك أو من سبقهم من البيزنطيين وغيرهم، ولكن دافع الخوف كان غريبة من الغرائب حين تأخر به العمل في الحياة السياسية المصرية إلى سنة ١٩٥٢ م حين توجس الضباط المصريون الأحرار من فاروق مختتم الفترة التي نضطلع بدراستها [(1)].

غير أنه قد كانت فكرة الجمهورية عند عرابي وقولته العمرية تأبيا على الخوف وعلى الحنث، إلى جانب فكرة الثورة الشاملة الأفغانية التي لم توفق وراح ضحيتها الأفغاني وعبد ا نديم كلاهما في الآستانة. ونضال الثوار الثلاثة لم يذهب سدى، وإنما شحذ وجدان المصريين وهيأهم لثورتين أخريين بعد الثورة العرابية هبتا في مصر ضد الإنجليز وضد الملكية في سنتي ١٩١٩ و١٩٥٢، ولكن أنجح ثورات المصريين وأفعلها كانت في مجال التعليم والترجمة بحسب ما سنقتصر على إيراده من أمرهما صدد الطهطاوي، وصدد إنشاء الجامعة الأهلية ١٩٠٨.

---

* ورقتنا لمشروع الدراسة صدورا عن: دائرة المعارف البريطانية في الإنجليزية، ط ١٤، مجـ ٨ (الاستنارة) وعن د. أحمد عبد القادر الجمال في دراسات في النظم الاجتماعية والسياسية، ١/ ٥٦، ص ١٥٤ – ١٦٠.

(1) علل الثورة في نفسية الثائر عند أرسطو منها الطمع في الثروات والألقاب، ومنها الإهانة والخوف والتفوق والاحتقار، والنمو غير المتناسب لبعض أجزاء المدينة بالإضافة للمكائد واختلافات الأصل، والإهانة، والمنفعة تجمعها – الفكر السياسي الغربي ص ٧٩، ومفهوم الثورة عند جان بودان (ت ١٥٩٦) "في تغير القوة العظمى من موناركية إلى أرستقراطية" "بتغير شكل الحكومة والسيادة في المجتمع، ولو بقيت القوانين والدين وسائر المنظمات كما هي – نفسه ص ٢١٧، ٢١٦ وإيذان الظلم بخراب العمران بمقدمة ابن خلدون ٥٠٧/ ٥١٤ ودواعي الهرج الموجبة للقوانين بها ص ٣٣٧. ومطلع قرننا سنة ١٩٠٢ مات الكواكبي بمصر وكتابه طبائع الاستبداد يتناول أسبابه ومظاهره ودوافعه والشرور الناجمة عنه، نقدا للحكومات المطلقة أيامه – طبائع الاستبداد – كتب ثقافية ٢٧ – الدار القومية ١٩٥٩ ص٣، ٤ وانظر: تلاشي الخوف من دوافع المصريين في ثورة ١٩ – الرافعي، وبيان الوفد لدى معتمدي الدول بنفس الكتاب، ص ١١٣، ط الشعب، وإخجال متظاهرة مصرية لجندي بريطاني باستعدادها أن تكون "مسز كافل" مصرية ص ١٢٧، وفي عهد إسماعيل وتوفيق بالاتجاهات الوطنية جـ ١، ص ١٥٩ + وبه فكرة الجمهورية لدى عرابي والبارودي بالفصل الرابع إلى ص ١٥٩.

** لقد حارب الإنجليز التعليم في مصر فزادوا من إصرار المصريين عليه وزادوا من أنفتهم من الاستعمار، وبرزت ميزات وجدوى التروي غير المفرط في منهج محمد عبده وتلاميذه ذوي المواهب المتنوعة المتكاملة، والمهم أن المصريين لم يعدموا في معظم الأحوال القائد والكاتب أو السياسي المفوه الذي ظل يحدثهم بلسانهم مفصحا ويصدر عن وجدانهم، وإن ظلت رؤيتهم لكينونتهم محصورة أو مضطرة إلى الانحصار في الأشكال التنظيمية الغربية في الكثير الغالب من أمور دنياهم العلمية والمعاشية، شأنهم في ذلك كشأنهم في الأشكال الأدبية الحديثة التي سنقف عليها في البحث، ولم يشذ عن ذلك اصطناعهم الشورى التي أشربوها من تراثهم مقننة في الأشكال الانتخابية والبرلمانية الغربية الحديثة، وبهذا التدرج وذلك التوفيق توفر دواء آخر للأرضة بعد دواء التنوير الذي عالجوا به مشكلات الأسرة، فنجوا من نظام الحريم إلى مفهومين للأسرة لا ثالث لهما: الأسرة العائلة والأسرة الوطن، وقد زودهم التراث في ذلك بأسانيد اطمأنوا إليها منذ رفاعة، وعززهما توالي العوامل المحلية على أصعدتها المختلفة بالدارسة.

وهذا المبحث ليس كالأول عنِي بالتعرف على طبيعة حكام مصر المتغلبين، وليس كالثاني نظر في حكامها المقرين فيها بإرادة أبنائها، المستبدين بهم بعد، وفي هؤلاء الأبناء الباحثين عن مكانهم ومكانتهم، ولكنه يبحث عن الأرضة هنا في مكانها الطبيعي في الأوراق والقديمة منها بصفة خاصة حيث سجلات الشريعة التي تُسأَل فيما شكونا منه وتستفتي فيه، وإن يستبعد الأشخاص المتصلون بها ضرورة في جميع ذلك.

أ- فمن رفض عمر مكرم استخلاف محمد علي له وتمسكه بمقاطعة الوالي هو والعلماء حين لم يستشرهم في ضرائب جديدة، وإلى أن نجح تلميذ البيئة البيزنطية الألباني في إيقاع الشقاق بين العلماء وتكرار مذابح ماكيافيللي في القلعة توسلاً إلى غاياته وإلى سلطنة حسين كامل، وسد علي عبد الرازق ١٩٢٥ م على فؤاد باب التسلط بالشورى وإلى دقرطتها عند خالد محمد خالد، فقد تبين أن الأزمة كما في القديم وكما في الديمقراطية الاستعمارية هي أزمة نظر/ تطبيق.

وقديما أعجل العلماء الفقهاء عن تطبيق شورى تفشي الزندقة التي لا تشبه في شيء زندقة عصر النهضة الأوروبية؛ إذ تمثلت الاستنارة الإسلامية في الشريعة الإسلامية التي هي شريعة سماوية اجتهادية أيضا، بينما جاءت الاستنارة في الغرب الحديث من الاجتراء على الشريعة والدين، وأعجل المسلمين عن ديمقراطيتهم تهمج المغول وتغول الغرب وهجومانية الترك والمماليك، وفي هذه الظروف تُفْرِخ الفردية وتنمو، كما ينشأ التصوف والعزوف.

ب- ويرى باحث مصري فاضل في رفض الشيوخ والقسس للسلطة في بعض مراحل تاريخنا الحديث فصلاً بين السلطات [1]، ونرى أن المصطلح صحيح ولكنه غير لازم؛ فقد يكون ذلك من تصوف الورع لا تصوف السلب، والعزوف وقد يكون موقفًا تتطلبه الشورى الصحيحة، ومع الشورى لا مصادرة، ويفترض ألا يخشى من دين هو في المصالح شورى ما وضع الضمان العملي لتحقق الشورى النظرية، فهل الشورى الإسلامية كاملة نظريا؟

ج- سورة الشورى تبنيها على الفقه والسماحة وعدم الإلحاد والمشاركة الاقتصادية والدفاع المسلح والعدل [٢] وعمر بن الخطاب رفض (هجومانية) الديمقراطية، وأوجب – بعد السقيفة – استكمال المشاورة قبل المبايعة. ولكنه لما كان الواقع هو تلك الفردية فقد كانت شورى المجتمعات الإسلامية نظرية في الأغلب الأعم، وإنما زاد في بقائها نظر لا تطبيق شامل فيه وصايا إسلامية شبه رواقية أو مسيحية – إن لم تدع ما لقيصر لقيصر – فقد منعت مزاحمته أو طلب السلطة إلا إذا – لم يكن بد [٣]. ووجد هذا المبدأ الدستوري الخاطئ ذي الغاية الحسنة طريقة بين العوام إلى جانب الفردية والتصوف، فازددنا بعدا عن سورة الشورى وعن حديث عمر، وعرف مكان الأرضة أو سبب الضلال. وهذا هدف هذا المبحث وحسبه لكي نعرف أن فشل الشموليات الدينية الإسلامية منذ انتهاء الراشدين، إلى عبد الحميد، وإلى فشل أفكار الخلافة العربية تحت شريف مكة، أو تحت وحيد الدين أو الملكين حسين وفؤاد، وإلى أن متع الإسلام وفلسف له في الأشكال الغربية*.

(1) وليم سليمان/ الحوار بين الأديان، الهيئة المصرية العامة ٧٦٠٠، ص ١١٩، ١١٨.

(2) الآيات ٣٧ – ٤١، وانظر تحليلاً رباعيا لآية الشورى بخصوصها (رقم ٣٨) في مناقشة د. يحيى حقي لكتاب علي عبد الرازق، ص ٢٧، ط مكتبة الحياة. ونص الآية: ﴿**والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون**﴾ وانظر مطرد القضية ص ٣٧.

(3) عمر وأعظم خلاف في الإمامة بالملل والنحل للشهرستاني، المثنى والخانجي، ومصورتها بدار الفكر، هامش الفصل لابن حزم، مجـ ١، ص ٢٢.

وفي "سلك العدول" "برعاية الجوارح"، في عجائب الآثار ١ – ١٢٢، وعنه في تعليل د. وليم سليمان أيضا السابقة بكونه استعاضة عن السلطة في العالم الخارجي. ومن شواهد ذلك في التراث قول تاج الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني في رسالته" تاج فيما يجب على الملوك (الباب الأول): فعلى كل ذي عقل وأمانة أن يبعد عنها (أي السلطة) إلا إذا لم يكن له بد منها.

* في محاولات الأعلام المذكورين الحظوة بالخلافة في فترتنا، وفشل المؤتمر الإسلامي – انظر الاتجاهات الوطنية. ص ٥٠ – ٥٤ وشد أزر الشعور بالجامعة الإسلامية من الدعوة إلى الجامعة العربية، نفسه ص ١٧٠ – ١٧٩، ومؤدى اضطهاد الإنجليز للمصريين في تحول ثورة ١٩ إلى حركة وطنية، وانقلاب كثير من دعاة =

د- وقد اعتبر محمد عبده بعمر مكرم والأفغاني، ولم يسعفه إلا منهج مـداورة [١] الإنجليـز ريثما يدخل النملة في أنف الفيل، فغرهم منه أنه أشب معركة في الأزهر، وظهر الإنجليز من ورائه بمظهر مساندة أهل البلاد التقدميين، فأوضح التوافق الثابت في الإسـلام منـذ محاورات الحنفاء للصابئة بين الدين وحقائق العلم النظري والتجريبـي أيـضا، ووضـع تصورا لأمل عرابي النيابي، وسار قد ما يفقه ابن تيمية وذوق الجرجاني ومظهر المحتج (البروتستانتي) المتحور أو المتغرب.

ثُم شفع النظر بالعمل في حدود ما أمكنه بعزيمة طهطاوية جديدة سرت فيه؛ فأقام جمعيـات وربى جيلاً من الكُتاب والمصلحين ووضع نوبات تجاوز بها الأزهر ووصمه بـالتخاف، ومـن ورائه تلاميذ تتضاعف أعدادها وجهودها في متوالية جديدة تضاعف العناء المصري والـدولي بالإنجليز والاستعمار، وكانت مصر ذات المناخ المعتدل من أكثر مستعمرات الإنجليز حـرارة وصخبا من قبل الحرب العالمية الأولى وإلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، وكذلك كـان أدبهـا ونقدها منذ الربع الأول من القرن، فمن الأوضاع التي سـاءت بانتكاسـة العـرابيين، وتوغـل الجيوش والدين، والامتيازات ومظاهر الانحلال الأوروبية أولاها النهضة علـى أيـدي تلاميـذ الأفغاني والأزهريين، ورواد النهضة اللغوية والاقتصادية في مصر والشام [٢].

لقد برز لنا في هذا المبحث أحد الفقهاء المصريين وهو محمد عبده الذي اعتمد مـا ظهـرت بوادره في المبحث السابق من أسلوب الطهطـاوي فـي الإحيـاء والاسـتفادة مـن الغـرب. وقد اتخذ الجهاد عند محمد عبده أبعادا نظرية وعملية في التفسير والكتابة الأدبية والتعليم وفـق فهم توافقي دقيق لعلاقة الإسلام بالعلم وفصل منهجي بين الدين والسياسة مباينًـا بـذلك لمـنهج الأفغاني [٣] والفهم الأشيع للجهاد؛ فكانت دعوة محمد عبده دعوة إصلاحية اجتماعية وأدبية فـي

القومية الفرعونية إلى الدعوة الإسلامية، ص ١٤٠ – ١٧٠ واستحالة الشيوعية بازدياد التمسك بالإسـلام فـي تركيا في ظل الديمقراطية ص ١٢٠، وغلبته الغزاة ص ١٢٤ وفيما عنيناه بالتفلسف الإسـلامي فـي الأشـكال الغربية (الرؤية التوفيقية الفاضلة لكتاب علي عبد الرازق (١٩٢٥): انظر خالد محمد خالـد/ "مـن هنـا نبـدأ" ١٩٥٠، خاصة فصله الأول، خاصة تفرقته بين (الحكومة الدينية والحكومة مفهوما حـديثًا للـشورى) والـتهم والدفوع بمحكمة القاهرة الابتدائية هـ ص ٣١٥.

(1) المداورة مصطلح خلدوني، استخدمه محمد يللو ابن الشيخ المجاهد عثمان بن فوديو، ببلاد التكرور، من طبقة ابن عبد الوهاب في الجزيرة العربية. والمداورة في عبارة محمد: خلاف المداهنة، فـالأولى "بـذل الدنيا لإصلاح الدين أو الدنيا أو كليهما: مباحة، وربما استبيحت، والثانية ترك الدين لإصـلاح الـدنيا – إنفاق الميسور، تحقيق الأزهر، ط سكوتو، ص ١٩٧.

(2) تطور النقد والتفكير الأدبي في مصر في الربع الأول من ق ٢٠ لمرزوق، ط ١/ ٦٦، ص ١٦.

(3) ترجمة الأفغاني بزعماء الإصلاح ص ٥٩ – ١٢٠ وثورية الأفغاني المطلقة كما تتضح فـي مقـالات العروة الوثقى الـ ١٣١ ظاهرة في شعار المجلة ذات الشهور الثمانية الحافلة من سنة ١٨٨٣ م، ومـن

=

المقام الأول، ننفذ بها إلى الناس من خلال التناقض بين القصر وتابعيه من جامدي الفقهاء وبـين الإنجليز ومعاونيهم من الأسرة الحاكمة، فتقوى بالآخرين ليقدر تلاميذه على حـرب الإنجليـز وتطويع الملك في النهاية.

** هكذا عد محمد عبده علامة على تجاوز مرحلة الوصم بالتخلف، وعادة الـدين يـرتبط بالحياة في الإطار الوطني كما اطرد زوال التناقض بين التعليم الديني والتعليم المدني فـي ذوق الأمة، وتضاعف حظ مصر من الرجال الأذكياء الذين قادوا النضال الوطني من بعده في الـدين والأدب والسياسة. ومفرز ذلك في الاقتصاد ودعم طلعت حرب للصناعة مـن عـين ملامـح استنارة أوضحت أن بالبلاد قدرة على تحطيم عوامل الإعاقة أو مداورتها بـذكاء الواثـق مـن حركة التاريخ رغم عنت المستعمر والحاكم المتسلط وثقل تركة العناء التاريخي جميعا.

أهدافها تنكيس إنجلترا عن الشرق، ومنهج محمد عبده في مصر بالمتن مباين لمنهجه ما قبـل. وتنظـر خلفية إيرانية شيعية، وتشجيع غربي للأفغاني وتوسم إسماعيلي وماسوني في أسلوبه وأهدافه بكتـاب د. محمد محمد حسين "الإسلام والحضارة الغربية"، دار الإرشاد ص ٧٥ – ٧٩.

(٢)

١) أما سعد زغلول فهو أبرز علم سياسي مصري ظهر، وقد كانت وزارة مصطفى فهمي (حميه) قد قضت في حكم راكد ثلاثة عشر عاما، ملتها الطبقة المتعلمة المستنيرة، وكان قاسم أمين قد دعا إلى إنشاء جامعة مصرية أهلية، اطرادا مع إيمان مصطفى كامل بأن التعليم العالي هو الوسيلة الأولى والأخيرة لرقي الأمة. وكان علي يوسف قد أقنع جمهور (مؤيده) الغفير "بأن تعليم العلم بلغة أجنبية عن الأمة ينقل العلم إلى طائفة من أبناء الأمة، وأن تعليم العلم بلغة الأمة ينقل الأمة كلها إلى العلم وينقل العلم إلى الأمة كلها"، وتلك حركة وطنية متسعة اعتزم "كرومر" و"الخديوي" تصفيتها ببطرس غالي باشا.

ب- ولقد وقفنا على أطراف من غارة كرومر وبطرس المقنعة بالقانون (شأن ما ذكر من منحى نابليون في ممارسة الأعمال البربرية في ظاهر من العدالة الفرنسية) على فلاحي دنشواي سنة ١٩٠٦، وعلى مقتل الناظر المصري بسبب من ذلك كله سنة ١٩١٠ في البحث، ولكن يهمنا هنا أن نذكر أن الأعناق التي علقت، والظهور التي جلِدَت، وأعوام الأعمار التي أُمضِيت في السجن، والمأتم الذي شهدته الكنانة وأشهدت عليه مصر وابنها البار مصطفى كامل ضمير أصحاب الضمائر، وعواطف أصحاب العواطف الكارهة لبريطانيا في الغرب لم يكن ذلك التعس كله بغير عائد على المصريين بحسب قانون الضارة النافعة الذي ألمحنا إليه وسنجرده من مجموع لمثل هذا الحادث الشنيع، وذلك شأن الشدائد مع مصريي العصر الحديث.

جـ- فلما لم يكن في مقدور اللورد الإنجليزي أن يقف بنفسه في الميدان فكر – على ما يبدو مرة أخرى– فيما ورد في تقرير لانكريه عن الفلاح المصري شبيها بما في كتاب الأمير لماكيافيللي (دستور الحكم الروماني والغربي في عمومه) من تسكين الناس بحكم لبعض ذويهم فيهم، ذلك أن هذا الفكر القديم قد أثبت عدم كفايته بعد فترة من حكم مصطفى فهمي، ولم يكن يبدو مأمون العواقب في حكم بطرس غالي؛ لهذا فكر كرومر في اختيار (بعض) وزراء أقوياء يمثلون ترضية للرأي العام، ويستتر هو من ورائهم في تنفيذ سياسته عينها، ولا سيما في مضادته لمساعي الوطنيين الناشطة لإنشاء الجامعة وترقية التعليم؛ لذلك عمل على الإتيان بسعد زغلول: ثُم كبحه بغطرسة بطرس غالي وبمناكد "دنلوب" المستشار الإنجليزي المفروض على التعليم المصري [1].

---

(1) ينْظَر "من مستشاريهم المخربين" لدى د. أحمد هيكل في تطور الأدب الحديث في مصر، ط ٢، ص ١٩٧١ م، و "من صور هذا العبث"، هـ ص ٩٣.

- ولكي يحبط كرومر مسعى إنشاء الجامعة بدأ بإذاعة دعاية مخنوسة داورهـا المـصريون على ما يبدو عن أولوية حاجة البلاد إلى التعليم الأولي وبإنفاق بعض المال فيما يظهره بمظهـر من يشجع الدين في الكتاتيب.

* ومع ذلك فإن إبعاد سعد عن لجنة الجامعة لم يضعف من النشاط المبـذول فـي سـبيلها، واستطاع المصريون مجتمعين أن يحققوا بها نصرا عده نصرا قوميـا حاسـما، وكـذلك أدى المجيء بسعد زغلول إلى وزارة المعارف إلى إصلاح لبعض شئونها، فضلاً عن تغيير النظـرة إلى المسئول الحكومي منذئذ كما سيتلو.

فأما معركة الجامعة ففيها كتب مفصلة ومقـالات تعـددت بتعـدد المواقـف والشخـصيات والتيارات التي ثارت من حولها، وليس هنا تعدادها أو تلخيصها، وحسبنا التذكير بوقـائع هـذه المعركة التي وصِفَت باللاهوادة فيها، وإبراز الأبعاد التاريخية والواقعية والنفسية لهـذا العمـل الجليل كله. ومنها أن هذه الجامعة نفسها تمثل أثرا لجهود النهضة والتعليم منذ أواخـر القـرن الثامن عشر، وأثر سيره في تطوير هذه الجامعة أيضا وجعلها حكومية سـنة ١٩٢٥ وإتباعهـا بجامعة ثالثة في الإسكندرية سنة ١٩٣٩، فضلاً عن مجمع اللغة العربيـة ١٩٣٢، والجمعيـات الكثيرة المشهورة، ونحو ذلك مما سيلي ربط له بمثله في الشام *.

٢) وكما أشعر الشعب الإنجليزي بقدرته في هذا الإنجاز الجمعي المنظم أشـعرها زغلـول وأشعر الناس بتعبير خصم عاقل لزغلول هو هيكل بأن "السلطة أصبحت قـسمة بـين الوزير المصري والمستشار البريطاني"، وكذلك دلت شهادة أجنبي في وزارة زغلـول "على أن الوزير المصري قد صارت له مكانة غير ما عهد الناس من قبـل [1]، وهـي المكانة التي ستترسخ لحزب الوفد بإزاء الحزبين المنافسين بطراد الأحرار الدستوريين وحزب الاتحاد، وإن لم يعن ذلك عدم إمكان الائتلاف.

ب- وكذلك فإن سعد ناضل (تعبير هيكل وجه عنايته) لتعريب التعليم بالابتـدائي والثـانوي جهد الطاقة، واستأنف البعوث التي انقطعت عشرات الـسنين، ولـم يكـن أمـر هـذا الاستئناف هينًا أيضا، شأن سعد في ذلك شأنه فـي كثيـر غيـره مـن أمـور الإدارة

---

* مذكرات هدى شعراوي، ط الهلال، ص ١١٦ – ظ ١١٨ وراجع محمد عبـده العقائـد ص ٢٣١ – ٢٣٣ وتطور النقد لمرزوق ص ٣٥٩ – ٣٦٧ والأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة المصرية بصفة عامة، ولاحظ تشكيل لجنة الجامعة، وحركة التبرع حتى ١٩٠٨، وتم تعريب التعليم سنة ١٩١٢ (تطوير الأدب الحديث في مصر، د. أحمد هيكل ط ٢ هـ ص ٩٤، عن عمر الدسوقي في "الأدب الحديث" جـ ٢ ص ٤٣ – ٥٤.

(1) مذكرات في السياسة المصرية جـ ١ أول ص ٢٤ و Sayeed Qutob – P. 16 بمراجعته كتاب أحمد جمـال محمـد The intellectual origins of Egyptian nationalism – London 1969. ومصدرهما كتاب همفري بومان: middle Eastern windo P. 195.

والسياسة، فكانت بعثة الأدب والفلسفة سنة ١٩٠٧، وبعثة الحقوق سنة ١٩٠٨، وهي أعمال أقر هيكل بأن سعد زغلول كان صاحب الفضل بسبقه إياه فيها (1) وهذا ليس مجرد سبق، بل فتح لطريق طويل قديم كان قد أغلقه الإنجليز وألغموه، وسيكون لهيكل دور هام في تعبيده وتجميله فيما سيلي في البحث.

ج- وإنما انتزع سعد للبلاد هذه الحقوق المغموطة بأثمانها من أرواح أهل دنشواي ومن دماء ستتابع تيارها فيما يلي، وقد امتحن التاريخ بكل ذلك زغلولاً، بينا كرومر والخديوي يخططان للفتك بالحركة الوطنية، فلم يكن بد لهما من إبقائه على مضض منهما، وكان مضضه هو الآخر غير قليل (٢).

د- فأما مضض سعد فمضض مصري عام، وجد فرجته الضيقة في محاولة قتل بطرس غالي على يد الورداني الصيدلي كما سنبين. ويهمنا هنا تأمله كعلامة على هذا المضض بالاستعمار وعبثه بالحكم وبمصالح البلاد: تعليما واقتصادا، ولنتصور مدى تصعب الوضع أمام أي سياسي وطني.

هـ- أما الدكتور محمد حسين ومثله في بحثنا الحديث الأستاذ أنور الجندي مقابلين مضارعين في التطرف الجائر لآرنولد توينبي في نظرته إلى الإسلام في البحث الغربي فالأول يخاص من عرضه لتاريخ مصر في الفترة من ١٩١٤ إلى قيام الجامعة العربية (١٩٤٥) إلى القول بأنه يدعو إلى الرثاء حقًا.

فلم يستطع المصريون في أحلك الأوقات أن يتحدوا وظل بأسهم بينهم شديدا.. "رحماء على الأعداء متباغون بينهم" على غير ما وصف ا به الأبرار.

كانوا قبل الحرب شيعا، وكذلك كانوا خلال الحرب، وكذلك ظلوا بعدها – إلا عند بدء ثورة ١٩١٩، ثُم لم يدم اتحادهم إلا قليلاً (٣) إذ دب بينهم الخلاف ولما تنته الثورة. وسيلي عرض

---

(1) مذكرات في السياسة المصرية آخر ف ١ ص ١٣٤. وقد كان "دنلوب" قد حمل "علي مبارك" على إصدار قرار بجعل اللغة الإنجليزية لغة التعليم سنة ١٨٨٩، وظل الحال كذلك حتى ١٩٠٨، وتم تعريب التعليم سنة ١٩١٢ (تطور الأدب الحديث في مصر، د. أحمد هيكل ط ٢ هـ ص ٩٤، عن عمر الدسوقي في "الأدب الحديث" جـ ٢ ص ٤٣ – ٤٥.

(2) الاتجاهات الوطنية ط بيروت جـ ٢ ص ٣٩٤ – ٤١٠.

(3) حملة الدكتور محمد حسين المشار إليها قبل على سعد زغلول تصم زغلول بالغرور واتباع الهوى، كما أن للباحث تعريضا به آخر من خلال ذكره لدوره أخيه فتحي في محكمة د. نشواي وحتى لدور زوج سعد السيدة صفية لقيادتها مظاهرات النساء في ثورة ١٩١٩. يوافق أستاذنا الدكتور محمد حسين في ذلك في الفترة إلى سنة ١٩١٤ بحث جد للأستاذ عبد الخالق محمد لاشين في كتابه "سعد زغلول – دوره في السياسة المصرية" حتى سنة ١٩١٤، ط دار المعارف، ١٩٧٤.

=

لمظاهر حدة المزاج وخشونة القول بين المصريين في هذا الفصل وفي مدارس النقد واتجاهاته من وجهة نظرنا فيما بعد.

ولقد أبرز العقاد في كتابه عن سعد زغلول أدوار سعد في الوفادة عن الأمة، وفي تحليله لبيانات ملنر المخنوسة وفي خطاباته وبيانه جميعا، ويكاد يكون رأي العقاد مقابلاً حادا لرأي الدكتور محمد حسين في سعد زغلول، ولا زال سعد زغلول شغل الباحثين شأن كل عظيم [1].

و- ولكن الذي نخاص إليه من نظرنا في هذه الكتابات المتعارضة والمتضاربة ومن بعض المنشور من مذكرات سعد زغلول، ومن مذكرات خصمه العاقل محمد حسين هيكل وما تفضي إليه – المنشورات الغربية والاستعمارية فضلاً عن بعض الدراسات التاريخية العالمية الحديثة هو ما يأتي:

- برز سعد زغلول في الميدان السياسي المصري من خلال الركود الذي جلبه طغيان الإنجليز على الحياة المصرية في سني الاحتلال العشرة الكئيبة الأولى، ومن خلال حكم مصطفى فهمي والد زوجة زغلول، بعد هذه الفترة تبرمت الطلائع المثقفة بالأحوال تبرما خشية "كرومر" فاحتال لصد التيار بتنصيب بطرس غالي، ومموها لطغيانه بسعد زغلول ذي السمعة الوطنية؛ تعمية عما يدبر لرجال الحركة الوطنية وصرفًا لهم عن إنشاء جامعتهم الأهلية. وقد أُريد صرف سعد نفسه عن مساعي الجامعة بتوزيره للمعارف توزيرا منغصا بالمستشار الإنجليزي "دنلوب".

- أفلت زمام سعد من أيدي "بطرس" و"كرومر" و"دنلوب"؛ فأنشئت الجامعة كما بينا، وأُعِيد المستشارون الإنجليز إلى حدودهم، واستؤنفت البعثات وبدِئ بتعريب التعليم، كما قُتِل بطرس نفسه وقد تحصل لنا خلال مقابلة آراء لهيكل (محمد حسين) والعقاد أن زغلول اندفع في الجهاد لتحقيق نبوغ المصريين واستقلالهم بدوافع وطنية صحيحة، وأن أسلوبه الحقوقي الخطابي ونزعته المثالية جعلاه يكْره الإنجليز على الشروع في تنفيذ ما اضطروا إلى الوعد به خلال الحرب "الأولى"، ولم يزده تنكيل الإنجليز به إلا قربا من وجدان المصريين، وتأثيرا في الرأي العام الغربي أيضا.

- أدت مبالغة ناشئة الأحرار الدستوريين إلى زيادة متاعب سعد؛ فاستقال (أثر اغتيال الوطنيين لـ "لي ستاك" ١٩٢٤ م) من رئاسة الحكومة عسى أن يكون له نفع للوطن في مجالس

نجح المصريون في إعادة اللغة العربية إلى ميدان التعليم سنة ١٩٠٨، وتم تعريب التعليم سنة ١٩١٢ "تطور الأدب الحديث في مصر" د. أحمد هيكل ط ٢ هـ. ص ٩٤ عن عمر الدسوقي في "الأدب الحديث" جـ ٢ ص ٤٣ – ٤٥.

(1) مذكرات سعد زغلول – دراسة ص ١٣٣، ١٣٤ + .

النواب، ولا زال يدفع جهود الائتلاف ومحاولات الحد من استبداد الملك إلى أن تُوفي سعد ١٩٢٧.

- وحيث لم يكن للإنجليز – كشأنهم في كل عمل مماثل– قِبل بسخط الوطنيين الذين عبأهم بيان سعد ضد موقف الإنجليز الملنري من عدلي أيضا، وهو ما نفاه اللنبي بسببه، فقد اضطروا إلى منح المصريين استقلالاً تحت تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذي ما فتئ المصريون يتمسكون بشقه الأول؛ باعتبار مصر دولة مستقلة، وسارعوا إلى وضع دستورهم على أساس سلطة الشعب سنة ١٩٢٣.

- برز القصر كقوة كريهة حين تدخل لتوسيع سلطاته في الدستور إلى جانب الإنجليز الذين اعترضوا على ذكر الدستور تبعية السودان لمصر.

- ولقد أفشل زغلول محاولات "تشرشل" ملنرة مصر، بينما نجح هذا في تقسيم الهلال الخصيب، وتسليم شطر من فلسطين لليهود، ونصب في البلاد العربية الشرقية- رغم ترسخ نزعة العروبة فيها- ملوكًا في إطار التبعية الكاملة لبريطانيا، وهو ما لم يمكن زغلول منه الإنجليز في مصر.

- وقد ظهرت لنا مبالغة المصريين في تمسكهم بالسودان، وكيف استغل الإنجليز هذا الادعاء التاريخي في ابتزاز الأموال المصرية وإضعاف العسكرية المصرية، وكيف أدى تمسك بريطانيا نفسها بالمستعمرات إلى إرهاق خزانتها ولكنها حاولت تخفيض متاعبها بتسكين الوطنيين بكلام لا معنى له Bill grant وخلق صراع بين العرب واليهود، ومع ذلك فقد ارتد طرف الحرية إلى الإنجليز وعجل برحيلهم عن المنطقة كلها.

- اضطر المصريون إلى التخلي عن وداعتهم التاريخية؛ فاصطنعوا التظاهر والاغتيال السياسي ونصب مستيئستهم من أنفسهم رقباء على الإنجليز وعلى من يستعملونهم من الوطنيين، مما سيرهص لقيام تنظيمي الإخوان المسلمين والضباط الأحرار.

- لقد ظهر لنا أن الانحدار في الأخلاق السياسية الاستعمارية البريطانية لم يجعل سعدا يكفر بالضمير الإنساني في الغرب، كما أنه قد حظي بتقدير نوابغه، وجعل من مكانته في نفوس الوطنيين والغربيين عاملاً في تذليل المستعمر وتهذيب القصر.

- ومع ذلك فإن قصر نظر متفلسفة الأحرار الدستوريين إلى سياسة سعد تجاه السودان سيحرم سعدا من جدوى معظم فكرهم النظري القيم، كما سيفقدهم أيضا القدرة على التأثير بدونه فيما بعد الأبناء منهم في سانحة من الزمن على قواعد شيدها سعد قبلهم.

- أما الدستور الذي وضعه المصريون أثر إعلان فبراير والذي نص على إعلان مصر دولة مستقلة ذات سيادة، فقد أفقده تسلط الملك عليه كثيرا من قيمته المبدئية بالنسبة للشعب؛ مما جعل التجربة الوطنية في عهد فؤاد تقف عند شبه بدايتها في عهد توفيق.

- في الحرب الأولى خاصة امتحن المصريون بتسخيرهم في حـرب الأتـراك واسـتنزاف مواردهم؛ وبخيبة أملهم في جماعة تركيا الفتاة التي أثارت الثورة العربية عارمة عليهم لفرضهم التتريك في الشام وغيره كما هو معروف، ولكن شاء بعض قادة المصريين أن يأخذوا الوعـود الغربية مأخذ التصديق، وقادهم زغلول في هيام مثالي جدلي لا يفتر في معركة شنها على ملكة البحار في أوروبا وأمريكا، ولم تستطع هذه أن تمسكه في نفي كما تجرؤ على شنق عرابي مـن قبل؛ لأن الجمهور كان يفترس الأجانب في طول البلاد وعرضها، كما عرف أسلوب المقاطعـة الاقتصادية رأس دوافع الغرب إلى الاستعمار.

- تنازلت بريطانيا – في الواقع – لسعد عن الحكم المباشر سنة ١٩٢٣، كما سبق أن تنازلت تحت ضغط مصطفى كامل عن قسط آخر منه كان سعد نفسه مظهرا له ووسـيلة بعـد ضـارة دنشواي، ولكنها استعملت على مصر متبطلة الجنرالات والموظفين الإنجليز، واتخذت من حاجة المصريين إلى الاستقلال والاعتراف بأمانيهم الوطنية وسيلة لابتزاز أمـوالهم القليلـة ونـصب المناكد لهم. وانتفع المصريون بمضرتين أخريين ضد الجيش سنة ٢٦ وضد الإنجليز أنفسهم في الحرب الثانية سنة ١٩٣٦.

- كان تجاهل إنجلترا لمقومات الواقع الحضاري المصري أو خوفها الزائد منه وللأسـاليب غير الأخلاقية في سياستها الاستعمارية سببا في وخز دائم للوجدان المصري وترسيخ كراهيـة المصريين: مسلمين وأقباطًا لها من دون دول الغرب مما نفعهم ببعض إيجابيات الحضارة فـي الغرب، وبرر للمصريين لجئوهم إلى العنف وغلب الانفعال عليهم بعد ما درجوا عليه من لـين وموادعة، ولا سيما بعد تكشف الوجه الآخر للتحضر الغربي، وخلفيتهم تسمح به كما كشفنا قبل.

- وفي سعد زغلول تمثل الوجه السياسي لفكر الإمام محمد عبده، والتقت في شخصيته أخص خصائص أحزاب مطلع القرن المتفرقة*، كما جمع بين بلاغة الخطباء العرب وحِجـاج فقهـاء القانون الغربيين، وكانت بديهته حاضرة لكل صغيرة وكبيرة كما يقولون [1].

* حزب الأمة (بزعامة لطفي السيد) وصحيفته "الجريدة"، وإلى حد ما السفور بالإسـكندرية أثنـاء الحـرب الأولى. الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل وصـحيفته اللـواء، واتجاهـه الـوطني الدسـتوري لا يبتـه من تركيا. حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية بزعامة الشيخ علي يوسف – وانظر للدراسة ص ١٨ الفقرة الأخيرة – وفي أحزاب ما بعد ثورة ١٩ (الوفد والأحرار الدستوريين والاتحاد) انظر ص ٢٩ ف ١، ف ٣، ص ٣١، ٣٢ + ص ٢٧ + ص ٣٤ ف ١.

(1) للعرب تحليل رباعي للساسة فيما سموه الدهاء قالوا: الدهاة أربعة عمرو للبديهـة، ومعاويـة للرويـة، والمغيرة للمعضلة، وزياد ابن أبيه لكل صغيرة وكبيرة – تاريخ الأدب العربي للفـاخوري ط ١٩٥١ م، ص ٣٥٦.

- وقد التقت مصر كلها في شخص سعد؛ فكسب لها الجولة الأولى بوفادته عنها أمام العالم، وكسبت الأمة الجولة الثانية بخذلانها مخادعة "ملنر"، وسلم العدو لمصر بحقها وأعاد قائدها من منفاه، ثم دفعه الشعب- في ظل دستور ٢٣ - إلى الوزارة في الجولة الثالثة لكن داء مصر القديم المتمثل في القصر وبعض الجدل الحزبي العقيم في غيبة زعامة الحس الخاص كسعد غاب على المصريين النزعة الانفعالية وأخر قطف ثمرة النصر، وقد كادت تعطب مدة النحاس وفاروق خاصة، ولكن أدركها من يوليو ٥٢؛ إذ حان قطافها.

٣- الائتلاف والأحرار الدستوريون:

أ- لم يكن سعد زغلول أو ما نادى به بدعا من فراغ وسوابقه معروفة فيما مر بنا وغيره، لكن استحواذه على صفة الزعامة قد كان ظاهرة لا مراء فيها، كما دلتنا شخصيته ووقائع ومواقف طوائف الأمة أثناء ثورتها سنة ١٩١٩ الغاضبة له، بما في ذلك مقاطعة الناس للجنة "ملنر" وإتيانهم به للحكم بالانتخاب كما مر، ومن عارضوه وهو في الحكم من بعض المثقفين قد عادوا، وحالفوه، حين خلا الميدان من سعد فافترس حواريو القصر الحرية والنظام أثناء وزارة "زيور" حتى أشفق الإنجليز أنفسهم مما اعترى الحياة العامة في مصر من فوضى واستبداد كانوا يرون القطرة منه في فترات الحكم السابقة بحرا.

ب- لذلك ستعرف مصر – التي عرفت لها الآن أيضا في الملك خصما لا يقل ضراوة عن المستعمر البريطاني – نظام الوزارة الائتلافية وهي الفكرة البريطانية التي تضمن لهم عدم انفراد سعد بالحكم، كما تضمن للأمة عدم انتهاك القدر الذي ألفته من الحرية بواسطة القصر وحزبه: "حزب الاتحاد"، وتشفع للإنجليز في التدخل في شئون البلاد واكتساب دور الحكم والوسيط؛ وبذلك كسب الإنجليز سلاما موقوتًا في المدة من سنة ١٩٢٥ إلى قبيل الحرب الثانية التي فرضت الشخصية المصرية فيها نفسها على المستعمر بمواقفها من الحرب وغير ذلك.

ج- ومع ما ذُكِر من دوافع وراء فكرة الائتلاف فقد أثبت المصريون قدرتهم على الاتفاق وإنكار الذات سيما بعد مقتل بطرس غالي، وبالتفاهم حول سعد، لا كما صور الدكتور محمد حسين فيما مر. وكذلك نجح الائتلاف الذي تم مفتتح البرلمان في ١٠/ ٦/ ١٩٢٦ م، وقد ترأس "عدلي" فيه الوزارة وتولى "ثروت" فيه "الخارجية"، وقنع سعد فيه برئاسة مجلس النواب، كما ترأس "رشدي" فيه الشيوخ.

د- وقد دفع الائتلاف بمجهودات "طلعت حرب" الاقتصادية إلى الإمام، وكان هو قد بدأ دعوته لإنشاء بنك مصر منذ سنة ١٩٢٠، وكذلك تقدمت الحكومة في ظل سياسة

الائتلاف، وسعت إلى إصلاح الإدارة الحكومية – أي المـوظفين– الـذين يقومـون بأمرها، وكذلك تقدمت الحكومة نحو تطبيق أسلوب لا مركزية الحكم.

هـ- أما ما حاولته حكومة الائتلاف من مثل ذلك صدد الجيش فقـد عارضـه الإنجليـز وعميدهم "جورج لويد"، الذي لم يكن بد له من أن يدع الطاقة الوطنية تستنفد غرضها في مجالات الإصلاح السابقة. ومع ذلك فقد نبههم موقف بريطانيا الجديد من جيشهم إلى نقائص تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ م؛ وزاد ذلك من تحرج "عـدلي يكـن"، فاستقال الرجل، وعرض الائتلاف للخطر دون مبرر كافٍ، كما يرى هيكل.

وعلى الرغم من الضرر المعنوي والحكومي الذي سببه اعتراض "جورج لويد" على تطـوير المصريين لجيشهم، ومنه الاضطرار إلى إزاحة وزير الحربية المصري عن منصبه في حكومة "ثروت" التي تلت حكومة "عدلي" ترضية للإنجليز، ورغم أن قواد الجيش المصري – حتى ذلك الوقت كانوا في الغالب إنجليز – فإنه من الإمانة أن نعترف بأن ما ذكره هيكـل مـن مجـيء المشورة لتطوير الجيش المصري من المستشار الحربي الإنجليزي في ذلك الوقت دليل على ميل أخذ يتخلق في نفوس الأجانب نحو المصريين ويتجه إلى احترام سيادتهم والإخلاص للبلد الـذي آواهم أيضا.

و- وبالإضافة إلى ما ذكرنا مما ألحقه الإنجليز بوزارة "عدلي" بسبب مسألة الجيش، وما أرجع هيكل إليه جل السبب في استقالة "عدلي" من اتصاف هـذا الرجـل بـالورع والتحرج الزائدين في شخصيته، أو ما وصفه به في سياق آخر من التهذيب والدماثة – بالإضافة إلى ذلك كله فإن استقالته هذه المرة كانت بسبب ما توقعه من فشل لو أنه استمر ليتولى ما تطلبه الحزب من مفاوضته الإنجليز في المسائل المعلقة*، وكـذلك بسبب ما لا بد أنه كان يتوقعه أيضا من اعتراض الملك بدوره على تعيين أشـخاص ذوي كفاءة. والأمران الأخيران هما اللذان حتما استقالة وزارة "ثروت"، وقد وضعت الدستور في صورته الطموحة الأولى كما بينا.

بيدَ أنه بالنسبة لدوافع رجل رقيق الحاشية كـ "عدلي يكن" في هذه الظروف لا تعدو أسـباب استقالته الاعتبار بـ "بطرس غالي" أو نلحقه برجال الأزهر في الورع عن المنصب أو العجـز عنه [1].

لكن الضغط على الملك والانجليز معا لم يكن يستطيعه غير سعد لمزاياه النفـسية الخاصـة، وثقل التأييد الشعبي الذي يظاهره. وقد ثبت ذلك من جديد للجميع حين لمس "ثـروت" "أن وفـاة

---

* الدفاع، الأجانب، الأقليات، السودان.

(1) وصف هيكل له بالنزاهة والبذل وسمو القصد وسعة الأفق بصدد حديثه عن الائتلاف في مذكرات فـي السياسة المصرية جـ ١ ص ٢١٩.

سعد باشا تركت من الأثر في وزارة الخارجية البريطانية ما جعلها تقـف دون – الغايـة مـن الاتفاق مع مصر[1].

ز- وإذن فقد ثبت أن ما درج عليه الأحرار الدستوريون من (بتمسكهم بـبعض الفـروع وتحينهم لواهن الأخطاء رغم نبل مسعاهم وحجاجهم الدستوري) – نقضهم لعزل سعد قد عاد بالخيبة على حزبهم أيضا، وكذلك أفشل الائتلاف، ففـيم كانـت مناوشـتهم للرجل إذن!

ولم يقف خطر اختفاء سعد عن ساحة السياسة المصرية عند هذا الحد، بل تعداه إلى حـزب الوفد نفسه، فلقد نخر سوس "مكرم" و"النحاس" في الوفد نفسه [2]؛ مما زاد من دوافـع الملكـين" فؤاد" و"فاروق" إلى ما ذكرناه. لكنه جريا من المصريين على عاداتهم من تلقف السانحة من يـد الزمن فإنهم استغلوا ضارة اعتراض جورج لويد على مسعى وزير الحربية في الائتلاف "أحمد محمد خشبة باشا" لإدخال إصلاحات لتقوية الجيش [3] لتحقيق نافعة أخرى في أمر التعليم.

ح- ففي إبان هذا الائتلاف المذكور قد كان الشعور بالحاجة إلى دفع نهضة البلاد قد شغل العامة والخاصة، فرحب "فؤاد" وهو الذي كان على رأس الجامعة الأهلية المنشأة سنة ١٩٠٨ [4] بإنشاء جامعة حكومية تضم الآداب والحقوق الأهليتين، والمدارس العليـا للحقوق والطب والهندسة والزراعة والتجارة، وتُنْشَأ فيها كلية دار العلـوم.. وأُلفـت الجامعة من الكليات السبع ١٩٢٥.

ووفقًا لتوجيه "فؤاد" بأن العلم لا وطن به فقد عمد كلية الآداب بلجيكي، والهندسة سويـسري، والحقوق فرنسي، وأُنشِئت للجامعة مبان فخمة [5].

ولقد كانت البلاد قد بدأت تأخذ بسياسة الإلزام في التعليم تنفيذًا لدستور ١٩٢٣؛ فبلـغ عـدد الطلاب في الابتدائي والإلزامي سنة ١٩٣٨، ١٩٣٩ حوالي المليونين من البنين والبنات؛ أي أقل من ربع الأطفال المستوجبين للإلزام، وقد استلزم ذلك إصلاح المباني المدرسية وأخـذ "هيكـل" بعين الاعتبار مشورة إنجليزية طيبة أخرى أبدت اهتمامها بتغذية التلاميذ، وأُعِيد ربط معلمـي المدارس الإلزامية من حفظة القرآن الكريم وربط هيكل لهم "بدار العلوم" تـأهيلاً لهـم لمهنـة التدريس، وتحقيقًا للتقارب بين ذوق الفئات المتعلمة في البلاد؛ ولكي يتلافى الهبوط في مـستوى تعليم اللغة الأم.

---

(1) مذكرات في السياسة المصرية جـ ١ ص ٢٣٦.

(2) مذكرات في السياسة المصرية جـ ١ ص ٢٢٧ – ٢٤٠.

(3) مذكرات في السياسة المصرية جـ ١ ص ٢٢٥.

(4) معركة إنشاء الجامعة الأهلية سنة ١٩٠٨ فيما سبق ص ١٣ – ١٦، والمرجع السابق ص ٢١٩.

(5) مذكرات في السياسة المصرية جـ ١ ص ٢٢١.

ولقد كان الإمام "المراغي" قد استصدر قانون تطوير المعاهد الدينية سـنة ١٩٣٠ – وصـار تدريس بعض المواد العصرية إلى جانب المواد الدينية، ولكنه حدث أن عدل عن هذا القرار سنة ٣٦ بسبب الشكوى من جنايته على مستوى الطلاب في المواد الأصلية، ولذلك رأى "هيكل" رأيه السابق، وقضى له بمعظم ما أراد منه *.

وقد فرض "هيكل" إشراف وزارته على المدارس الأجنبية، وفرض عليها تعليم اللغة القوميـة وتاريخ مصر وجغرافيتها والتربية الوطنية، وقـوى الإذاعـات المدرسـية، ونـشر المكتبـات المدرسية، وقرر البدء بإلغاء الإنجليزية في السنة الأولى الابتدائية؛ تمكينا للغة العربية في نفوس الناشئة، ولتيسير انتقال الممتازين منهم من "الأولي" و"الإلزامي" إلى الابتدائي بالمجان، وكـذلك قطع شوطًا في سبيل تحقيق لامركزية التعليم.

كذا بدأ "هيكل" برنامجه لجامعة الإسكندرية (فاروق الأول) بكليتي الآداب والحقـوق ١٩٣٩، واعتنى بالفنون الجميلة والآثار، وكذا ربط الترقية في الجامعة بالبحث العلمي، واقتـصر فـي تعيين الأساتذة الأجانب على "الزائرين". كذلك أدخل التربية العسكرية في المدارس لتأخر قانون التجنيد، ولما عرفه من ضعف ثقافة المدربين الرياضيين الإنجليز في التعليم [1].

* كان سعد زغلول يمتاز بدرجة ما بين أقرانه تواتيه من أنه فلاح فقيه وحقـوقي – خطـوة فسيحة بعد عرابي وشعلة من الأفغاني ومحمد عبده، ولو أنه يلتقي في هذه مع أحمد لطفي السيد وغيره، لكن لطفي السيد وطه حسين يسدان فيما يسد سعد زغلول في غيره. لقـد شـب سـعد عن طوق التلمذة السياسية لمصطفى فهمي، ونجا من سبة دنشواي فآثر ألا تلحق به لعنتها أيضا. وعزم ألا يعرض ظهور أهله لسياط الغرباء أبدا، وما لبث أن فطن الناس إلى ذلك فيه فوقعوا له للوفادة عنهم في باريس على بياض، ولقد علم سعد زغلول إنجلترا خاصة أن تأخذ المـصريين مأخذ الجد حقًا.

---

* بدأ حياته بالمحاماة في ديسمبر ١٩١٢، واشتغل بالصحافة منذ ١٩٢٢/١٠، وعين وزير دولة في الداخلية آخر ديسمبر ٣٧، وللمعارف في ٤/ ٣٨ – هيكل والسياسة، ص ٦١، إلى استقالة وزارة محمد محمود فـي ٨/ ٣٩، واختير عضوا بمجمع اللغة العربية ١٩٤٠ م، وعاد للمعارف في وزارة حسن صبري بعد اغتيـال علـي ماهر نفسه ٦٢، ٦٣، وفي وزارة حسين سري إلى سقوطها بحادث ٤ فبراير /٤٢، واحتفظ له بعضوية، ورأس الأحرار الدستوريين في ١٠/ ٤٤، وحظي بوزارتي الشئون عندئـذ، ثُـم اسـتقال، وعـين رئيـسا للـشيوخ في ١٩/ ١/ ٤٥، نفسه، ص ٦٥، ٦٦.

(1) مذكرات في السياسة المصرية جـ ٢ ص ٧٨ – ١١٣، وينْظَر رأيه في المدرسين الإنجليز المكتـسبين بالعمل في غير عملهم في مصر المحتلة في جـ ١ ص ٢٢ وترجمة وافية للطفـي الـسيد فـي "الأدب العربي المعاصر في مصر" بقلم د. شوقي ضيف ص ٢٥١ – ٢٦٠ ط ٤/ ٧١ وفي نصوص مختارة من الأدب العربي، كتاب النثر تأليف عبد الحميد الدواخلي ط ٢ دار الكتاب الحديث بالكويت.

ط- أما لطفي السيد فقد ظل يستفتي الكتب ويفتي إذا طلب منه الفتوى ولا يبخل بشيء من رأيه أو علمه أو جاهه على مريديه المهذبين والمتفلسفة، وبينما كانت البلاد مشدودة إلى معاركها السياسية ولتطورات الحرب العظمى كان هو يجد شبع هوايته في الاطلاع على التراث الإنساني وترجمة بعض عيونه، إلى جانب مهنه العملية الأخرى.

عمل نائبا قضائيا بالمنيا سنة ١٩٠٥، وحرر جريدة "الجريدة" من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩١٥، وأدار دار الكتب، وحاضر في الجامعة، وشغل منصب مديرها سنة ١٩٢٥، ووزر للمعارف سنة ٢٨، وللداخلية سنة ١٩٣٨ وللأوقاف والخارجية سنة ١٩٤٦، وأسهم في الحياة السياسية والدستورية بقسط وافر.

ي- ويجعل الدكتور طه حسين ترجمة لطفي السيد لكتاب الأخلاق لأرسطو علامة على الخروج من حالة الإفلاس في حياة البلاد الفكرية خلال فترة الصراع السياسي، كما يصف (أستاذه) لطفي السيد بأنه "من أنصار الجديد في قصد واعتدال، وهو من الذين يدعون إلى الإصلاح العقلي ويحرصون عليه، ومن الذين يدعون إلى حرية الرأي ويذودون عنها،... و... من الذين يريدون أن يزايلوا هذه الفروق التي كانت تقوم بين العقل الشرقي والعقل الغربي و... أن تكون مصر العقلية جزءا من أوروبا العقلية، ولكن على أن تحتفظ مع ذلك بشخصيتها القومية واضحة" [1] وتلك الفلسفة قد كانت في مطلع القرن معوانًا على تخليص الوجدان المصري من سمة التعلق بتركيا؛ وهو ما نفع بريطانيا وحدها آخر الأمر لما ثبت عندنا مما لم يكن يبدو أنه يثبت عند لطفي السيد من أمور العقل والشخصية القومية.

ويرى البعض أن هذه الفلسفة قد كانت قوام عنوان صحيفة الأحرار الدستوريين "السياسة" بالمفهوم اليوناني باعتبار أن السياسة علم خلق الحياة الفاضلة، وهو المفهوم الذي أريد التصريح أو الإسفار عنه تحت عنوان "السفور" التي أعقبت الجريدة أثناء الحرب [٢] ولو أنه تصريح هو بالتورية أشبه.

ومع ذلك بسط طه حسين فلسفة لطفي السيد لقُرائه تبسيطًا يبقي على مزايا الدعوة ويعمي عن مزالقها، فوصفها بأنها: "فلسفة تجديد وإصلاح لا يقومان على هدم القديم، بل.. تنقيته وتقويته وإزالة ما فيه من أسباب الانحلال والضعف، وأنها فلسفة حرية وصراحة، لكن بأوسع معاني

---

(1) حديث الأربعاء، ط ١ جـ ٣ دار المعارف ص ٥٠ – ٥٢. مقال "علم الأخلاق" لأرسططاليس.

(2) طه حسين وزوال المجتمع التقليدي لعبد العزيز شرف ص ١٠٦، ١٠١، عن قصة حياتي للطفي السيد. ص ١٦٩.

الحرية والصراحة العقلية. وأنها فلسفة ذوق وقصد في اللفظ والمعنى والسيرة معا. أنها فلسفة كرامة وعزة واعتراف بالشخصية الإنسانية وحمل الناس على أن يعترفوا بهذه "الشخصية".

أما عن أثر لطفي السيد فيمن وصفهم بأنهم تلاميذه وأصفياؤه، ومنهم الأحرار الدستوريون إذن، فيقول طه حسين: إنهم "أخذوا بحظهم من هذه الخصال، فهم مصلحون ودعاة إلى الحرية..

محبون للذوق حين يفكرون وحين يعلمون. وهم أباة حريصون على الكرامة الفردية والاجتماعية لهم لون خاص يمتازون به ويعرفون بين الطبقات المختلفة والأصناف المتباينة من الناس. يتخذهم خصومهم أحيانًا هزوا.. ويحسدونهم على ما يسخرون منهم من أجله "وعلى الجملة فأثره هو أثر المصلحين يضمه" التاريخ.. إلى صديقيه محمد عبده وقاسم أمين".

وزاد دعوى تأثر سعد زغلول والوفديين بهم وبأستاذهم هذه الدعوى المقصودة في العبارة السابقة وضوحا فصرح بـ "أن ما يلهج به الناس من مصطلحات أو شعارات النضال السياسي قد كان كله من صياغة لطفي السيد، وإن لم ينْسب إليه أو يعتَرف له به"، ومن ذلك ما يدفع طه حسين إلى الابتسام حين يسمعه من غيره كعبارات: "الاستقلال التام" و"الحرية الدستورية" وسلطات الأمة و".. أشياء كثيرة قوام حياتنا الحاضرة" [1] وقد بينا نحوا من ذلك صدد "الطهطاوي" وذلك شأن الأفكار في التاريخ والأدب *.

ك- وقد كشف "هيكل" في مذكراته عن ملابسات مصطلح "الاستقلال التام" الذي أطلقه لطفي السيد في مطلع القرن وأخذه عليه رجال الحزب الوطني؛ لما رأوه فيه من قصد قطع مصر عن تركيا، ولما لم تكن تركيا قد أحات مصر من علاقتها التبعية لها بعد، فقد تراجع لطفي السيد بأن فسر مقصده من لفظ التام بأنه لا يعني الكامل [2].

واحتج بالآية الكريمة: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** ..﴾ [3] ولا يزال في رأينا أمر نسبة شعار سياسي إلى رجل بعينه أمرا غير مقبول؛ نظرا لشيوع هذه الأفكار في الحياة المصرية منذ أواخر القرن الماضي، هذا إلى أن الأفكار السياسية كالأفكار الأدبية يملكها من يصوغها صياغة أبلغ وقعا في الجمهور، ثُم يعززها بمواقفه وتضحياته الخاصة، ولأبناء الأمة الواحدة مواهب لا يسد الواحد منهم فيها مسد الآخر مع توافر العلم والخلق للجميع.

---

(1) حديث الأربعاء – المقال المشار إليه.

* ينظر تأثير "توماس بين "بأفكاره عن الذوق العام، والعقل، والتحرر، والعدالة الزراعية، ونحو ذلك في فرنسا وأمريكا، وحتى في مضادة بلاده إنجلترا – الفكر السياسي الغربي، ٣٣٧ – ٣٤٩.

- وانظر فكرة تلاقح الأفكار الرافعية في آخر فصول الدراسة.

(2) مذكرات في السياسة المصرية جـ ١ ص ٣٠.

(3) نفسه ص ٣٥، وانظر(ى) ٣، المائدة (٥). ودلالة أتممت أعم في الجلالين ١، ص ٦٣، الحلبي، والمعنى المعجمي يبدو واحدا، المعجم الوسيط، جـ ١ وجـ ٢.

وقد كان إلى جانب حزب الأمة في ذلك الوقت حزبان تحرريان هما حزب مصطفى كامل "الحزب الوطني" [1] وحزب الشيخ علي يوسف "الإصلاح على المبادئ الدستورية" بل لقد كان "شريف باشا" قد استصدر دستورا في عهد "توفيق"، ولكن استغل الإنجليز نزاع "عرابي" مع "توفيق" يومها لإحباط أمريهما معا كما مر، وقد كان الإنجليز والخديوي جميعا كارهين لدعوة هؤلاء المصلحين الحزبيين جميعا ولا سيما في مسالة الدستور، فلم يبق إلا الخيار بين أخف الأضرار، ما دام أنه لم يكن بد من الوقوع تحت نير تركيا أو الإنجليز أو الخديوي؛ مما يسوي في نظرنا بين الأحزاب الثلاثة في محصلة الدعوة، وإلى أن تستوثق الشعبية والوطنية المصرية من نفسها بعد دنشواي (١٩٠٦) في ثورة (١٩١٩) وتنمو الحركة بصحبة ثلاثة أحزاب المرحلة: الوفد، والدستوريين، والاتحاد.

ك- لكن يظل لكل حزب عذره في موقفه إلا أن نشهد للحزب الوطني ببعد نظرته إلى السياسة البريطانية التي لم تكن الحوادث قد كشفت عنها للطفي السيد بعد.. كذلك لقد كأن الرأي الأسد هو رأي عرابي، وهذا قد أحبط الأعداء الثلاثة جميعا بدرجة واحدة إلى درجة قد رفعت قدر الإنجليز في ميزان الكيد والختل والترزل في ذلك العهد، إلى أن التقت تيارات دعاوى هذه الأحزاب الثلاثة في نفس سعد زغلول؛ فكان مصريا دستوريا خالصا لم يكسر الاستعمار ولا القصر الباقيان ثباته؛ مما يدعونا إلى رفض دعوى طه حسين عن سعد زغلول؛ تلك الدعوى التي هي بدعاوى الانتحال والسرقة أشبه، والاستعاضة عنها بمقولة تلاقي الأفكار العامة على ما سنبينه من شبهة السرقة في ذلك في الاتجاه البياني لدى الرافعي.

وبطبيعة الحال أسى طه حسين لما ذكر من أن الجيل الذي هو فيه يتصف بالظلم لإنكاره فضل لطفي السيد المباشر على الوفد وبشر بأن الأجيال القادمة ستنصفه.

ل- ويبدو أن طه حسين رأى تأييد الناس العارم للوفد طامسا لصورة الأحرار الدستوريين أيضا فلم يذكر أن تأييده وزملائه وإشادتهم بلطفي السيد كافٍ؛ ولذلك أحال على الأجيال القادمة، ومع ذلك فسوف يقطع طه حسين رجاءه في الأحرار الدستوريين حين يكتشف أن – للمثقفين أيضا نقائصهم، ثُم ينضم إلى حزب "الاتحاد" أو حزب القصر المنبوذ، أو الذي هو أكثر نبذًا من الأحرار الدستوريين بواسطة الغالبية الوفدية وغيرها، وذلك حين رأس طه حسين جريدة "الاتحاد" وهي التي أخملها اتجاهها، إلى أن عاد طه حسين فانضم إلى حزب الوفد الأخير وترأس

(1) مذكرات في السياسة المصرية، ص ٣.

صحيفة "كوكب الشرق" مفضلاً الانخراط في سلك العامة على معاناة العزلة الأرستقراطية المتظلمة [١].

ولكن انخراط طه حسين في سلك الوفديين وإن هال له الوفديون المتأخرون لن يخفف من أسى عميد الأدب العربي وإن أضعف من أثر الحملة عليه بسبب مزالقه الدينية؛ فلقد كان الوفد في ذلك الوقت في طريقه إلى الخمول أيضا.

* لا مفر للمنطق إذن من أن يحكم بخطل فكر الأحرار الدستوريين في موقفهم من سعد في الفرعيات.

ودورهم غير منكور في ميدان النظر الأدبي العام ولا سيما كتابات "هيكل" و"طه" الأدبية الدينية في الثلاثينيات وفيما مر بنا ذكره من دورهم في الائتلاف، وفي التقدم على طريق التعليم الذي عبده النضال الوطني الدءوب من قبلهم وأزال سعد زغلول وحده من متنه أعتى صخرتين وأرذلهما: (المستشار الإنجليزي، وأجنبية اللغة). لكن يظل في ما تبيناه في درسنا لدكتوراه طه حسين في المعري من روح السلب والجبرية دليل على عقم فكر الدستوريين قبل عودة كاتبيهم الأدبيين إلى تيار الأصالة. وقبل ذلك كانوا خبالاً للحركة الوطنية النامية مع سعد وعوناً للأجنبي؛ إذ عدهم البديل عن أول حكومة منتخبة؛ مما اضطر سعد إلى الاستقالة لدى مصرع "لي ستاك" ١٩٢٤، بحسب ما بينا من مطرد تيار العنف والغيلة السياسية في مصر.

م- أما عن خطة لطفي السيد في رأي طه حسين فهي أنه "اندفع في الجهاد السياسي ما كان الجهاد السياسي نافعا. حتى إذا عصفت عواصف الحرب وأصبح الجهاد السياسي العلني مستحيلاً- أو كالمستحيل- لجأ هذا الرجل إلى زاوية في غرفة من الغرف وأخذ يقرأ المعلم الأول (ويرقب الحوادث).. حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، وظهر أن استئناف الجهاد السياسي ميسور مفيد.. اندفع في الميدان السياسي مجاهدا أصدق جهاد، وأبلى أعظم بلاء، حتى إذا عصفت الشهوات السياسية، وأحس العقل أن الخير له في أن ينزوي ويترك الميدان للعاطفة والشهوة انزوى صاحبنا وعاد إلى المعلم الأول، وإذا نحن أمام كتب أربعة أو خمسة من كتب "أرسطو طاليس" قد تمت ترجمتها، وهيأ بعضها للنشر ونشر بعضها" [٢] وهو أمر نعود إلى حكم تلميذ لطه حسين فيه في الترجمة عن اليونان بعد.

وقول طه حسين نامٍ عن الصراع الحزبي الذي كان ناشبا بين حزب الأمة والحزب الوطني مطلع القرن، ثُم بين الوفد والأحرار الدستوريين في العشرينيات، لكنه مدفوع أكثر بما كان يقع

---

(1) طه حسين وزوال المجتمع التقليدي.. ص ١٠٩.

(2) حديث الأربعاء جـ ٣ ص ٥٢ المقال المشار إليه.

بينه وبين المحافظين- ولا سيما الرافعي- من خصومة أدبية أسلوبية خالصة جددت ما كان من ذكر مزالق طه حسين في تاريخ الأدب وغيره. وقد كان طه حسين ومحمد حسين هيكـل مـن ألسنة الأحرار الدستوريين في السياسة والسياسة الأسبوعية في مضادة "الوفديين" والمحـافظين؛ مما قربهم في الشعور من مفكري حزب الأمة ومؤسسه لطفي السيد؛ ولذلك عولوا على الكثيـر من أفكاره التي كان نشرها في "الجريدة" ١٩٠٧ – ١٩١٥ م وبينوا أثرها في شعارات الوفـد، ولا شك أن طه حسين قد كان يجد مثله في لطفي السيد في كثير من المواقف التي دفعت به إلى ميدان الصراع وكذلك هيكل (ولهذا صلة نسب بلطفي السيد وكان يدعوه بابن أخيه فكريـا) ولا سيما في ظل رئاسة لطفي السيد للجامعة ومحاضرة هذين بها ودعوتهم جميعـا إلـى اسـتقلال الجامعة إبان حماسهم المغالي في نقد الفكر القديم في وقت سيتضح أنه كان تنقـصهم الحقـائق الكثير عنه؛ مما زادهم من عداوة الوفديين وعداوة المحافظين.

ن- وفي ظل هذا التكتل تألف حزب الأحرار الدستوريين برئاسة الأستاذ "عدلي يكـن"، وصدرت جريدته "السياسة" لأول مـرة فـي ٣٠/ ١٠/ ١٩٢٢، ورأس تحريرهـا الدكتور محمد حسين هيكل، وقد أصدروها للدفاع عن أنفسهم ضد اتهامات الوفـديين لهم على حد تعبير هيكل، كما استصدروا ترخيصها باسم "حـافظ عفيفـي" عـضو الحزب [(١)].

على أن الأفكار المتفرقة التي نشرها لطفي السيد والثورة السعدية المشبوبة قد آن لها أن تأخذ شكل النظرية السياسية في دستور حزب الأحرار الدستوريين، رغم ما أصيبوا به من إحباطـات بسبب حماس الناس الرومانسي العظيم لسعد خاصة. ولا نغالي إذا قلنا إن هذه الإحباطات هـي التي دفعتهم إلى هذا النجاح في الميدان السياسي الفكري المحض، فلقد شحذ ذلك مـن أفكـارهم ونفعهم بمشورة لطفي السيد.

وقد حفزهم إلى صياغة مبادئهم ما (لاحظوه) من خلال اجتماعات لجنة الدستور ومناقـشاتها (من) أن من لهم وزن حقيقي من حيث المبادئ والآراء، ومن لهم اطلاع على المذاهب السياسية والاقتصادية المعروفة في أوروبا قليلون، وأن الأقل من هؤلاء الذين يمكـن الاعتمـاد علـيهم لتبحرهم في المعرفة" [(٢)].

---

(1) مذكرات في السياسة المصرية ١/ ١٢٥، والتاريخ ٣/ ٢٢/١٠ هو تاريخ تأسيس الحـزب فـي نفـس الوقت، هيكل والسياسة، د. محمد سيد محمد، دار الرفاعي، ص ١٦. أما ترخيص السياسة الأسـبوعية فبتاريخ ١٠/ ٣/ ١٩٢٦ م، وكان باسم حافظ عفيفي أيضا – نفسه.

(2) مذكرات في السياسة المصرية ص ١٢٢ – وقد ورد أن لجنة الدستور تألفت من ثمانية عـشر برئاسـة رشدي اختيروا من بين ثلاثين عضوا أتت بهم الانتخابات في وزارة ثروت، وهو عطاء أتى بسعد مـن المنفى إلى وزارة التسعة أشهر سنة ٢٣.

=

وكان لطفي السيد وهو مدير دار الكتب في ذلك الوقت على صلة بـ "عدلي يكن"، وكانت له مقترحات بشأن تنظيم الحزب، كما كان قد أتم كتابة خطاب افتتاح حزب الأحرار الدستوريين لـ "عدلي يكن" ليلقيه بصفته رئيسا. وقد أعطاه عدلي لـ "هيكل"، وأبدى ملاحظات أعـاد الـرئيس تحريرها في الخطاب.

وقد وصف هيكل هذا الخطاب بأنه "كان قطعة بارعة من الأدب السياسي في اعتدالـه وفـي تصوره المبادئ التي يزمع الحزب تحقيقها، وفي مقدمتها استكمال استقلال مصر بعد الخطـوة التي خطوناها بتصريح ٢٨/ ٢/ ١٩٢٢ م وصدور الدستور (ووصفه بأنه كان، عملاً عظيمـا.. لخير البلاد؛ إذ قرر سلطة الأمة وحقوق العرش).

أما المبادئ الاقتصادية والاجتماعية التي تناولها خطاب الأحرار الدستوريين فكـان أساسـها النظرية الفردية القائمة على أساس من احترام تام لحرية الفرد المطلقة ولحرية التجارة، بتقريـر سياسة الباب المفتوح.. على أن الفكرة الفردية الموضحة في الخطاب قد خـضعت فيـه كـذلك للاتجاه العام الذي أعقب الحرب العالمية (الأولى) والذي جعل هذه النظرية.. تتشح بظاهر مـن الاشتراكية لا يجني على الحرية الفردية، ولكنه يخفف من غلواء المـذهب الفـردي؛ إذ يجعـل للأفراد حقوقًا على الجماعة من يوم مولدهم يتسلحون بها للكفاح في الحياة على أساس يدنيهم من معاني العدالة الاجتماعية، وإن لم يذهب في ذلك إلى حد تحكم الدولة في مصايرهم تحكما تقـره "اشتراكية الدولة" وما إليها من المذاهب [1].

وقد سادت هذا الخطاب نغمة الدعوة إلى الوحدة القومية.. (التي يرجع قوامها إلى ما حـصل عليه الوطن من اعتراف باستقلاله) بفضل.. قومته.. الوطنية سنة ١٩١٩ .." [2].

وبطبيعة الأمر فإن هذا الدستور هو مجرد فلسفة حزبيـة للأحـرار الدسـتوريين – وكـان الدستور الرسمي هو مجرد ذلك الذي تبنته الدولة، وظهر في ١٩ أبريل ١٩٢٣ كمـا سـبق أن ألمعنا ولكن يظل في نظرنا دستور الأحرار الدستوريين محاولة تالية للتجويد – وهو بعد صورة من تفكير طائفة من المفكرين البارزين في ذلك الوقت.

- وبذرة أقدم لتفكير الأحرار الدستوريين السياسي غرستها جماعة منهم حول عزيز مرهم، إبان ثـورة ١٩، لم تعمر الجماعة الأولى أمام سعد زغلول وشعبيته. وأثمن ما في المحاولة توفيق مصطفى عبد الـرازق بين رأسمالية هيكل واشتراكية مرهم "بالصيغة التي تبقى معها الملكية الفرديـة، ويتمتـع معهـا الفـرد الإنساني بحقوقه الاقتصادية الأساسية بوصف إنسانًا" – هيكل والسياسة ٤٦ – ٤٨، والمقتبس من سـطر ٩، ١٠، ص ٤٧.

(1) راجع هـ ٢ بالصفحة السابقة.

(2) مذكرات في السياسة المصرية ص ١٢٢ – ١٢٣.

* أدى خروج زغلول من الوزارة إلى إضعاف موقف الحكومة المصرية وازديـاد ضـراوة الملك، كما أدى تغيبه النهائي عن مسرح الأحداث إلى ضعضعة الائتلاف وتهافت حزب الوفد.

- وقد تبين الأحرار الدستوريون فضيلة سعد بعد وفاته سنة ١٩٢٧ حين استقال "عدلي يكن" من رئاسة الائتلاف، واستقال ثروت من ورائه بسبب تيقنهما من عجزهما عن عمل شيء ناوءا فيه سعدا قبل أوان – هذا إلى أن الدستور الذي أنجزته وزارة ثروت في صورته الطموحة سنة ٢٣ أثناء نفي سعد كان هو الذي أتى بـ "سعد" إلى سدة الحكم عن طريق الانتخاب، ولم يكـن السير فيه قدما بدون تعديلات صدد السودان وصدد حقوق العرش: تعديلات كان أوسطها أسلوب سعد في التعامل مع مصطلحاته لولا تشدده في النظرة إلى السودان خضوعا- على مـا يبـدو- للأحرار الدستوريين الذين تأخر بهم عهد النضوج السياسي، كما تأخر نضوجهم الأدبي إلى مـا بعد وفاة الزعيم، وقد كانوا لا يفتئون ينقضون من غزله حيا.

- وقد طعن جورج لويد المصريين في كبريائهم لاعتراضه على تطويرهم للجيش؛ فوجـدوا متنفسهم في جعل الجامعة حكومية والسير قُدما في إصلاح التعليم وتعريبه، كما اتجهـوا إلـى تطبيق لا مركزية الإدارة (ضارة نافعة ثالثة بعد دنشواي ونفي سعد).

ولقد مثل لطفي السيد أبوة روحية للأحرار الدستوريين، ومثلوا هـم أو حـاولوا.. الـصفوة المثقفة المتسمة بالتجدد ولكنهم لم يخلوا من تهافت أول أمرهم، بينما مثل سعد مـن أول أمـره مزيجا من فكر ومواقف أحزاب مصر الثلاثة في مطلع القرن، فلم يعجزه الإنجليز وإن طوع من مواقفه إزاء القصر، ولم يعتور أصالته شك ما.

- وقد تمثلت في مفكري الأحرار الدستوريين معانيات الفئة المثقفة وتناقضها؛ فانفرط عقدهم ليعودوا في فكر فيلسوفيهم- هيكل وطه حسين- إلى تيار الأصالة اقترابا من الشعب وتأليفًا فـي الدين وآدابه.

- جاء دستور الأحرار الدستوريين محاولة نظرية لتجويد دستور الدولة الذي حاولت الـبلاد السير عليه منذ سنة ١٩٢٣– وقوامهما المذهب الفردي متشحا بظاهرة من الاشتراكية لا يجـدي بسبب ما نُص فيهما على مبدأ حرية التجارة، وكذلك قصرا عن الحـد مـن سـلطة القـصر، وعن تحرير رأي قصد في السودان.

- بينما ظل موقف الإنجليز الرسمي متشددا من مطالب المصريين المؤتلفين – وذلـك لمـا خف الضغط عنها في جبهة الشام والعراق – بعد بلجرتهما كما بينا – إلى قبيل الحرب العالمية الثانية؛ حيث كانت تبدو بوادر من الإنجليز والأجانب العاملين في الحكومة المصرية تدل علـى ولاء منهم للبلاد واهتمام بمصالحه، وتذكر بمثيل لها قبل أن يفـسد الاحـتلال الحيـاة الـسلمية المصرية التقليدية.

٤- في أعقاب الاستعمار، والثورة الثالثة:

أ- وبعد أن يمتَهن الدستور بواسطة حزب الملك (حزب الاتحاد) سيعاد إلى دستور ١٩٢٣ سنة ١٩٣٥ م وستمثل الوزارات الائتلافية اندماجا لشتى الميول والأفكار التي تتفق جميعها في مبدأ الحرية والعمل والتعليم والاستقلال؛ مما يمثل أهم عطاء للمجهود السياسي حتى ذلك الوقت [1].

ب- وهو عطاء قد لابسته منغصات ألجأت عددا منا إلى انتهاج سبيل الاغتيال الذي تعافه النفوس، بيد أن انتقال الصراع إلى قناة السويس وفلسطين واطراد النجاح لأسلوب النضال والمقاومة فيها قد ناقضه مسلك ملك البلاد الأبيقوري وحاشيته؛ مما فتح العيون على ما هو أشد ترويعا للبلاد من حريق عاصمتها وإتلاف بوليسها سنة ١٩٥٢ بعد خذلان جيشها سنة ١٩٤٨.

ج- فلقد بدا أن أعمال العنف والاغتيال السياسي لم تعد تكفي أو تُؤْمن عقباها لزوال معالم اتجاهها بزوال المحتل أو انحساره عن معظم تراب البلاد؛ مما سيلهم الشبيبة العسكرية المصرية الناشئة فكرة اصطناع قوتهم المنظمة في إحداث ثورة سلمية، ومحاولة الدخول بالبلاد في تجريب سياسي بدأ به عهد مصري مباين، في وقت أمنت فيه البلاد تدخلاً كالذي خذل "عرابي".

إن النزعة الوطنية المصرية التي ثارت مع عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول، ودفعها القمع والكيد الإنجليزي إلى التحزب قد عمقت في نفوس المصريين- رغم عجمة ملوكهم- الشعور بالكره للمعتدين والحب والتيه بكل من يحاول تحرير بلاده حتى بدءوا يمردون على وداعتهم وتهيابهم ويلجئون إلى العنف.

وقد عم هذا الشعور أبناء الطبقة المتوسطة الذين أنماهم التطور التعليمي والحضاري الحثيث الذي لم يستطع الإنجليز إيقافه أو إعاقته بدرجة خطيرة كما فعلوا في بلاد أخرى، وكذلكم شحذت من عزمهم الأفكار التحررية والاجتماعية التي كان يسفر عنها الجدل الثقافي الإنساني ولا سيما

---

(1) في اجتماع ممثلي الأحزاب بمنزل محمد محمود في ١٩٢٦/٢/١٩ لتوحيد الجهود ضد حزب الملك المعطل للدستور سنة ١٩٢٥ – صورة لذلك (مذكرات في السياسة المصرية جـ ١ ص ٢٠٥ – ٢١٢)، وقد مر بنا فوائد الائتلاف في الإدارة والتعليم. وقد عادت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦ للتجمع لإلغاء الامتيازات وتوقيع معاهدة ١٩٣٦ م رغم نقائصها (فلسفة الثورة جـ ١ ط دار المعارف ص ١٦) وغير ذلك.

وثمة صور أعم للجهود الوطنية الشعبية والاجتماعية والاقتصادية في مواجهة النفوذ الأجنبي في بعض المجالات في رسالتنا للماجستير ص ٣٤، ٦٧.

عن طريق الترجمة التي نفذوا بها- كما سنبين- من الحصار الاستعماري المضروب عليهم تحت بريطانيا.

ولما لاح شبح الحرب الثانية لم يكن للإنجليز بد من العياذ بالشعوب التي بدأت تنعم بشيء من الحرية، بفضل أخذها عبرة الحرب الأولى مأخذ الجد، وتصديها لسياسات الذين أداروا تلك الحرب إلى أن عادوا إلى اصطلاء الحرب الثانية. ولم يكن من المستطاع هذه المرة سوق الفلاحين والجنود المصريين إلى ساحات القتال دون موافقة برلمانهم، كذلك لم يكن عزيز المصري غفلاً كذي قبل، ولم يقبل المصريون خوض حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل إلا إعلانهم الشكلي للحرب في أخرياتها على اليابان لمجرد أن تقبل الدول المتنصرة عضويتهم في الأمم المتحدة، وقد أعوزت المحتلين سكينة المصريين على الأقل بعد أن يئسوا من حملهم وقودا للحرب، وكان لا بد من دفعهم إلى هذه السكينة أو بعض المشاركة المحدودة – بدوافع نفسية صحيحة في الغالب؛ ولذلك أُلغِيت الامتيازات في مصر وشُجع الجيش المصري على التوسع والتحديث، فهل تعد حرب العالم الثانية هذه رابعة المضار النوافع؟ * .

وهكذا أصبح في الإمكان أن يدخل أحفاد عرابي وزهران وكثيرون من أبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة الكلية الحربية. صحيح أن الوساطة كانت شرطًا في القبول ولكن نفوذ الإنجليز في ذلك كان ضئيلاً (١)، كما لم يكن- على ضآلته- مضادا للاتجاه نفسه، وكانت الكلية الحربية يومئذ سانحة أخرى تلقفها المصريون من يد الزمن، ودفع فلاحوهم بأبنائهم إليها دفعا، وتوسلوا إليها كدأبهم في التعليم من قبل.

د- وفي هذه الكلية كانت الخدعة التي دخل بها الإنجليز مصر، وما ترتب عليها من المأساة التي عاشتها مصر في ظلهم أكثر من سبعين عاما، وكذلك نظام الحكم القائم نفسه من الدروس التي تضرم في نفوس الضباط الشبان الثورة الدفينة (٢). ولم يكن يبعد أن تنفجر هذه الثورة بمجرد أن تأمن الخذلان من الظروف العالمية الخارجية "فإن التغيير الذي حدث في المبادئ المتفق عليها في السلوك العالمي من أعظم العوامل الحديثة التي ظهرت سنة ١٩٤٥...؛ إذ تدعمت المبادئ الغامضة الخاصة بمبدأ تقرير المصير الذي أعلن عنه كل من ولسون ولينين" بعد الحرب الأولى – تدعمت بإصدار الدول الكبرى المنتصرة إعلانات محددة عنها؛ فأعلن ميثاق الأطلنطي على سبيل المثال عن "حق جميع الشعوب في اختيار نوع الحكومة التي ترغب الحياة تحت ظلها".

---

* أي بعد دنشواي، ونفي سعد، ومنع تطوير الجيش سنة ١٩٢٥ م.

(1) البحث عن الذات – بقلم أنور السادات، ط المكتب العربي الحديث، ص ٢٥ – ٢٨.

(2) البحث عن الذات ص ٢٨.

"وقد تنكر تشرشل لتطبيق هذا الميثاق على الرعايا المستَعمِرين، ولكن العالم الذي انبثق مـن حرب ١٩٤٥ – ١٩٤٩ م شاهد بوضوح أكثر من عالم ١٩١٤ – ١٩١٨ الذي سبقه الأخطـار الناجمة عن مبدأ "القوة هي الحق"، والنتيجة المترتبة عليه التي (كانت) ترى وجوب حكم القـوى للضعيف شرعيا – وبما أن الاستعمار كان قد اشتق مبرراته من هذه الادعاءات؛ فبنـاء عليـه أضعفته الأحوال الدولية السائدة في ذلك الوقت" [١] وكان متوقعا أن يهزم الاستعمار في صورته العسكرية مخليا بين الصورة العسكرية للاستعمار نفسه وبين الفكر الأدبي الذي مـا فتـئ هـو الآخر يزود عن حياضه ويتورط أحيانًا في حروب مذهبية. وبمعاهدة ٣٦ صار "الجـيش فـي زيادة؛ لأن المعاهدة تنص على أن يكون لنا جيش قادر حتى يستطيع أن يقوم بمهمة الدفاع بـدل جيوش الاحتلال.. وقد بدأ التوسع فعلاً.. فقد أضحى السواري لا يقتصر على ألاي – الخيالـة، بل وضعت نواة لألايين جديدين مكيانيكيين: ألاي دبابات، وآلاي سيارات".

وأخذت صورة الجيش التي شوهها عهد الاسـتعمار للمـصريين تـزول [٢]، كمـا اطـرد بالمصريين نظرهم المبجل للهندسة والفنون والآداب والاتجاهات الأخرى التـي تعتبـر مجـالاً لإظهار النبوغ [٣] وقد ظلت كلمة النبوغ مصطلحا نضاليا موحيا إلى درجة كبيرة منـذ جـرت على لسان سعد زغلول في معمتي ثورة كرومر ودنباوب عن التعليم باعتبار سعد مؤامراتهمـا موجهة ضد نبوغ المصريين، ويا لها من كلمة في سياق من كلام سعد زغلول ظلت تفعل فعلها فيمن أتوا بعده.

ولقد آن أن يظهر أثرها في الجيش فاستبانت الصلة بين الجيش والأمة باعتبار "هذا الجـيش من تلك الأمة"، وكذلك أخذت مشاعر من جانب من الأرستقراطية المصرية تتحول تجاه قـضايا الأمة وطبقاتها الأخرى [٤].

ب- لكنه فيما يتعلق بالقصر في مصر قد كان الأمر يتطور في اتجاه آخر فقد "آمـن الملـك (فاروق).. بأن الأحزاب التي تأبى أن تجتمع لمصلحة وطنية عليا، لا سبيل إلى اجتماع كلمتهـا ضد ما يكسبه لنفسه من سلطان مطلق وكان قد آمن من قبل بأنه يستطيع أن يفعل ما يشاء مـا أمن تدخل إنجلترا في شئونه. ذلك بأنه كان يظن إلى يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ أن محبة الشعب

---

(1) تاريخ أفريقيا بعد الحرب.. الثانية.. ص ٣١ ف ٢، ٣.

(2) رواية "إنني راحلة" ليوسف السباعي، ط ٢، الخانجي، ص ٩٦ وهي من أعماله سنة ١٩٥٠، وفي السياق تصوير للضابط في ظل الاحتلال وبعد زواله، والمؤلف كان ضابط جيش، والقصة واقعية.

(3) نفسه ص ٩٧.

(4) نفسه ص ٩٨ فضل بعض المحسنين من رجال الجامعة مثل "علوي بك" في الأيام جـ ٣ ص ٦٣ على طه حسين بإعانته ماديا ومعنويا. والمحسن هو محمد علوي، معدود فـي مجلـس الإدارة الـذي تـألف للجامعة ص ١٣ + (٥) = مذكرات في السياسة المصرية جـ ٢ ص ٢٧٦.

له وتعلقه بشخصه يصونان إنجلترا عن التعرض لذاته أو لعرشه، فلما رأى.. الشعب يستقبل الأمر... بما استقبله به فقد إيمانه بالشعب... مؤمنًا كآبائه بأن الشعب المصري لين العريكة سهل القياد[1]؛ فتعدى على الدستور، وضم- كفؤاد- أطيان الأوقاف لخاصته وأسرف في اللهو والتفضح، بعد أن كان قد استحوذ على مشاعر المصريين بمظهره الغرير وبظاهر من التدين فإذا هو يحمي أصحاب صفقات السلاح الفاسدة، ويقرب تُجار اللذة من بعض اللبنانين ويرفعهم فوق الوزراء، وهو لا يعنَى بنقد ولا يعيره التفاتًا؛ لأنه مطمئن أنه القائد الأعلى للقوات المسلحة طمأنينته إلى حماية الدستور إياه بالنص على أن ذات الملك مصونة لا تُمس وبما انطوى عليه قانون العقوبات من أحكام قاسية على العيب في (الذات الملكية) [٢].

هـ- لكن ما انحدر إلى فاروق وحاشيته المرذولة، ولا سيما نزعته الفردية التي قرنها بشكلها في بدايات هذا المبحث سوف ندعوه- كما دعت حسين كامل وفؤاد من قبله- إلى التطلع إلى زعامة في المنطقة، زعامة فيها خدمة الإنجليز أكثر من خدمة العرب.

فقد ألبست بريطانيا حسين كامل لقب السلطان (١٩١٤ – ١٩١٧) أثناء الحرب العالمية الأولى على أثر خلعها سلفه من عرشه في مصر؛ فكان في لقب السلطان دغدغة لأوهام هذا الوريث الشيخ ولذكريات المصريين الدينية، ودليل على دهاء استعماري له مشابه في غير بلد إسلامي. وقد رأينا مآل طموح حسين ووحيد الدين إلى الخلافة. ويبدو أن مما أفشل هذا الطموح في مصر خاصة التذرع به لدى فؤاد (١٩١٧ – ١٩٣٦) والإنجليز ودهماء المصريين لإطالة أمد حكم الضعفة من سلالة محمد علي؛ أي الاحتيال للسيطرة على عقول العامة والخاصة باستغلال الدين لتوطيد حكم فردي جهول من جديد وتمكينه من رقاب المسلمين وغيرهم، بعد ما مجوا مثله في الحقبة التركية المتأخرة. وهو ما ظهر رد فعله المبالغ في كتاب الأستاذ الشيخ علي عبد الرازق: "الإسلام وأصول الحكم ١٩٢٥ م" [٣]. ومن محتواه في عبارة د. محمد حسين: أن لا دليل ضرورة الخلافة من الكتاب أو السنة، وأنها قامت على الغلبة، وليست

---

(1) نفسه: الأوقاف ص ١٢٢، ٣٨٣ – انتهاك الدستور ص ١٧٦ – ١٩٧ – الذات الملكية ص ٢٨٢.

(2) الكتاب – رغم ضحالة مستواه – كان محض سد ذريعة كما ذكرنا، ومقدمته شاهد عليه من نفسه، انظره في نقد وتعليق د. ممدوح حقي، ط دار مكتبة الحياة، ١٩٧٨ م، ومطرد ذكره بالدراسة ص ١٥، ٣٠٧، وأول ص ٣٣١. ويرد وصف علي عبد الرازق لعمله بأنه (ورقات يقدمها على استحياء ثمرة عمل سنين متواصلة الشدائد متعاقبة الشواغل، "جاء عملاً دون ما أردت له من كمال وما ينبغي له من إتقان"، ص ٧، ٨.

(3) الاتجاهات الوطنية، ص ٥٥ – ٩٤.

ضرورية لإقامة الشعائر أو الدولة الحديثة، وأن رياسة النبي دينية شخصية انتهت بوفاته، وأن الردة حركة سياسية، ولنا مكاملة في ذلك [١].

و- لم يهرط الكتاب هرط كتاب للكماليين حول ذلك ١٩٢٤، ولم يوفق توفيق كتابين لمصطفى صبري ومحمد رشيد رضا، ولكن الفكرة سرعان ما خبت، وكذلك لم يطمئن إليها مصريون آخرون.

ز- وفي عهد فاروق سيتقاص الحكم في صورة زعامة شرفية لملك مصر في العالم العربي بوصفه منسقًا للجهود المبذولة في إنشاء جامعة الدول العربية في القاهرة، وهي التي قد وضِع ميثاقها في القاهرة في ٢٢/ ٣/ ١٩٤٥ * والفكرة مما أوعز به الإنجليز وغيرهم من أفكار إلى الحكام العرب [٢]؛ ترضية لمشاعرهم القومية الناشئة بالقدر الذي تفيده دول الاستعمار نفسها من تعاون يقوم بين نظم متناقضة ترتبط بالاستعمار نفسه بمعاهدات ثابتة، كما أضحت الفصلة – الإسرائيلية تضمن بقاءها في الحدود التي رسمتها دول الاستعمار بمثل الوحدة الشكلية التي أوعزت بمثلها إلى دول غرب أفريقيا، وإن نجحت الجامعة العربية في مساعدة سوريا ولبنان بمنافقة من بريطانيا في التنديد بتمسك فرنسا باحتلالهما ترضية لهذه الشعوب إبان الحرب العالمية الثانية؛ خشية ميل البلدين أو غيرهما من العرب إلى ألمانيا، وهو الأمر الذي ظهرت بوادره في لجوء الشيخ أمين الحسيني الفلسطيني إليها في ذلك الوقت؛ مما جعل بريطانيا تسلك هذا المسلك الناعم الجديد، ولما ذكر أنه مصلحة خاصة بها في المحل الأول، وكذلك عاونت الجامعة في إنالة الليبيين استقلالهم من الطليان سنة ١٩٥١، لكن الجامعة العربية أفادت حقًا في دفع النشاط الثقافي والعلمي العربي في خططهما النظرية إلى الأمام وقفنا على مهم منها في التعريب العلمي وغيره في الاتجاه العلمي وكذلك أبقت على الشعور القومي والمصلحي بين العرب غير خامل فضلاً عن جمعها التراث الضخم المشتت وخدمتها العربية في الأمم المتحدة ونحو ذلك.

ح- لكن مطرد هذا الاتجاه ظهر فيما نزع إليه فاروق من زجه بقوات مصر المسلحة في حرب فلسطين لمجرد إرضاء رغبته في تزعم العرب وتغطية لمشاكله الداخلية، بينما

---

(1) راجعنا ص ١٥ + هامش ممتد ص ١٦، ١٧، وراجع أيضا ص ٣٢٥، ٣٢٦.

* نص الميثاق، نسخة عن دائرة قسم السكرتارية بجامعة الدول العربية، ص ٦.

(2) عبارة "أنتوني إيدن" الموعزة بذلك وهو وزير خارجية بريطانيا أثناء الحرب الثانية سنة ١٩٤٢ – مذكرات في السياسة المصرية جـ ٣ ص ١٩، وتطلع فاروق إلى تزعم العرب جـ ٢، ص ٢٧٠، ٢٧٥، ٢٨٤.

هو ما يفتأ يهذي وهو صادق اللاوعي تحت تأثير الخمر والقمار مع صيفه اللبنـاني "كريم ثابت" أنه يعلم أنه لن يكون في العالم من ملوك إلا ملك إنجلترا وملوك أوراق اللعب [1].

- كان الموقف المصري الرسمي في ظل حكومة النقراشي يتمثل في عدم إدخـال الجـيش المصري الحرب وثمة قوات للإنجليز في قناة السويس، ثُم الاكتفاء فـي مـساعدة الفلـسطينيين بالمتطوعين المصريين ومنهم ضُباط استشهدوا من أمثال أحمد عبد العزيز، ومن قبل كان موقف الحكومات العربية من فلسطين "سلبيا بحتًا" [٢]، رغم مـشاعر شـعوبها والـشعوب الإسـلامية الأخرى.

لكن النقراشي طلب من البرلمان فجأة الموافقة على دخول جيش مصر الحرب مـع قـوات البلاد العربية الأخرى سنة ١٩٤٨ ولم يعارض إلا صوت مصري واحد لم يـصغ أحـد إلـى حجمه؛ وهو صوت إسماعيل صدقي، فانسحب الرجل من المجلس ولزم الصمت [٣].

ط- كانت جماعة الإخوان وكذا مشاعر العامة والخاصة بل والرأي العام الدولي مأخوذة بأخبار الحرب التي أمال الاستعمار كفتها ضد الوطنيين الفلسطينيين، ولم يكن ثمـة من أمل لهم فيها بعد ما أدوه إلى جانب السوريين تحت قيادة فيصل وشريف مكة من تغليب للحلفاء على الأتراك وعليهم بطبيعة الحال، ولم يكن لمصر ضلع فيمـا حـل بالشام كله إلا بالقدر الذي ينْسب إلى عزيز المصري فيما مر من هذا البحـث، وإلا فيما استقاه الشام من مصر في مجال الترجمة والتعريب والتعليم، وكذلك لـم يكـن قرار دخول مصر الحرب في فلسطين قرارا مصريا خالصا، ولا كانـت الحكومـة المصرية تعرف ما ينبغي لها أو ما يصلح لها من ذلك.

ي- ويبدو لنا أن بريطانيا غررت بالمصريين وغيرهم هذه المـرة أيـضا، لمـا عرفـه المصريون من أن لورد "موين" السفير البريطاني في القاهرة كان يحاول الاحتفـاظ

---

(1) مطرد هذا الدور الذي أولع به بعض اللبنانيين منذ مطلع القرن يرد صدر حديثنا عن حديث عيسى بـن هشام للمويلحي، وأثر المقامة في القصة في الفصل الثاني.

ومعارض ذكر "كريم ثابت" هذا ودوره في قصر عابدين وفضائح فاروق فـي البـارات والكباريهـات ومغامراته في مصر والخارج – بمذكرات (هيكل) في السياسة المـصرية جـ ٢ سـيما ص ٣٠٠ – وانتزاع فاروق لناريمان صادق (خطبة على خطبة آخر) ص ٣٠١ وخوف النائب العام من القبض على منظم رحلة الملك إلى دوفيل "أدمون جهلان" ص ٣٠٢ وكتاب المعارضة المحتجة على ذلـك وأمثالـه، وموقف النحاس والملك من الموقعين عليه ص ٣٠٢ – ٣٠٤.

(2) مذكرات في السياسة المصرية جـ ٣ ص ١٥ ف ٣.

(3) مذكرات في السياسة المصرية جـ ٢ ص ٢٨٠، ٣٠٩، جـ ٣ ص ٤٠ – ٤٥ وإسماعيل صدقي بعـد قد ترأس وزراء مصر عدة مرات خلت. وقد اشتهر بحكمه الاستبدادي أوائل الثلاثينيات.

لبريطانيا بشواطئ فلسطين لتعوضها عن قواعدها في مصر؛ فمن ثَم بـدا الموقـف البريطاني وكأنه جنوح إلى العدل؛ إذ يحاول أن يقف في تفسير وعد "بلفور" لليهـود عند حد توطينهم دون تمكينهم من إقامة دولة في سائر غرب فلسطين.

لكن سرعان ما قتل شابان يهوديان قَدِما من فلسطين اللورد "موين" في القاهرة وأُعدِما سـنة ١٩٤٤، وكذا اطرد بالإسرائيليين أسلوبهم في فلسطين ذاتها فشمل القضاة والضباط الإنجليز [١] فرفعوا أيديهم عن البلاد ولم تُجدِهم محاولتهم الأخيرة ولـم تُجـدِ العـرب فتـيلاً، ومـا لبـث البريطانيون أنفسهم أن مالوا إلى تعضيد الإسرائيليين وضربت قواعـد البريطـانيين الطيـارين المصريين المهاجمين في فلسطين [٢]. وحيث قد حاق ببريطانيا سوء عملها في فلسطين فلم يكن بد لها ولأذنابها الطامعين الجدد من الانسحاب أيضا، وإن منحوا بعضا من الجـسد الفلـسطيني الممزق فمكن عبد ا من الضفة الغربية وترك قطاع غزة لـ "فاروق" [٣].

ك- لكن أغرب من مطامع فاروق ونزواته ما صرح به مثقف سياسـي مـصري هـو الدكتور محمد حسين هيكل من أنه طلب إعلان رغبة مصر في السيطرة على النقب رفعا للروح المعنوية للجنود المصريين في الحرب [٤]، وهو ما رده عليه أحمد عبـد الغفار زميله القديم في الأحرار الدستوريين لمنافاته الهدف المعلن، ولتعارضـه مـع العلة الإنسانية لدخول المصريين الحرب. وكذلك يدلنا على قِـصر نظـر الـساسة المصريين وبعد القضية الفلسطينية عن اهتمامهم المباشر أن هيكل نفـسه لـم يحـر جوابا أمام إسرائيلي حاول الاتصال به لكسب رأيه في القضية، وذلك حـين طلـب هيكل منه ترك النقب لمصر كما مر فرد عليه ذلك بقوله إن لديكم أنقابا كثيـرة فلـم تريد من المزيد؟ مما يدل على وجهة نظر الإسرائيلي في قولة الـسياسي المـصري باعتباره طمعا لا مبرر له، وهو بعد ما زال طمعا إسرائيليا ولكنه مبرر بتبريـرات عمرانية، أو حضارية[5] وبجهد علمي كثيف وقفنا على بعض صـوره فـي غيـر موضع من البحث.

---

(1) مذكرات في السياسة جـ ٣ ص ٢٣، ٢٤.

(2) نفسه جـ ٣، ص ٤٦.

(3) مقالته كتاب توينبي "الإسلام والغرب والمستقبل" الأولى كتبت سنة ٤٧ والثانية سنة ٥٢، وقد ألمحنا إلى ميزاته في مصارحته المسلمين بالعداوة، وفي ضوئه يمكن التأكد مما دلنا البحث عليه من طرقه المختلفة من سياسة الغرب ومنها سياسة التقسيم هنا.

(4) نفسه جـ ٢، ص ٤٥، ٥٠.

(5) مذكرات في السياسة المصرية جـ ٣، ص ٥٠.

وكذلك كشفت تجربة الحرب في فلسطين عن جهل القيادة المصرية بفنون الحرب فقد ركز "المواوي باشا". وهو بعد رجل لم "يتول القيادة قط" [1] السلطة في يده في القاهرة حتى كانت بعض البوارج المصرية تضرب، وهي لا تحير ردا لمجرد انتظارها أوامره، وكذلك استغل الضباط المفسدون الموقف؛ فتاجروا بصفقات السلاح الفاسد على حساب جيشهم، حتى كانت الكارثة الفلسطينية نكبة الجيش الناشئ في مصر أيضا.

ل- لكن الضباط المصريين تعلموا من تجربتهم في فلسطين، أو أن تجربة فلسطين أوصلت غضب المصريين على حكامهم الوارثين إلى ذروة جديدة. لقد كانت ثورة الضباط الأحرار بفاروق بعد فلسطين إلى حد ما شبيهة بثورة عرابي بتوفيق بعد حرب الحبشة، وكلاهما اندفع في ثورته على ملكه بدافع مخالفة الغدر من حاكم مطلق السيادة كما مر.

- وسوف يتسنى للضباط الأحرار أن يفعلوا ما فشل فيه عرابي بسبب مواتاة الأوضاع الدولية كما بينا، وهي مواتاة محكومة بنفوذ الدول الكبرى ولا سيما أمريكا في الأمم المتحدة ولدور أمريكا الخاص في الحرب العالمية وما بعدها.

- ولكنه مما يعد من الفكر السياسي المصري الخاص أن الضباط الأحرار لم يتطوحوا تطوح الكماليين، وإن دلت أسماء بعضهم على ذلك الأثر الذي تلمحناه في تيار العنف والاغتيال. وعلى العكس فإن الضباط الأحرار قرروا أن التغريب والغيلة السياسية أو مجرد الانقلاب لا يصلح لعلاج داء الحكم في مصر؛ ومن ثم فطنوا إلى فكرة السيطرة والإبعاد لذوي السلطان القديم عن مراكز الحكم المؤثرة، دون إعمال القتل فيهم ضرورة [2].

- وقد عاونتهم خبرتهم في كلية أركان الحرب، ودربتهم الحادثة على التحكم في مداخل العاصمة في بعض تدريباتهم على فهم عملهم بطبيعة الحال، ولكن من الثابت أيضا أنهم أفادوا بما شاهدوه في فلسطين من نجاح الإسرائيليين المبني على الدراسة والتخطيط الدقيق [3]، ولقد نجحوا في تطبيق ذلك في الثورة بملكهم، وفي التنكر لشيخ حركتهم نجيب نفسه وللتعددية بجميع درجاتها.

وبطبيعة الحال لم يشأ الغرب ولا الجيران المحيطون – ولا سيما الإسرائيليون – للقيادة الجديدة أن تجتاز بدعايتها – فضلاً عن جيوشها – حدودها المرسومة ودورها المحكوم ككل دور وطني بمصلحيات عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية. ولعله لذلك ظل الانفعال سائدا سيادته قبل هذه الثورة نفسها، وأكبر من الفعل في الكثير من منجزاتنا العملية والأدبية والفنية.

---

(1) نفسه ص ٤٧، جـ ٢، ص ٣٠٣.

(2) فلسفة الثورة، ص ٣٦ – ٤٢.

(3) نفسه، الفصل الأول، ص ١٢ – ١٤، والفصل الثالث، ص ٦٧.

الفصل الثاني

حركة الترجمة الحديثة – اتجاهاتها ومعطياتها في الأدب ومناهج البحث مع وقفة على الترجمة من العربية إلى لغات العالم

*** الترجمة في مقابلة بالاستعمار:**

أ- اتجاهاتها وأثرها في الأدب ومناهج البحث:

(١) الترجمة عن الثقافات الشرقية.

(٢) الترجمة عن الثقافات الغربية.

(٣) تقييم أثرها في الأدب العربي في مصر.

(٤) الترجمة من اللغة العربية.

ب- في محاولات نقد القرآن وترجمته في العصر الحديث:

(١) ألفريد جيوم والإسلام.

(٢) أفانين المستشرقين في ترجمة القرآن الكريم ونقده.

* الترجمة في عصرنا هي الوجه الآخر لاتصالنا بالغرب والعالم الخارجي في مقابل الاحتكاك المباشر بالغرب إبان الاستعمار، وهي متفجر لقضايا ثقافية ورياضة أدبية لها في الحضارة العربية اعتبار خاص. وقد نهضت في عصرنا هذا أيضا على أسس راسخة منذ ولي محمد علي حكم مصر سنة ١٨٠١ م. ودرجت تنمو نموا طبيعيا فوصلت الفكر في مصر والعالم العربي بالفكر الإنساني شرقيه وغربيه، وأسهمت في إيجاد أوعية أدبية جديدة واستكمال مناهج في النظر الأدبي والنقدي، ثُم أضحت تعطي مقابل الأخذ وتصحح ما شوهه الجهل والاستعمار من أمر الحضارتين: الغربية والإسلامية، وسيمثل الأثر المرتد منها على مرآة المستشرقين وما إليهم بعدا خاصا في هذه الدراسة لا يجحد فضل دراستين أسبق*.

وقد افتتح المصريون عهد الترجمة في العصر الحديث بجهدهم الحثيث الجاد خلال مدرسة الألسن كما سبق الإلماح إليه [(1)]، بيد أن السوريين سرعان ما تلقفوا منهم الرسالة إبان خوضهم تحت فيصل ثورة العرب ومعركتهم ومنها معركة التعريب كما يجيء في الاتجاه العلمي، وإن كان غلب عليهم الاتجاه الإتجاري في بعض الأحيان قبل. بيد أن المصريين جدوا من جديد في هذا المضمار فامتاز ما ترجموه بحسن الاختيار والتنوع، كما اتفق لهم اتجاهات وأهداف وخطط واضحة متكاملة إلى أن تضافرت الجهود العربية جميعها في إطار جامعة الدول العربية؛ فكان لها فضل تحقيق هذا الوجود العربي النامي الماثل اليوم.

ولقد عرفت الترجمة في القرن العشرين ثلاثة اتجاهات هي: الترجمة من التراث الشرقي، والترجمة من التراث الغربي، ثُم من التراث العربي إلى لغات العالم.

١- الترجمة من اللغات الشرقية:

أ- فعن الفارسية نُقِلت أشعار للسعدي والخيام والفردوسي وحافظ الشيرازي، كما عرفت المها بهاراتا الهندية وبعض أعمال طاغور وإقبال وبعض الأدب الصيني طريقها إلى المثقف المصري والعربي بعامة.

---

* من الدراسات المتخصصة في هذا كتاب جاك تاجر، حركة الترجمة الأدبية في مصر ١٩٤٦ وكتاب د. لطيفة الزيات: الترجمة الأدبية في مصر ١٨٨٢ – ١٩٢٥.

(1) سيلي دور رفاعة في الترجمة اليونانية في هذا الفصل، وقد سبق معالجة جهده في إطار النزعة الوطنية في الفصل الأول، ويراجع "رفاعة ومدرسة الألسن من كتاب د. الشيال" رفاعة رافع الطهطاوي ١٨٠١ – ١٨٧٣ ط – دار المعارف، وكذا كتاب السيد صالح مجدي "حلية الزمن بمناقب خادم الوطن" طبقات خريجي الألسن ص ٢٥ – ٣٣، وهو من تحقيق الشيال.

وقد حظيت الرباعيات بعناية خاصة؛ ففي مصر ترجمها محمد السباعي نظما، وكذلك فعل كل من أحمد رامي، وأحمد زكي أبو شادي. وقد نظمها الأول عن الإنجليزية ونظمها الآخران عن الفارسية مع اطلاعهما على ترجمتها في الإنجليزية عند فيترجيرالد.

ب- والصورة التي أطلت بها الرباعيات في ترجمة رامي يرد وصفها في حديثنا عن مدرسة الديوان؛ حيث اتخذها المازني مادة تطبيقية لنقده، لكن صورتها الشائعة في المختار منها للغناء عند أم كلثوم توازن القلق النفسي والإقبال على اللذة بشعور بالذنب وابتهال إلى ا   في نهاية اللحن، وقد طبعها كاملة ١٦٨ رباعية، ولها في نفوس القُراء أثر كبير. وقد ترجمها رامي سنة ١٩٢٤ بعد اطلاعه على ترجمة فيتزجيرالد (١٨٥٩)، وكذلك اطلع رامي وهو مبعوث من دار العلوم إلى باريس على أصول لها في مكتبات العالم [١].

وأما صورتها في ترجمة أبي شادي فلم يعرض لها الغناء بانتخاب؛ فوردت مجترئة في الغالب على العرف الخلقي العام في ثمانية أقسام هي في الخمرة، في الكوز، في التذمر، في العظمة والأخلاق، في الحكمة والشك، في العشق، فيما خاطب به ا ، ثُم في مطالب شتى وقد ترجمها أبو شادي في بحرها الأصلي (الرمل) في ١٣٠ رباعية [٢] واهتمام التراجمة المصريين بالرباعيات بعد مشحوذ ومواكب لصنيع غيرهم من التراجمة العرب والشرقيين الذي أُولعوا بها أيضا [٣]. وكذلك تتابعت دراسات المصريين الجامعية حول الأدب الفارسي وعكس الاهتمام المتزايد به في مصر.

ج- ففي سنة ١٩٣٢ م نشرت لجنة التأليف والترجمة والنشر ملحمة الشهنامة للفردوسي، وكان نقلها إلى العربية في القرن السابع الهجري الفتح بن علي البغدادي – وفي عصرنا هذا صححها ونظم بعض مقاطعها عبد الوهاب عزام ونال بها درجة

---

(1) النسخة المطبوعة بدار غريب للطباعة – والمقدمة ص ٥ – ١٣.

(2) قضايا الشعر المعاصر ط ١٩٥٩، ص ٢١٣ – ٢٣٨.

(3) في سنة ١٨٤٦ ترجم جبرائيل مخلع ديوان كلستان للسعدي، وفي سنة ١٩١٢ ونظم وديع البستاني رباعيات الخيام معتمدا بالأكثر على فيتزاجيرل، وكذلك ترجم المهابهاراتا الهندية، وقد ترجمها من العرب أيضا أحمد حامد الصواف نثرا، وترجمها توفيق مفرح نثرا شعريا. وعن الفارسية ترجمها جميل صدقي الزهاوي وأحمد الصافي النجفي وعبد الحق فاضل الشاعر التركي وقد ترجمها هذا شعرا ونثرا – الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث للمقدس ص ٣٦٧ – ٣٨٥ وراجع الدراسة ص ١٨١، ١٨٢ + ص ١٨٥ – ١٨٧.

الدكتوراه من جامعة القاهرة في السنة المذكورة [١] وكان قد نظم قطعا منها من قبل عباس مرزا خليلي.

د- وفي سنة ١٩٣٦ م اشترك الشاعران السكندريان عثمان حلمي وخليل شيبوب في إصدار ديوان بعنوان: "قبس من الشرق" ترجما فيه عددا من قصائد الهند والصين وإيران[٢].

ه- وفي سنة ١٩٤٣ م ترجم إبراهيم أمين الشواربي أغاني شيراز (وكان حافظ الشيرازي وديوانه موضوع رسالته للدكتوراه في جامعة القاهرة في التاريخ المذكور [٣]. وتقع غزليات حافظ في ٤٩٦ مقطوعة كل منها يسمى غزلاً. والغزل أو الغزلية في الشعر الفارسي منظومة قصصية تتراوح بين سبعة أبيات وخمسة عشر. وموضوع هذا الفن الغزل غالبا، وقد يكون في غرض آخر. ويلتزم الشاعر ذكر لقبه الشعري أو تخلصه كما يقول الفرس والترك في آخر بيت من الغزل.

وقد صدرت الترجمة في مجلدين ضخمين فيما يقارب الستمائة صفحة ظهر العدد الأول مع مقدمة لطه حسين اعتد فيها العمل (طرفة أخرى نفسية رائعة تمتع القُراء العرب وتزيد ثروة الأدب العربي وتثير في نفوس الكثير ألوانًا من التفكير المنتج وفنونًا من الشعور الخصب "لكن التقليد الفارسي التركي في "التخلص" هذا لم يكن له أثر في الشعر في حقبتنا التي ندرسها لمنافاته لذوقها العام [٤] فضلاً عن مخالفته تخلص العرب التقليدي [٥].

---

(1) سجل رسائل الدكتوراه – جامعة القاهرة.

(2) مجلة الأدب عدد ٨، س ٦٥، ص ٤٦٥.

(3) سجل رسائل الدكتوراه – جامعة القاهرة.

(4) كتب وشخصيات لسيد قطب ط الشروق ق ص ٦٩، وكذلك سجل رسائل الدكتوراه بكلية الآداب جامعة القاهرة، وقوله أخرى إشارة إلى ترجمة لعافي السيد كتاب الأخلاق لأرسطو كما سيرد.

(5) التخلص هو الخروج من غرض إلى غرض في القصيدة أو المقالة تدريجيا وبتخيل لطيف بديع، عالج ذلك الدكتور موافي في فصل: ما بين الشكل الفني والموضوع في الشعر والنثر من فروق، ونقل قول ابن رشيق عد الانتقال الذي لا يستن هذه السنة في الشعر يسمى طفرا أو انقطاعا. أما الختام العربي للقصيدة فهو عندهما أيضا غير ذلك التخلص الفارسي التركي؛ لأنه في القصيدة العربية عدل مفتاحها أو مطلعها الجزل أو الملف للأسماع الدال على معنى من القصيدة، وقد اشترطوا في الانتهاء أن يكون محكما لا يمكن الزيادة عليه ولا يأتي بعده أحسن منه وقفلاً على مفتاح القصيدة – من الشعر والنثر: ص٤٥.

و- وفي سنة ١٩٥٠ م قدم السيد محمد عبد الحليم الغزاري "نظام الملك وكتاب سياسة تامة في ماجستير بإشراف الأستاذ عبد الوهاب عزام، والدكتور يحيى الخشاب بجامعة القاهرة [١].

* وهكذا فقد اقتصر الأثر الفارسي الهندي في الأدب العربي على الأشكال الغنائية ذات المزاج الشرقي الخاص، وهو تمتاز بمذاق فلسفي بسيط وتحرر من المناسبة وتنوع في القافية، وإن علقت بها تقاليد ممجوجة، ويبدو أن أثرها كان محض أثر غنائي وأكاديمي محدود، ولكنه كان كافيا لإنعاش الشعور بالشرقية، وربما كان كافيا للحد من الوقيعة في الدرس الأكاديمي الحديث بين الثقافة العربية وبين توائمها الشرقية، ولا سيما الفارسية والتركية.

الترجمة من الآداب الغربية:

- الترجمة من الأدب اليوناني.
- وشائج من الأدب الإيطالي.
- الترجمة عن الأدب الألماني.
- الترجمة عن الفرنسية.
- الترجمة عن الإنجليزية.

من الأولى أن نأتي بأثر الترجمة من الفرنسية، فالإنجليزية قبل ما نورده من الأثر اليوناني والإيطالي؛ نظرا للسبق والتنوع في الوارد من الثقاف الفرنسي وللغزارة والأثر الكيفي للمتَرجم عن الإنجليزية، بيد أننا نذكر الأثر اليوناني والإيطالي وغيرهما فيما يحتمله البحث عن عرض وجيز لكي نفرغ لكل من الأثر الفرنسي والإنجليزي ونوضحهما في شيء من البسط.

أ- كانت مرحلة البداية القوية لحركة الترجمة على يد الطهطاوي في ربط اليوناني بالتراث العربي من جديد *، وقد جدت دراسات منها قول الدكتور محمد غلاب ١٩٥٢ بعدم صحة جميع ما نقل عن اليونان في العصر الحديث باستثنائه نقل البستاني وطه حسين أستاذ الباحث وباستثنائه لنفسه– بطبيعة الحال – وهذا مع أنه هو نفسه معول على الشُراح الغربيين الفرنسيين والألمانيين الذين عددهم، وكذا بدا منقطعا عن النقل الإسلامي [٢] الذي سنذكره بعد، ومع ذلك فسنورد تتبعا للمترجم

---

(1) سجل رسائل الدكتوراه بجامعة القاهرة (كلية الآداب).

* الطهطاوي: ١٨٠١ – ١٨٧٣ م، وتوجهه في الترجمة صنو توجيهه للتحديث والإحياء.

(2) قال: كان "طه حسين" بعد الأستاذ البستاني طليعة الذين نقلوا إلى.. العربية الحديثة جانبا: ذا قيمة.. لأن الذين حاولوا.. كانت هناتهم.. بل سقطاتهم تجل عن الحصر وتدق عن الإحصاء: فمن خطأ مزعج في الترجمة إلى خلط معيب في الوقائع والأحداث إلى جهل شائن بالأساطير إلى بعد شائع عن الأساليب

=

عن اليونان في الأدب العربي الحديث إبرازا للجهد لذاته، وباعتباره في إطار معركة النهضة وحركة التعريب دليلاً على حيوية لم تنعدم رغم القصور الذي يوصف بـه النقل عن اليوناني إلى سنة ١٩٥٢، وربما إلى ما وراءها. ومهما يكن فإن تجميعـا لهذا المترجم والنقود المنصبة عليه كفيل إذا اعتنى به بعـد الخمـسينيات أن يمثـل إضافة للتراث العربي، وقد يدفع به إلى آفاق إنسانية أرحب، فأما ومعتنانـا بـالربع الثاني من القرن العشرين فليس لنا إلا أن نورد الأمر على ما هو عليه، معملين فيـه التفاسير التي يحتملها في ضوء ما توفر لنا من أدوات ذلـك فـي جوانـب البحـث الأخرى.

درس الأستاذ محمد خلف ا أحمد العناية بالتراث اليوناني في حركتي الترجمـة الإسـلامية المنظمة في العصور الوسطى وفي العصر الحديث. وقد سلم بأن الغالب علـى المتـرجم مـن اليونان قديما كان الفلسفة، وأن رفاعة والمفكرين المحدَّثين من بعـده رأوا أن يـستكملوا نقـل التراث اليوناني بنقل آدابه ولا سيما تلك التي لم يستطع المترجِم القـديم نقلهـا لعجمتـه شـأن النساطرة، أو لغموض مصطلحات أدبية بعينها على غيرهم ولا سيما ابـن سـينا فـي بعـض شروحه، وابن رشد فيما هو جسم فيه من نقوله ونقداته.

"كانت ترجمة كتاب أرسطو في (البلاغة) "الريطوريقا" قد أثر بعض الأثر في تطور مباحـث البلاغة العربية (لكن ترجمة كتاب "البويطيقا" في صنعة الشعر لم تترك أثرا ما في الفكر الأدبي؛ (لأن) المترجمين السريان كان يعوزهم الفهم الصحيح لظواهر الأدب اليوناني وصـلته بالحيـاة اليونانية.

وقد عرف "شُراح أرسطو ودارسوه من فلاسفة المسلمين – فيما عرضوا له من فلسفة المعلم الأول – نظرياته في كتابة الشعر في أسلوب عربي واضح (لكنهم) لم يبرءوا مـن الغمـوض؛ حيث تعرضوا للموضوعات البعيدة عن الحياة والفكر العربي كظواهر المسرح اليوناني والتفرقة بين التاريخ والشعر. وحين حاول ابن رشد أن يطبق القوانين الكلية من نظرية أرسـطو علـى الشعر العربي كانت النتيجة أن اختفت معالم النظرية الأصلية في "الدراما" وفنونها [1].

وفي العصر الحديث قد "كان فيما (قرأه) رفاعة أثناء (وجوده في فرنسا) كتـاب فـي سـير فلاسفة اليوناني وآخر في التاريخ العام يشمل "سير قدماء المصريين والعراقيين وأهـل الـشام

الأدبية الراقية إلى خلو مخجل من الاصطلاحات الفنية إلى مجافاة صريحة للروح الهيلينية؛ وبالإجمال لم يكن ما ترجمه هؤلاء السادة مشرقًا بل لم يكن مقبولاً يحسن السكوت عليه كما يقول النحـاة". ص ١٠"
وقد شفع بالبستاني، وطه حسين: Alfred et Otfried ومن الفرنسيين Maurice croiset, Humbert et Berguin ومن الألمان Muller, Bergk, Bernhard (الفكر اليوناني.. ص١١).

(1) بحوث ودراسات في العروبة وآدابها ص ١٥٤، ١٥٥.

واليونان وقدماء العجم والرومانيين والهنود. وفي آخر نبذة مختصرة في علم "الميثولوجيا".. علم جاهلية اليونان وخرافاتهم كما نقل من عبارة رفاعة [1].

ولقد كان من بواكير أعمال رفاعة ترجمة كتاب في الأنثروبولوجيا والاجتماع عنوانه "ديوان قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر" [2] وقد زود رفاعة مقدمته بـشرح الكلمـات الغربية التي توجد في الكتاب مرتبة على حروف المعجم، مضبوطة حـسب النطـق الفرنـسي في الغالب – ومفسرة، ومعظمها أسماء ممالك وبلدان وبحار وطوائف مـن النـاس، وبعـضها أسماء أعلام مشهورة، وفيها طائفة قليلة من أسماء الأشياء ومصطلحات العلوم، عربها، كما نقل من قوله "بأسهل ما يمكن التلفظ به على وجه التقريب، ونظر إليها نظرته إلى الدخيل من الألفاظ المعربة الفارسية. ودعا المترجمين إلى احتذاء صنعه تسهيلاً على الطلاب وإعانة علـى العلـم والفهم [3].

أدخل رفاعة في هذا القاموس أسماء أرباب أسطورية مثل: "أروفـة،" و"سـاترن"، وأسـماء أشخاص.. وعرف بالمهم منهم مثل "أوميرس" شخصه وزمانه وشاعريته وأعماله.

وقد رأى الباحث أن قيمة ترجمة رفاعة لهذا الكتاب ومثله تُقدر بما أضـافته مـن معرفـة وتصورات جديدة وقوالب لغوية منبثقة من التراث أو مطوعة فيه. وكذلك قدر الباحث قيمة هذا النوع من المعرفة بمقدار الجهود التي بذلها رفاعة وتلاميذه فيها ومنها أنه خصص لها مكانًا في مجلة "روضة المدارس" التي كان يشارك في تحريرها علي مبارك، وعبد ا فكري وغيرهمـا من الباحثين.

ويعتبر كتاب "بداية القدماء وهداية الحكماء" [4] ثمرة لهذه الجهود. قدم له رفاعـة بملاحظـة قصور كتب التاريخ العربية عن التأريخ لليونان. وقد برر احتفاله بهم بما رأى من أثـرهم فـي نهضة أوروبا، وآدابها "شاربة مشربها". وذكر أنه أعطاه "لعدة أفراد؛ لتعريب المراد في أقـصر ميعاد"، ومنهم مصطفى أفندي الزراعي الذي ترجم تاريخ اليونان.

وقد تولى رفاعة- بجانب إشرافه على تصحيح الترجمة ومراجعتها على أصـولها- إكمـال تاريخ الخليقة والعرب معتمدا على المصادر العربية، وعلى الأخص تـاريخ أبـي الفـدا فـإذا الكتاب- كما نجيز القول – بعد تمامه كأنه في جملة ما كتب العرب الأقدمون.

شاربا مشربهم أيضا:

---

(1) نفسه ص ١٥٦ عن تخليص الإبريز في تلخيص باريز تحقيق وتعليق مهدي علام وأحمد بدوي وأنـور لوقا سنة ١٩٥٨ الفصل ٥ المقالة ٤ ص ٢٤١، ٢٤٢.

(2) انتهى من ترجمته سنة ١٢٤٥ هـ، وتم طبعه في مطبعة بولاق سنة ١٢٤٩ هـ نفسه ص ١٥٦.

(3) نفسه ص ١٥٧.

(4) ط بولاق ١٢٥٤ هـ.

وأورد الكتاب أخبار الأنبياء وتاريخ قدماء المصريين والسوريين والسريانيين والبابليين والعجم والهنود، ثُم أفاض في تاريخ اليونان وخرافاتها وفتوحاتها وآدابها وفلسفتها. وبعد أن ذكر اسم العرب وأحوالهم وملوكهم قبل الإسلام عاد.. إلى الخرافات اليونانية بالتفصيل في خمسين صفحة، هذه الخرافات التي يتوقف عليها فهم الآداب الإفرنجية، ويبدو فيها إفراط العبارة في إطلاق اسم إله على كل ذي شأن عندهم كـ "بخوس" و"زحل". وقيمة التسمية الثانية – مثلاً، وإن كان ظاهرها كفرا صراحا – أنها رمز للزمن في تسلطه على الأشياء ودوامه وفتكه بأهله، وغير ذلك من الدقائق الخفية والنكات الأدبية. وبهذا الفهم المستنير حرر الطهطاوي – في تقديرنا– الخرافات من شبهة الثوثن وأبقى على قيمتها الفنية غير متخلطة [(١)]: كما فعل الجاحظ والمعري وغيرهما من القدماء حين رووا أخبار الجاهليين الخرافية المماثلة وبثوها في أعمالهم وهم في أمن من شبهة التوثن إلى غير ذلك من أخبار المجان والزنادقة ومن إليهم. لقد اتضحت لنا بذلك أصالة الطهطاوي، كما اتضحت بمنحاه المقارن في دراسته فحين يرد ذكر أنصاف الآلهة، وهم فحول الرجال الذين كان اليونان يعتقدون أنهم متولدون بين الباقي والفاني أي بين إله وبشر، يعقب رفاعة بالإشارة إلى ما ذكره الدميري في كتابه حياة الحيوان عن الجاحظ.

ولم يهمل رفاعة رأي الباحثين الأوربيين الذين يرون تفسير الخرافات في ضوء التاريخ. كما اتضح ميله إلى المكاملة والمقارنة معا من تذييله لهذا الكتاب بمختصر في "ميثولوجية" المصريين؛ إذ تحدث عن أشهر معبوداتهم "أوزريس"، و"إيزيس"، و"هوروس"، و"أنوبيس"، و"كانوب" و"أبيس" وصور هذه المعبودات والصلة بينها وبين آلهة اليونان.

وقد رسم رفاعة في مقالة خامسة في هذا الكتاب- كما يقول الباحث- "الخطوط الكبرى لتطور الأدب اليوناني، وهي خطوط يعوزها – في قول الباحث – الفهم الحقيقي لفنون اليونان الأدبية وللدراما بوجه خاص، ولا يستطيع القارئ أن يخرج منها بفكرة حقيقية واضحة عن الأدب اليوناني [(٢)] وإن كان الباحث لم يعلل ذلك مع أنه ذكر إتقان المترجم للغتيه ومنهما الفرنسية التي يترجم عنها إلى اليونانية.

---

(1) يعتبر الدين ذا فضل في ذلك؛ لأن الأساطير اليونانية حين تخالط العلمانية أو الوثنية تصنع شيئًا مثل الحلاج أو بشار أو شوبنهور أو نيتشة مثلاً – وراجع تقديم روي باسكال كهذا تكلم زردشت Thus Spake Zarathustra P. VI، وانظر فيما يلي الترجمة عن الألمانية وراجع في أصحاب الشنع الحلاج وبشار وأمثالهما في الفصل في الملل والنحل لابن حزم جـ ٤ ط دار الفكر ص ١٨٧، وفي الخوارج الفكر العربي ومكانه في التاريخ ص ٨٤ وكذا رسالة الغفران – تحقيق ودرس ط ٣ ص ٣٢ – ٤٤ و ص ٤٢٩ – ٤٩٥.

(2) بحوث ودراسات في العروبة وآدابها ص ١٦٢ ويبدو أن عدم الوضوح أو التشوش الذي نعت به عرض رفاعة مرجعه إلى ما يأتي:

=

وفي مجال القصة الأسطورية المتكاملة فحص الباحث مقالتي كتاب رفاعة "مواقع الأفلاك في وقائع تلماك" الذي نقله الطهطاوي عـن كتـاب Les Ave tures de Tele maque, par Fénélon، رجح الباحث أن هذا أول كتاب من نوعه في تاريخ الترجمة العربية قديمها وحديثها، وأنه يمثل أول محاولة جريئة في تقديم الأدب الأسطوري اليوناني إلى الثقافة العربية، وأورد قول رفاعـة في فائدة الكتاب التربوية في مدارس أوروبا، ورغبته في الانتفاع به في التعليم المصري. وهـو نفع يرى عدد من الدارسين المحدَثين أيضا أنه أُريد به نقد الخديوي عباس (الأول) الذي يـرى عدد من الباحثين أن إرسال رفاعة لخدمة التعليم في السودان وإحلال علي مبـارك محلـه فـي مصر كان نفيا أو إبعادا. والمعروف أن فيلون ألف الكتاب "لدوق بورجوني" حفيد لويس الرابـع عشر تهذيبا للأمير الصغير انتقد سياسة جده فيه بطريقة أدبية – والمنحى نفسه هو منحى مؤلفينا القدامى ومنهم ابن المقفع وهو من الذين رأوا في هذا النوع من الأدب تهذيبا للحكـم بالحكمـة، وكذلك فإن من دلائل أصالة رفاعة في الانتفاع بهذا الزاد المتَرجم ثقته بعمله لكونه عـرف أن لأدب القصص وأخبار السابقين شأنًا في القرآن. وأن للعربية قدرة على الوفاء بحاجـات أمثـال هذه التراجم؛ لخصب قاموس تلك اللغة وسعة وسائل التعبير فيها. ولم يحفل الباحث ببيان مـدى دقة الترجمة، ولكنه حكم بأن رفاعة – في وقائع تليماك قد نجح فيما قصد إليه من اتخاذ اللغـة العربية أداة للكتابة وفي أسلوب واضح يساعده قاموس واسع ومقـدرة ظـاهرة علـى التعبيـر ومسايرة حركاته وأحداثه [1].

وكما بينا في فصلنا هذا المخصص للترجمة لن تعود المشكلة في ترجمة القـصص خاصـة مشكلة لغوية أو شكلية، فقد طُوعت اللغة واستعيرت الأشكال ولكنها ستظل مشكلة أسلوبية فنيـة إلى النهاية، ولها نعود في الاتجاه البياني. وأما في جانبها الحضاري فالذي تبين لنا أن مخـالفي الطهطاوي لم يحذوا حذوه في ربط المتَرجم عن اليونان بسوابقه في الحضارة العربيـة، وفـوق ذلك فإن أحدا بعد ابن حزم لم يعن ببيان القرابة القائمة بين الفكر الإسـلامي والفكـر اليونـاني التوحيدي في الفكر السابق عليهما جميعا وهو الفكر الحنيفي بحسب ما رأينا في بحث آخر.

- وصف المرحلة الأسطورية مرحلة هوميروس بأنها مرحلة ذوق سليم وقوة مدركة في ذلك باعتبـار آداب الفطرة آداب قوة في الحس، وهذا كوصفنا للجاهليين وأدبهم أيضا في الترجمة عن الألمانية.
- تعبيره عن التراجيديا بالقصائد الحزبية أو عن الدراما بفن القصائد الألعابية والتعبير متأثر بتعبيـر الأوربيين عن المسرحيات بأنها plays مثلاً، وليس في ذلك عيب لولا أن المصطلح لم يعد مألوفًـا، وتعبير رفاعة لو رشد به في الثقافة العربية سيكون أدق ولكن الذوق المعاصر لنا اختار مصطلحات مسرحية وملهاة ومأساة وما إلى ذلك.
- نسبته الفصاحة الحقيقية إلى بروكليس في العهد السفسطائي دون بيان الوجه في ذلك.

(1) نفسه ص ١٦٣، ١٦٤.

كان أهم ما نُقِلَ من الفكر اليوناني ملحمتاه الشهيرتان الإلياذة والأوديسة، وقد امتـاز النقـل المطبوع في مصر بالتصرف والاستفادة من النقول السابقة [١] كما فعل دريني خشبة؛ فإنه نثـر الإلياذة وتصرف في بنائها ليقربها من ذوق العصر، منحى وليام تشابمان في القرن السابع عشر [٢] وكانت ترجمة أمين سلامة للإلياذة ترجمة دقيقة ظهرت في مطبوعات كتابي. كمـا طبعـت الهيئة المصرية العامة للكتاب له "رحلات أورديسيوس".

وعلى الصعيد الفلسفي نقل الأستاذ أحمد لطفي السيد، خلال الفرنسية من معتكفه أثناء الحرب العظمى الأولى وبعدها كتاب الأخلاق لـ "أرسطو"، وقد تضمنت الترجمـة مقدمـة المتَـرجِم الفرنسي في ١٦٦ صفحة من القطع الكبير وتصدير المترِجم العربي في ٥٦ صفحة، وقد عرف فيه بحياة أرسطو طاليس وكتبه وفلسفته عبر القرون، وقد صدرت الترجمة في مجلدين من ٣٢٦ و٣٧٦ صفحة. وقد رفع العمل من مكانه المتَرجِم ونفوذه الأدبي، ويبدو أنه سد فراغًا في الفكر الذي كان مشدودا لأخبار الحرب والنزاعات الحزبية بعدها [٣]. ولهذا جعله الأحرار الدستوريون مصدر استلهامهم لعنوان جريدتهم الحزبية "السياسة".

وقد نقل الدكتور طه حسين كتاب أرسطو (نظام الاثنين)، كانت ترجماته من المأساة والفكاهة المسرحية اليونانية محاولات منه لدفع سوء الحظ الفاحش الذي ذكر أن الأدب اليوناني يلقاه فـي مصر [٤]، ترجم "الكترا" و(إياس و"أنتيجونا" وأودوييوس" لـسوفكليس، كمـا تـرجم ولخـص لاسخيلوس: المستجيرات، والفرس، والسبعة يهاجمون طيبة، وبرومثيوس مغلولاً، وأجـاممنون، والمتقربون، والصافحات، وهي مآسٍ أيضا، وقد ظهر عشر منها في مجلد سنة ١٩٢٠ م بعنوان "صحف مختارة من الأدب التمثيلي عند اليونان"، وألحق بها أوديبوس تحت عنونة معدلة ٣٩ *. وربما أفلح هذا فقط في فتح الباب لمن جاءوا على أثره لكي ينظروا في الخرافات أو الملاحـم العربية، كما بينا من جهد الزيات ومدرسة الأدب الشعبي بجامعة القاهرة، وهـو مـا اسـتثمره الإعلام كما سنورد أيضا.

---

(1) في سنة ١٨٨٧ – ١٩٠٢ إميل البستاني (الإلياذة) شعرا وطبعتها المطبعة العربية، وترجمـت الإليـاذة كذلك (في شكل قصة نثرية) عنيزة سلام الخالدي متابعة لألفرد تشرش، كما ترجم شبلي (أفيجينيـا فـي أوليد) الاتجاهات الأدبية للمقدسي، ٣٧٧، ٣٧٨.

(2) مقدمة ترجمة دريني خشبة للإلياذة ص ٨، ٩.

(3) استقبال طه حسين للكتاب وأقسامه العشرة بحديث الأربعاء ص ٥٥ جـ ٣ ط ١٠ – دار المعـارف – وورد ذكر شيء من ذلك في مبحث الدستور والأحرار الدستوريين بالفصل الأول.

(4) طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه ص ٤٦.

* للشيخ المراغي تعريف وجيز سريع بالفلسفات اليونانية وأعلامها، قدم بها لدراسته في الغزالي.

* الفكر اليوناني أو الأدب الهيليني لغلاب، ط ١، دار الكتب الحديثة، ص ٢٧٢.

وقد كانت ترجمة طه حسين عن المسرح اليوناني بمثابة اطراد لما تُرجم عن المسرح الأوربي بعامة، ولكن لا نظن أن دوره ودور لطفي السيد من قبله أو غيرهما في تقديم كتب أرسطو خاصة قد أثمر مثل تلك الثمرات الخطيرة أو العظيمة من التأليف في الحكمة والكلام كما كان الشأن في الثقافة العربية قديما، وباستثناء حددناه في السياسة صدد مفكري حزب الأحرار الدستوريين. وربما عزز ذلك من نشر مثل كتاب "منهاج العابدين وبداية الهداية للغزالي" (١) وكذلك لأن مترجمينا عن اليونان حديثًا – لم يحذو حذو الطهطاوي ومدرسته في ربط جهدهم بخطة المسلمين السابقين وبجهد الأوروبيين المحدَثين.

وتدل النقود التي صبها طه حسين وأصحاب الديوان على بعض شعراء التقليد على أنهم لهجوا بذكر أرسطو واليونان دون بصر بحقيقتهما الفنية (٢) وإن خلبت أرستقراطية لطفي السيد وتعمقه في بحثه ألباب المتشوقين إلى الأدب الغربي لجدته وحظوته في إبانه من هذا العصر (٣).

وكان المنطق الأرسطي وعلم الأخلاق قد عرفا طريقهما إلى مناهج الدراسة فقد درس في الأزهر المنطق في "سلم الثبوت" و"إساغوجي"، ومن شيوخه الذين تصدوا لهذا العمل الشيخ عاشور الصدفي الذي درس شرح السيد الجرجاني على إساغوجي في أواخر أيام الأستاذ الإمام محمد عبده في الأزهر (٤) وكذلك درس المنطق في المدارس الثانوية.

وقد عرفت بعض المسرحيات طريقها إلى الجمهور كـ "أدويب ملكًا" التي ترجمها طه حسين وكـ "أجاممنون" لـ "اسخليوس" ترجمة لويس عوض لكي تتابع الترجمة من اسخليوس بعد ذلك ومنه ترجمة إبراهيم سكر ١٩٦٦م "الفرس الضارعات"، وهو أيضا قد ترجم كتاب (المسرح الإغريقي)، وكذا ترجم علي حافظ من اسخليوس (المستجيرات).

أما أفلاطون فقد وجدت محاوراته طريقها إلى القارئ العربي عن طريق ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود؛ فقد أصدر سنة ١٩٣٦ الأجزاء الأربعة الأولى منها، كما أصدر الجزء الخامس سنة ١٩٥٥.

---

(1) طُبِعا بدار إحياء الكتب العربية بمطبعة عيسى البابي الحلبي في متن وهامش تالٍ.

(2) حافظ شوقي – شعراؤنا ومترجم أرسطاطاليس (رقم ١١)، وعبد الرحمن شكري تأليف د/ أحمد عبد الحميد غراب جـ ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٥٥.

(3) مقال ساعة مع الأستاذ لطفي السيد للزيات بوحي الرسالة جـ ١ والمظاهرة نفسها في نقد الشهرستاني لمعاصريه في الملل والنحل ط دار الفكر جـ ٢ ص ١٥٨ وفي نقد مرسيليو أوف بدوا "بكتاب" الفكر السياسي الغربي للدكتور علي عبد المعطي ص ١٦٤ ط دار المعرفة الجامعية. تراجع إشارتنا ص ٥٤.

(4) طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه ص ٣٢، وطه حسين وزوال المجتمع التقليدي ص ٣٧.

وفي الوقت نفسه كان الدكتور زكي نجيب محمود مشغولاً بقصة الفلسفة اليونانية؛ فأصدر الأجزاء الثلاثة الأولى منها سنة ١٩٣٥، كما أصدر الجزء الرابع سنة ١٩٥٨، ولا تزال للدكتور زكي نجيب محمود يد مذكورة في الترجمة خلال الإنجليزية كما سيرد.

- لكن الترجمة عن اليونانية كانت – إلى حد ما – داعية إلى التذكير بماضيها في التاريخ الإسلامية؛ لذا وجدنا نُقادنا يبدون اهتماما بالفكر اليوناني لذلك السبب القديم ولمكانه من الحضارة الحديثة، ولكنه اهتمام قد استغرق جانبا كبيرا من ضرب من التحقيق والمقابلة بين ترجمات العرب القديمة وبين ترجمات الأوربيين الحديثة وهذه قد قللت كثيرا من قيمة الترجمات العربية وعابتها.

- وقد بدأ العقل العربي يتقبل الفكر اليوناني الأخلاقي والمنطقي لخاصية العموم فيه، إلا أن الأساطير اليونانية أعوزت النقاد إلى مضاعفة الجهد؛ لكي يبينوا عن الملاحظ الجمالية الإنسانية فيها محررة من التهويل والتوثن الذي يعلق بها، ولكن كُتابنا ما كادوا يفعلون حتى كان العصر قد تخطى فن الملاحم على إطلاقه؛ إذ ولى عهد الطفولة البشرية الحالم ولم يعد لفن الملحمة رواج، وكذلك ما عدت محاولات بعض الأدباء العرب إنشاء ملاحم من تاريخهم أن جاءت قصائد مطولة لما ألفوه هم من شعر غنائي نُظِم من قَبِيله.

- لكن تناول فن الملحمة على هذه الأنحاء السابقة قد لفت النظر إلى ملاحمنا الشعبية وأتى بها من قاع المجتمع إلى كرسي المعهد والجامعة وقيمها تقييما جديدا ونفع بها المثقفين الذين حرموا منها أو تعالوا عليها قبل [1]، أعادها المذياع ووسائل العرض الحديثة إلى الناس مصفاة مثراة بوسائل العرض الحديثة. وكذلك ساعد هذا الاتجاه نفسه على إعادة النظر في أشعار السذاجة العربية الأولى، واكتشاف مقوماتها الفنية المخلدة لها.

- ويعتبر نقد كل من العقاد والمازني لابن الرومي، كما يعتبر شعر العقاد، وقصص الحكيم وطه حسين في أسطورة شهريار وشهرزاد، والتسمية باسم أبوللو في الجماعة المعروفة بلا ريب من آثار الصلة في أدبنا ونقدنا الحديثين بالأدب اليوناني وبالأدب الأسطوري كما يلي في مواضعه.

ب- ما كاد تراجمتنا يمدون بصرهم إلى الأدب الإيطالي أيضا حتى وقفهم بعضه على وشائج قديمة داخلت هذا الأدب من الأدب العربي القديم. ولما لم يكن للغة الإيطالية

---

(1) دور الزيات في دراسة ألف ليلة وليلة بكتابه في أصول الأدب ١٩٣٤ في رسالتنا السابقة ص ٧٣. وقد اتخذت الدكتورة سهير القلماوي "ألف ليلة وليلة موضوعا لها في الدكتوراه سنة ٣٧، ومقتبس د. عبد الحميد يونس صدد شخصية المهدي في كتابات الزيات بالماجستير ص ٥٧ وذكر أبطال الريادة والفروسية والفتوة لدى الزيات وأحمد أمين وعمر الدسوقي ص ٥٨ بها.

نفاق في مصر عول في الغالـب علـى التراجمـة الـسوريين (أعنـي اللبنـانيين والسوريين).

ففي سنة ١٩٢٦ ترجم عبود راشد الجزء الأول من الكوميديا الإلهية (الجحيم)، وفـي سـنة ١٩٣١ ترجم الثاني (المطهر)، وتاليتها ترجم الجزء الثالث (النعيم)، فإذا ما حـل عـام ١٩٣٨ ترجمها المحامي أمين أبو شعر في نثر شعري محاكاة للأصل، وصدرت عن مكتبـة الأزهـر؛ مما يسر لبنت الشاطئ، وعيسى الطباع ما استعصى على طه حسين من درس الغفران كما بينا صدد حديثنا عن رسالة طه حسين في المعري.

لكن مصر ظفرت بفيلسوفي إيطاليا الناقدين "كروتشه" و"الباريني" وأولت عملين هامين لهمـا اهتماما ملحوظًا، وفي سنة ١٩٤٧ طبعت القاهرة كتاب "بندتو كروتشة" المجمل في فلسفة الفـن من ترجمة الدكتور سامي الدروبي، وفي نفس السنة ظهرت خطة الأستاذ أمين الخولي الـشاملة لتطوير الدرس البلاغي العربي بتخليته من السرف في الاصطلاح والمباحث الفقهيـة وتحليتـه بمناحي العرب البيانية في درس النظم العربية واتجاهات الغربيين في البحث التاريخي والنفسي والأسلوبي، وذلك في كتاب "فن القول" الذي أخرجه تلاميذ هـذا الـشيخ النابـه كمـا وصِـفَ عن محاضراته عليهم.

والمؤلف بعد قد استمد عنوان كتابه وبعض خطته من مبحث كتاب فن القول Art de diet من كتاب الباريني الأسلوب الإيطالي Stelila Iataliano وعمله ذاك يمثل استجابة من الخولي لدعوة الإمام محمد عبده إلى تقديم الدرس الأدبي والبلاغي بأساليب الغرب الحديثة في إطـار الخطـة المفصلة في بحثنا في إطار آخر.

وقد تواترت الاجتهادات التي تثبت تأثير الأدب العربي في الإيطالي على أثر محاولات رائدة ظهرت في الغرب نفسه من قبيل مجهود المستشرق الكاثوليكي "ميجيل أمين" المتتابع منذ ١٩١٩ لإثبات دلائل تقليد دانتي للمعري وغيره من الأدباء المسلمين تقليدا يشمل التفاصيل، ويثبت أثـر الإسراء والمعراج الواضح في الكوميديا، بل أثر الإسلام في كُتاب العصور الوسطى قاطبة من قبل دانتي نفسه، أو ذلك الذي سماه جلال مظهر انغماس فعلي من أوروبا إلى أذنيها في عـصر استعرابها [(١)] وقد أشبه جلال مظهر في ذلك عباس محمود العقاد، وعبد الرزاق نوفل، والدكتور علي سامي النشار، والدكتور مصطفى الشكعة وغيرهم [(٢)] وهو ما سيلي عد بروكلمان له دورا حضاريا أدته العربية كاملاً للإنسانية في العصور الوسطى.

---

(1) أثر الإسلام في الكوميديا الإلهية – تأليف ميجيل آسين "ترجمة جلال مظهر – نشر الخانجي ص ١٤ – ومقدمة المؤلف نفسه ص ١٠ – ١٣.

(2) لمظهر كتاب "حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي"، وللعقاد "أثر العرب في الحضارة الأوربية"، للشكعة "الأدب في موكب الحضارة الإسلامية" جـ ١، جـ ٢، ولـ "نغويد هونكه" كتاب "شمس العـرب

=

هذا رغم ما حاولته الدكتورة بنت الشاطئ من تهوين لهذا الأثر المشهود به للمعري في دانتي ومخالفتها "لمجيل آسين" فيه بالنظر إلى أن "آسين" كان يهدف إلى إبراز الفضل منسوبا إلى المسلمين باعتبارهم إسبانيين، وبالنظر إلى سمات الجِد الأدبية في عمل دانتي ومقابلات ذلك الساخرة في عمل المعري.

لكن المصريين عادوا فمدوا أبصارهم إلى الأدب الإيطالي وعدد من الآداب الأوربية غير الشائعة، وترجم لهم "أنيس منصور" من "مورافيا" مائة قصة قصيرة [1].

* وهكذا بدأت الترجمة تثمر نظريات جديدة أو تجدد من نظريات قديمة وتكشف عن وشائج ثقافية وعلاقات إنسانية دائمة، ولم تعد مجرد نقل واطلاع وكذلك استعصت على التعصب والاستعمار.

ج- حظيت الترجمة من العربية إلى الألمانية، بل تأثير الثقافة العربية والشرقية في الأدب الألماني بعناية تستحقها خارج إطار بحثنا كما سنشير، أما ما تُرجِم عن الألمانية - مثله مثل ما ترجم عن اليونانية- في اللغة العربية فمدين كله أو معظمه بالفضل في نقله للغتين الفرنسية والإنجليزية، كذلك كان فضل التراجمة العرب الآخرين في هذا الميدان واضحا[2].

وقد ترجم محمد عوض محمد بعض روائع "جوته"؛ وهي "فاوست" و"هرمن دوريته"، كما ترجم أحمد حسن الزيات "آلام فرتر" (سنة ١٩٢٠ م)، وترجم العقاد وعبد الرحمن بدوي عن جوته أيضا الديوان الشرقي، وترجم بدوي الأنساب المختارة عن السندروف.

حياة حائر بائر، كما ترجم لفوكيه، كذا ترجم إبراهيم ناجي دعاء الراعي لـ "هيني"، وترجم محمد عبد اللطيف النشار (نظما) تمثال الحب لـ "هيني" أيضا. ويبدو أنه بخلاف الغموض أو الصعوبة التي شكا منها بعض أدبائنا المعدودين في الثقافة الفلسفية الألمانية، قد كانت الصلة بالثقافة الألمانية معترضة بالحقبة التركية ذاتها، وهذا ضد منطق التاريخ بالنظر إلى الصلة العضوية بين الإمبراطورية العثمانية وألمانيا قبل انهيارهما في الحرب الأولى والصلة الروحية التي قلنا إن جوته ونتشه، وكذلك هونكه تعشقوها في الآداب الشرقية بله النقل عنها والتبشير بها

تسطع على الغرب: أثر العرب في حضارة أوروبا، انظره في ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨١ م. (الطبعة السادسة).

(1) الأهرام – مواقف ص ١٧ – ٩/ ٤/ ١٩٨٢ وسمة الغزارة في نقلة تذكرنا بمشبهها عند محمد السباعي.

(2) من هؤلاء إلياس الحداد مترجم ناثان الحكيم لـ "لسنج"، وسليم سعده مترجم أناشيد عن "هيني"، وكذلك ترجم حسن صادق الحب والدسيسة لـ "فريد ريك شيلر"، وترجم صبحي أبو غنيمة قطعا أخرى، كذلك فعل كل من جواد علي، ومدحت مظلوم، وشديد باز الحداد – الاتجاهات الأدبية للمقدسي ص ٣٨١.

في الغرب [1] فلما كان الغزو الفرنسي والإنجليزي صار للفرنسية والإنجليزية مكان في الشرق لم يشغله شيء من الألمانية من قبل، هذا رغم الدور الحاسم لحركة التعريب القومية الشامية سنة ١٩١٨ كما في الاتجاه العلمي وغلب التأثير الفرنسي على الرواية والبحث، وغلب الإنجليـزي على النقد والشعر وقل انتفاع العرب بما أسهم به مفكرون أحرار ألمان ككارل بروكلمان، رغـم ظلامية المستشرق في نظره للأدب بمعناه الخاص، وفرانتز روزنتال، ويمتاز الـرجلان بحنكـة حقيقية في الاطلاع على التراث العربي والإنساني وحسن تقدير دور العـرب والمـسلمين فـي التمدن، ولقد كانت مؤلفات كارل بروكلمان في التأريخ للأدب العربي وللشعوب الإسـلامية قـد تأخرت ترجمتها للقُراء والدارسين العرب إلى سنتي ٥٩، ١٩٨٦ كمـا سـنبين فـي الاتجـاه التاريخي، كما تأخرت ترجمة آدم متز إلى سنة ١٩٤٠، وكذا تأخر التعريف بـدفاع روزنتـال المجيد عن فضل المسلمين في ميدان البحث العلمي ومناهجه إلى ترجمة كتابه: "مناهج العلمـاء المسلمين في البحث العلمي" الذي ترجمه الدكتور أنيس فريحة، وراجعه الدكتور وليد عرفـات، ونُشِرَ بدار الثقافة سنة ١٩٦١ م.

درس الدكتور "فرنز روزنتال"، "مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي في القرون التاسع والعاشر والخامس عشر والسادس معتبرا بما يعترض به النقاد الغربيون على باحث مثله قد بلغ إنصافه للعلماء المسلمين حدا عظيما، فقارن بين طبيعة التنظـيم للأفكـار والمعلومـات عنـد المسلمين والغربيين؛ فوجد أنه تنظيم المقِل عند الآخرين، بينما هو عند المسلمين تنظيم المكْثِـر لقيام مدن كبيرة منذ أقدم عصور التاريخ (عندهم).. حسنة التنظيم (مما) لم يترك مجالاً للمزيـد من التحسين والتطوير (ص ١١).

وفي مجال النسخ اقتصر الأمر في الغرب على التنسيخ الجماعي والظاهر (عنـده هـو مـا استقاه من ابن أبي أصيبعة) أن هذه الطريقة لم تنشأ في الغرب عن رغبة في الدقة والأمانة فـي النسخ بقدر ما كانت نتيجة لقلة عدد الناسخين... بأقل ما يمكن من الوقت وبأقل ما يمكـن مـن أغلال، وإن احتوت هذه الطريقة على جميع عناصر الإنتاج الضخم المنظم الذي نما في الغرب فيما بعد. أما في الشرق لم يصوبوا التقسيم إلا في حالات نادرة؛ لأنهم لم يشكوا من قلـة عـدد النُساخ.

وعن نشأة النظام من "الفلسفة الكلامية" في البيئتين ذكر أن العرب لم يستسلموا الاستسلام كله للفلسفة الكلامية المحدودة للنظام، فلم تمثل خطرا على تراثهم الفكري الخـصب المتنـوع. أمـا

(1) دراسة هذه الظاهرة في أدب جوته (ديوانه الشرقي وحملته على المذهبية بموسوعة العقاد "أعلام الشعر" ص ٥٢٢ – ٥٢٦ في ط الكتاب اللبناني سنة ١٨٧٠، ومتن هذا البحث يوقفنا على دفاع روزنتال عـن مناهج البحث ضد المسلمين وحملة مماثلة لوطس على المذهبية الفرنسية ترد فـي هـذا الفـصل بعـد. وإشارتنا إلى هونكة قد سبقت قرين إشارتنا إلى مظهر والعقاد والشكعة قبل.

الغرب الذي لم يكن يعرف شيئًا يذكر سوى (ها)... فقد أدى به فقره الفكري إلى وضـع نظـام صارم للبحث العلمي. "فرغ لتشريح أفكاره القليلة إعادة تركيبها مرة بعد الأخرى" أسفرت عـن خلق ألوان رفيعة من طرق العرض الأدبي (ص ١٢).

أما في (المشكلة التي كثر الجدل حولها... وهي طبيعة الحضارة الإسلامية فقد أورد روزنتال آراء لـ "هيجل" و"فون كريمر" و"جولد تسيهر" و"دوتي" و"ميلر" وغيرهم ليبين "إلـى أي حـد تتباين الآراء وتختلف الأحكام حول هذه القضية" (ص ١٣) بل تتناقض تناقضا ظاهر.

وقد بدأ "روزنتال" ببيان أن الدين عند المسلمين كان ملاذًا لهم في الاضمحلال ولم يكن سـببا له بحال. (ص ١٧) كما أن الباحث المسلم لم يكن رجلاً نفعيا ماديا بل كان كثيرا ما يمعن فـي المغامرات الفكرية (لقيمها الذاتية وقد استقرأ روزنتال مزالق العلماء الغربيين في نظـرهم فـي هذه القضايا فإذا هي تراجع إلى أسباب [1] منها أن تعصب "هيجل" لـ "أفلاطون" ضد "أرسطو" جعله يرى الحضارة الإسلامية أنها معرض للتغييرات، ظاهرة لا شكل لها دفعت بهـا الوحـدة الروحية إلى التعصب (١٨، ١٣، ١٤)، وإذا هي عند ج. لـ و. سـترانج G. L. e. STRANGE وغيره تنشأ عن شعور التفوق الكاذب لديهم حتى وصف روزنتال هذا العالم بأنه قـزم بجـوار ياقوت الذي اعتده سترانج ندرة في التعقل والرصانة. ومن المزالـق أن العلمـاء الغـربيين لا يطبقون على المسلمين نفس المقاييس التي يطبقونها على الغربيين، فكانوا أكثر صـرامة علـى المسلمين منهم على أنفسهم (١٩)، ومنها سخطهم في غير مسخط حين يتعلق الأمـر بالأسـانيد والرواية عند المسلمين. وأهم من ذلك عنده أن الغرب لا يراعي في حكمـه علـى المـسلمين "التطور التقني؛ لذلك لا يرى إلا "الأمور العظيمة" التي حـدثت منـه فـي الغـرب. وعنـده أن الحضارة الإنسانية مرت في ثلاثة أطوار: الطور السابق لظهور الكتابة (عصر قبل التاريخ)، الطور الذي ظهرت معه الكتابة (عصر المخطوطات)، والطور الأخير (طور الطباعة). فلـئن كانت الفترة الزمنية التي تقع بين العصرين الأخيرين أقل بكثير من سابقتها فإن الفضل في ذلك يرجع إلى "التغيرات الجذرية التي طرأت على الأساليب العلمية التي أدت إلى ظهور الطباعـة وإليه بناء على ذلك، فاعتبر أن فضيلة حـضارة مـن الحـضارات لا تُـرى إلا فـي ضـوء الأخرى(٣١).

وفي بحثه في قسم "الكلمة المدونة كأساس للمعرفة أشار إلى إعجاب الغربيين بذاكرة العرب، وإلى مكان السماع من العلم العربي، ولكنه أكد أن الحضارة الإسلامية تقوم على المكتوب رغم احترام الذاكرة شأن الطب في ذلك شأن الشعر، وذكر شواهد لعناية المسلمين بالتدوين وتفضيله

---

(1) يلي تطور نظرة الغرب إلى العرب في هذه الفصل، وهو عكس ما رصد في هذا الفصل نفسه من تطور النظرة في الغرب إلى القرآن الكريم من التهوين إلى الاهتمام إلى الالتذاذ إلى الاعتناق.

على السماع وحده. ورأى الباحث في السودان والتعاليق عند المسلمين دليل إدراك وأمانة، وبين مكان المكتبة الخاصة عندهم وشواهده في ذلك من الرازي والثعالبي وابن الأثير.

ثُم نظر في مناهج العلماء المسلمين في التدوين من خلال عرضه لبعض مؤلفين للعلوي (عبد الباسط بن ميمون المتوفى في دمشق ٩٨١ هـ ـ ١٠٧٣ م)، وابن جماعة صاحب "تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم المؤلف سنة ١٢٧٣ م. وقد قال: والكتابان يعنيان بالتفاصيل العلمية أكثر مما يعنيان بالقواعد العامة. وكثير من التفاصيل... تنطبق على... علمي الفقه والحديث... ولكن من الممكن بيان أهميتها البالغة في مجال البحث العلمي الإسلامي بأجمعه (٢٧)، ونوه بإشارات العلماء المسلمين في الوجادة وفي رموزها واختصاراتها. وقد رأى في ظاهرة البسط والاختصار والإضافة فيما نظر فيه من كتب المذكورين إلى جانب ما كتب الخطيب البغدادي (ت ١٠٧١م) الذي ذكره العلوي كما ذكر الواقدي والنووي وعياض وابن الصلاح، وعد اختصار البغدادي لأعمالهم عملاً قد مر في مراحل تطور وتقدم ملحوظين، إلى أن اتخذ شكله النهائي في القرن السادس عشر، ثُم قام يعرف مسائل علم التحقيق ومنهج الكتابة عند العلوي في كتابه "المعيد في أدب المفيد والمستفيد".

وقد شمل كتاب روزنتال أيضا ما يلقي ضوءا على أصول العلماء المسلمين في حفظ المخطوطات والنظر فيها ونقدها نقدا بين أصوله عند العالم المسلم والعالم اليوناني ومناهجهما في النظر والبحث العلمي. وقد ربط "روزنتال" ذلك كله بمضطرده في الحديث بما أكد في نهاية كتابه القيم ما ذكره في أوله من تشابك الحضارات وتفاعلها.

على أنه إن كان النفوذ الثقافي والسياسي الإنجليزي والفرنسي قد حالا بين العرب وبين الفكر الألماني الممتاز – على نحو ما تمثلناه في أعمال بروكلمان وروزنتال وميتز، فإنه قد وجه المجهود الألماني لدراسة اللغة العربية في إطار القضية السامية من جهة أخرى.

لقد نشط الاستشراق الألماني منذ القرن التاسع عشر لمعرفة معجم اللغة العربية، لصلاحيته كتفسير سامٍ للمعجم العبري في العهد القديم، وكذلك نشط لدراسة الشعر الجاهلي واللهجات السامية القديمة والعربية الحديثة لرسم صورة شاملة للعائلة السامية (1). هذا إلى معتمد الاستشراق في جملته على النقوش الحجرية السامية (٢) إلى جانب الشعر الجاهلي واللهجات والمعجم القرآني.

---

(1) من حديث للدكتور "واف تيترتيش فيشر" (الأستاذ بجامعة "اليرليجن" بألمانيا الغربية وعميد آدابها السابق وعضو جمعية المستشرقين الألمان) ولتلميذه الدكتور رفعت الفونواني – تليفزيون القاهرة – القناة ٢ – الساعة ٤ – ٩ مساء ١٩٨٢/٣/٣٠.

(2) النقوش المسمارية: عن الأسرة البابلية الأولى، كما في ورثت العربية عنها: نظام قانون حمورابي. وكانت محاولة الضبط الكامل ونمو الصيغ فك رموزها قائمة على قدم وساق خلال للعشرة للأفعال والـو

=

أما تخصص الدكتور "فيشر" هذا ففي تاريخ اللغة العربية، وله "عدة مؤلفات كُتِبت جميعها بالألمانية، وهي:-

"بحث عن ضمائر الإشارة (هكذا) في اللهجات العربية القديمة والحديثة، وكتاب الألوان والأشكال في لغة الشعر الجاهلي.

وكتاب النحو في اللغة الفصحى، وهو كتاب تعليمي لطلاب العربية في ألمانيا [١].

لكنه من الناحية الأدبية الخالصة قد ذكر فيشر والفرنواني ثلاث المسائل الهامة التالية أيضا وهي:

أن الاستشراق الألماني يعتد الشعر الجاهلي خير شعر العرب؛ وهو في ذلك يعتقد أنه موافق للأدباء العرب [٢].

أن قيم القوة والحرية والفردية قيم مشتركة في الفكر الألماني والأدب العربي الجاهلي؛ ولهذا يتيسر فهم الأدب الجاهلي على الألمان.

أن المسألة عكس ذلك بالنسبة للأدب العربي الحديث، ذلك أن القارئ الألماني (وهذا رأي هام يفيد فيما سنتحدث فيه من أثر الترجمة المرتدة من العربية إلى لغات العالم) – يجد صعوبة في فهم الرواية المصرية الحديثة؛ لغموض خصائصها المصرية، وبعدِ خصائصها المحلية عن البعد الحضاري العربي العام، ولكون الرواية فن غربي في الوقت نفسه [٣].

أن كتابتها أخصب فترة من حياة أرنست شوميرية (مقطعية معقدة) ربنان الاستشراقية ولو أنه رفض تماما أن يوجه بصره إليها ذاهبا في الباب الثاني من الكتاب الرابع من مؤلفه "التاريخ العام والنظام المقارن للغات السامية أن العربية تمر بمراحل بدائية ووسط.

وتنظر النقوش السبئية والمعينية ورموز رأس شمرا الأوجائية (اللهجة الفينيقية القديمة)، وكذا نقوش ببلوس جبيل في البحث أهداه "أدوارد دورم" عضو المجتمع الفرنسي إلى "لويس ماسينيون" عضو المجمع المصري، ومن ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ويلاحظ بالإضافة إلى مثل ذلك فيما أوردنا في الاستشراق في البيئة العربية في مواطنه من البحث اعتداد دروم بحثه كذكرى له مع ماسينيون خلال الحرب العالمية الأولى، حيث عاشا شبه حياة المعسكرات في الدردنيل ومقدونيا (مجلة مجمع اللغة العربية جـ ١٢ ط ١٩٦٠ – مقال دروم: العربية الفصحى ولغة حمورابي ص ٢٨٥ – ٢٩٢).

(1) جريدة أخبار اليوم ص ١٢، ١٨/ ٣/ ٧٣.

(2) مما يؤسف له أن الاتجاه بين النُقاد العرب كان – إلى ما قبل مرحلة إعادة النظر التي درسناها– يجهل قيمة الشعر الجاهلي وأهميته. وجدير بالذكر أن بروكلمان عده ممثل الصحة العقلية والجسمية التي حفظتها البداوة على العرب، وثمة آراء أخرى محققة الآن في ذلك في اتجاه إعادة النظر برسالتنا الجامعية الأولى. ص ٢٧ – ٢٩ وهوامشها وجملة أقسام الفصل الأول.

(3) الحديث التليفزيوني نفسه.

* وإذن فلم تخرج الأعمال المتَرجمة عن الألمانية في معظم الفترة التي تدرسها وما قبلها في إطار الرواية والشعر الغنائي والمسرحية غالبا، ولم يستفد المصريون والعرب بفلسفة الاستنارة والقوة والتنظيم المدني الحديث في منابعها الألمانية. وقد حالت الثقافتان الفرنسية والإنجليزية دون حركة اتجاه أوروبا في ثقافتها شرقًا، وهي حركة ثقافية ألمانية في الغالب، كما استطاع الفكر الإنجليزي والفرنسي أن يدفع بالمجهود الاستشراقي الألماني للعمل في صفه على الجبهة السامية في بلادنا وفي تراثنا.

ج- فرسان الفترة والمكان المحددين للبحث في ميدان الترجمة عن الفرنسية واردون بالضرورة، وأبرزهم طه حسين وأحمد حسن الزيات ومحمد حسين هيكل، بيدَ أن نظرة على ما سبقهم تخدم هنا. فقد بدأت الترجمة عن الفرنسية مبكرة ونشيطة؛ لارتباطها بحملة نابليون- كما ذكرنا من قبل- كذلك شملت حقبة واسعة من عصور الأدب الفرنسي، وأدت إلى القرن السابع عشر، كما بارى فيها المصريون السوريين. فقبل سنة ١٨٩٩ نقل نجيب الحداد رواية السيد لكورني، وكذلك نقلها نثرا محمد سعيد *. ولقد نقل معاصره محمد عثمان جلال (ت ١٨٩٨) حكايات الفونتين، كما مصر مسرحية ترتوف لموليير. ويرى معظم الباحثين أن شوقيا (ت ١٩٣٢) تأثر بحكايات لافونتين فيما نظم شوقي على ألسنة الحيوان والطير في الجزء الرابع المنشور بعد وفاته من ديوانه، وإن كنا نعرف أن لـ "كليلة ودمنة" ولشعراء العربية الذين نطقوا بلسان خيلهم ودوابهم السبق في التأثير في كليهما كما أشرنا **.

وفي سنة ١٩٤٣ نشر الأب نقولا أبو هنا المخاص من ترجمته أوفى وأفضل ترجمة شعرية لحكايات لفونتين. وكان جبران نحاس قد ترجم ونشر مختارات فيها نظما سنة ١٩٤١. أما عن "موليير" فقد ترجم "مارون النقاش" روايته "البخيل"، كما ترجم إلياس أبو شبكة عددا من مسرحياته.

وفي القرنين التاسع عشر والعشرين ترجمت أعمال لفيكتور هوجو ولافونتن وألفرد دي موسيه وبودلير وادمون روستان وجان لاهو وفاليري وفيرلين وشيللي بردوم، وقد ساهم في الترجمة عنهم عدد كبير من الأدباء مثل قصطاكي الحمصي وأمين الحداد ونقولا فياض وشبلي ملاط.

وممن لهم يد تُذْكَر في هذا أيضا طه حسين وإبراهيم سليم النجار ومهدي البصير وخليل هنداوي وأحمد أبو الخضر منسي وأمين زين وأحمد حسن الزيات ويوسف كرم وناجي طنطاوي

* دور الريادي في النقد يلي ص ٨٢ (الفقرة الأخيرة).

** انظر ص ٩٧ ف ٤، ص ٨٧ (متن وهامش)، وفي المؤلفات في قضية تأثير العرب في أوروبا انظر ص ٥٧، في ١، ٢، والهامشان ١ و٢.

وأحمد فتحي المرسي ومعروف الأرناؤطي ومحمد مندور وسامي الدهان وصلاح الدين المنجـد ومحمد كوما.. وإبراهيم المصري وعلي شمس الدين ومصطفى عبد الـرحمن وعثمـان علـي العسال ونقولا فياض [١].

واتصال أدبائنا ومفكرينا المصريين بالأدب الفرنسي وتأثرهم به يتضح من إقبال محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين ولطفي السيد على حضور محاضرات في جنيف صيف ١٨٩٧؛ فمن أسلوب العرض والمناقشة والاستنتاج الذي جرى عليه المحاضر في رواية (روي بلاس) فيكتور هوجو "خرج الشيخ شديد الإعجاب بما رأى وسمع. وقال هكذا يكون التعليم! نحن في بلادنـا لا نعلم، واعتزم أن يدخِل هذه الطريقة في الأزهر"، وتمكن محمد عبده من الفرنسية وإن كان بـدأ تعلمها في الرابعة والأربعين فقد دل عليه بيانه لزملائه في جنيف معاني تين كما دلـت عليـه ترجمته كتاب التربية للفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر عن الفرنسية [٢] وكان قاسم أمين قـد عكف على قراءة كتاب تين "الذكاء" لزملائه وهم في جنيف تلك السنة. ومن بعد داخلت فكـرة الذكاء نظرية جمالية وضعها الزيات في كتابه وحي الرسالة في جزئه الأول، وربما كان أمـين الخولي قد عنَى الزيات حين ذكر في فن القول أن أدباء حاولوا طرق أبواب الحديث فـي الفـن والجمال دون الإشارة إلى مصادرهم التي استقوا منها، والاحتمال وارد صدد الرافعي هنا.

وإن ما وضعه الزيات من تنظير للجمال قد جاء في الغالب مستوحى من قيم البلاغة العربية في مدرستها البيانية المعتد بها، ومن ذوقه الأدبي الخاص، ولكننا نضيف أن فكرة "الـذكاء" قـد داخلت هذه النظرية (الزياتية)، ومثلت إحدى قيم ثلاث جعلها خصائص لا ينفك عنهـا الجميـل وهي القوة والوفرة والذكاء.

لكنه قد غلب على الزيات حقًا الانتشاء بترجمة النماذج الرومانسية وذلك فيما سبق لنا أن أبنا عنه من موافقة ذلك لذوقه الخاص ولمزاج سري في عصره، ومن هذا القبيل ما نجده في كتابـه "من الأدب الفرنسي قصائد وأقاصيص"، وترجمته لـ " آلام فرتر" عن الفرنسية ١٩٢٠ ولـ "رافائيل" ١٩٢٦م. "وفي ضوء القمر وقصص أخرى" – وهذه كلها نماذج للنوع الرومانسي الذي أُغْرِم به بعض أدبائنا إلى حد خطير.

لكن الترجمة التي تمثل الاستجابة للحاجة الذاتية والاجتماعية الدائمة قد وجدت عند طه حسين خطتها الفنية والاجتماعية الدائمة التي لا تخلو من هدف عام، فقد كانت ترجمته عـن الفرنـسية ممثلة لمختلف فروع الأدب، كما اتسمت بالاستمرار والدأب [٣]. منذ العشرينيات.

---

(1) وحي الرسالة ١ – ٨ ص ٩٢ – ١٠٧.

(2) وحي الرسالة جـ ١، ط ٨، ص ٩٢ – ١٠٧.

(3) في سنة ١٩٢٠ – ٢١ نقل رواية الواجب لجول سيمون بالاشتراك مع محمد رمضان، وفي سنة ١٩٢٤ نقل قصص تمثيلية لجماعة من أشهر الكُتاب الفرنسيين.

=

وأما ما هدف إليه طه حسين فهو أن يعلم وينشر أفكاره هو، وما يعجبه مما يوافقها من أفكار غيره، ومنها التعريف بفن التمثيل والاصطلاح الاجتماعي وإثارة القضايا العقلية والإنسانية [١] واستخلاص السمات المميزة لأدباء بأعيانهم[٢]. وعن الفرنسية في النقد خاصة ما ظهرت بوادره فيما انصرف إليه محمد حسين هيكل بعد سنة ١٩١٧ من ترجمة البحث الذي لخص فيه الفيلسوف الفرنسي "هيبوليت تين" كتاب عالم ألماني عن البوذية، واستغرق نحو مائة صفحة من كتب تين في النقد والتاريخ"، وفيما كتبه هيكل من الجزء الأول من كتابه "جان جاك روسو: حياته وكتبه سنة ١٩٢١م[٣]. والمعروف أن هيكل أصدر الجزء الثاني من جان جاك روسو سنة ١٩٢٣ م *.

وقد عرف الدكتور محمد حسين هيكل بـ "هيبوليت تين" ودوره في النقد والأدب بكتابه تراجم مصرية وغربية سنة ١٩٢٩، إلى جانب من ترجم لهم مثل مصطفى كامل، وعبد الخالق ثروت، وبطرس غالي، وبيتهوفن، وشكسبير، وشيلي. بيد أن التعريف بـ "تين" خاصة أوصل رحما بمبحثنا هذا لما يمثله "تين" من روح الطموح العلمي في النقد الذي ترك أثره في خالفيه، وأورثهم بعض أخطائه ومزاياه. وكذلك عرف به طه حسين وبعلمي النقد العلم الآخرين "بيف" "وبرنتيير" في مقدمة في الأدب الجاهلي ١٩٢٧م.

وسأكتفي بإشارة إلى الأخيرين، وأترجم تعريفًا مفصلاً بـ "تين" في قليل تصرف. "وهيبوليت أدولف تين" ١٨٢٨ – ١٨٩٣ Hipplyte Adlofe Taine هو ثاني ممثل للطريقة العلمية التي ظهرت في القرن التاسع عشر)... كرد فعل للفلسفة الروحية. وقد نزعت محاولته لاستخدام النظرية العلمية في دراسة الأدب والفن وعلم النفس والتاريخ الثقافي وفي "إمارة" ما وراء –

وفي سنة ١٩٣٥ نقل قصة (أندروماك) لراسين.

وفي سنة ١٩٤٢ كتب لحظات.

وفي سنة ١٩٤٣ – صوت باريس.

وفي سنة ١٩٤٧ نقل زاديج أو القدر لـ "فولتير"، ثم من أبطال الأساطير اليونانية لأندريه جيد.

وفي سنة ١٩٥٩ من أدب التمثيل الغربي.

(طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه للأب كمال قلته ص ٦٢ – من نقله عن دراسة إلى طه حسين بإشراف د. عبد الرحمن بدوي ط ٦٢).

(1) نفسه ص ٦٣، ٦٤، ٦٥.

(2) ممن ترجم لحياتهم طه حسين بصفتي الصدق والصراحة كما شابههم في صفة التمرد المعري، ومنهم مدام ديفو التي آثرت حياة الأدب على الترف، ولها رسائل في الحب في السبعين من عمرها، بالإضافة إلى غيرها من النساء الأديبات أو اللاتي قد كان لهن أثر في نبوغ بعض الرجال – نفسه ص ٦٦ – ٨٠.

(3) مذكرات في السياسة المصرية جـ ١، ص ٦٦، وراجع إشارتنا إلى نيتشه هـ ١، ص ٥٧.

* هيكل والسياسة (السياسة الأسبوعية)، ص ٧٩ وقد توفي هيكل سنة ١٩٥٦ م قبل أن يصدر الجزء ٣.

الطبيعة والجماليات. وطموحه هذا الذي أراد به تأسيس ملة جديدة على أسس علمية (هو الـذي) زود الحركة الطبيعية في الأدب أساسها النظري. أما صميم محاولته فتتمثل فـي عمليـة جمـع التجارب مساهمة منه في (محاولة) فهم الطبيعة الإنسانية فهما علميا [1]. (واجدا عضدا قويا من نضج المذهبية الواقعية في أجيال عصره، كما في روايات "ساتندال" و"فلوبير" و"زولا") [*].

وكان "تين" قد تلقى تعليمه الأول في منزله حتى بعيد وفاة أبيه، ثُم لما رحل مـع أمـه إلـى باريس تعلم في بعض معاهدها... حيث استبدل أفكاره السنية وإيمانه المسيحي وهو في الخامسة عشرة بموقف عقلاني دفعه إلى الإعجاب بالفلاسفة الذين يقولون بضرورة قيام المعرفـة علـى التجربة وكذلك اجتذبته أفكار هيجل وسبينوزا المتيافيزيقية، وألهمته الرغبة فـي العثـور علـى التفسير الشامل للقوى السلبية الكامنة في الحياة والكون.

ولما كان معلموه الجدد في باريس يعتنقون التعاليم الفلسفية السابقة عن الانتخاب الطبيعي، فقد أدى به ذلك إلى بعض الفضائح في الدوائر العلمية ومنها رسوبه أمام اللجنـة التـي اجتمعـت لامتحانه سنة ١٨٥١ فتغيب عن الدراسة ١٨٥٢ ليعود فيما بعد إلى باريس، ليعد بحثه للدكتوراه في شخصية أفلاطون، وقد حصل على درجته العلمية سنة ١٨٥٣، ثُم ليعـد أول دراسـة لـه بعنوان: "دراسة عن لافونتين وأمثاله"، ويواصل كتابة المقالات التي نال بسبب بعـضها جـائزة الأكاديمية الفرنسية، أثناء ذلك كان يحضر محاضرات في العلوم ويجمع معلوماته في علم النفس مؤْثِرا أن يتعيش على التدريس الخاص وكتابة الأبحاث، وبعض كتب الـرحلات، كمـا أسـهم بغزارة في كتابة المقالات الأدبية والتاريخية للمجلات الرائدة؛ وبذلك تكونت مواد كتب ثلاثة له زادت من شهرته، وهي فلاسفة القرن التاسع عشر الفرنسيون ١٨٥٧ الذي هاجم فيـه الفلـسفة "الانتخابية الشائعة لفكتور كوزان وجماعته، كما ضمن آخر عرضه الواضح لنظريته الإيجابية في المعرفة، ثُم مجموعته الأولى بعنوان "مقالات في النقد والتـاريخ سـنة ١٨٥٨، وتاريخـه المشهور "تاريخ الأدب الإنجليزي" سنة ١٨٦٣ – ٦٤.

---

(1) The Encyclopaedia Britanica Vol. 17 – 68 p. 992 col. 1.
ويبدو أثر العلوم الحديثة وعلم النفس واضحا في إخراج الفكرة الخلدونية عن أثر البيئة في أجيال النـاس وطباعهم وعمرانهم من مكمنها وتنظر المقدمة ص ١٤٨ – ١٥٠، وص ٥٧ – ٥٩. والعلمان الغربيـان الآخران وهما: .Ferdinand Bruntiere 1841 – 1906, Sonite Beuve 1804 – 1869 محـور نظرية بيف قبل تخليه عن كل قواعد مسبقة تأريخ الأدب على أساس تصنيف المبدعين فـصائل حـسب أمزجتهم النفسية، ومحور نظرية ثالثهم (برنتيير) النظر إلى الفنون والآداب في ضـوء نظريـة النـشؤ والارتقاء، وسيرد ضوء منها عند نعمان عاشور في الاتجاه الاجتماعي. وتابع متجه النقد الغربـي إلـى نحو من البيانية العربية، و النهج النقدي الإحيائي (الارتدادي) المتكامل عند محمد سـعيد (ص ٧٩، ف ٢، وص ٨٢، ف ٣.

[*] مداخلة منا عن د. صلاح فضل/ منهج الواقعية ١٩٧٨، ص ٢٧.

وقد تضمنت مقدمته بيانًا وافيا عن مدخله إلى التاريخ الأدبي والثقافي ونصا تقعيديا لموقفه العلمي من النقد الأدبي "نفس العوامل التي رآها قوام الحقائق الثقافية لأي عصر أو لأي مجتمع، حيث يمكن عن طريق دراسة الوثائق الأدبية فهم المؤلف، وتحديد حقائق حياته وشخصيته التي تشع في موهبته، (وتبدو) في طابع شخصيته العام الذي يقرر قيمة عمله، أو بمعنى آخر تبين أثر الجنس والمجتمع والعصر في تكوينه؛ أي تبين الشخصية الموروثة للمؤلف وخلفيته الاجتماعية والسياسية والجغرافية والظروف التاريخية التي تحيط به.

وواضح أن اهتمام "تين" هنا بالأدب نفسه أقل من اهتمامه بالأسباب التاريخية والنظرية والنفسية، وربما أدت نظريته بالمعجبين إلى الإفراط فيهما على حساب الحكم النقدي على الرغم أن قدرات "تين" نفسه كناقد كان لها اعتبارها. "وقد اتضح ذلك لنا أيضا في نقدنا لمحاولة الدكتور طه حسين لنقد أبي العلاء نقدا تاريخيا.

وقد عينه نابليون الثالث سنة ١٨٦٤ أستاذًا للجماليات في تاريخ الفن في مدرسة الفنون الجميلة بباريس؛ حيث حاضر عشرين سنة، وقد استمر "تين" يكتب بغزارة في النقد الأدبي والرحلات، كما انتخب عضوا في الأكاديمية الفرنسية ١٨٧٨. وكان الغزو الألماني لفرنسا سنة ١٨٧٠ – ٧١ سببا في تحوله إلى السياسة والكتابة في تاريخ فرنسا، بيدَ أنه عاود الكتابة الأدبية، وتفرغ لها إذ استقال من وظائفه بعد سنة ١٨٨٣ حتى وفاته.

بيدَ أنه مما يجدر بنا ذكره في هذا المقام خاصة أن "تين" وضع قصته التي لم تكتمل ETIENMAYRAN (اتين ميران) سنة ١٨٦١، وقد ظهرت مطبوعة بعد وفاته سنة ١٩١٠. (ثُم وهذا هو الأهم) – كتابه "عن الذكاء" الذي طُبِعَ سنة ١٨٧٠ في مجلدين ظهرا في الإنجليزية ١٨٧١.

ووصف دائرة المعارف البريطانية له أنه "عمل عظيم في نظام علم النفس الذي أُولِع به (تين) منذ شبابه، وفيه يظهر بدرجة أكبر إخلاصه التام للعلم، فيه يعارض "الطريقة" التأمليةspeculative، الاستبطانية INTROSPECTIVE، التوفيقية [1] ELECTIVE ويضع تخطيطًا لنظرية علمية في دراسة الشخصية الإنسانية على نحو ما يحاول مفكرون من أمثال "ثيودول ريبوت" و"بييرجانت" مؤسس علم النفس التجريبي IMPIRICAL PSYCHOLOGY.

وعلى الرغم أن كثيرا من هذا العمل مما قد تجاوزه البحث العلمي إلا أنه قد ساعد على تبسيط نظريات للبحث بتركيزه على التجربة والبحث في الأسباب، ودراسة الحالات الباثولوجية والدعائم النفسية الشخصية.

---

(1) التوفيق Eclecticisms غير مذهب التلفيق Syncretism.

وقد شدد من المعارضة لأفكار "تين" حتى أن معارضيه الغاضبين اتهموه بأنه يـصر علـى التمسك بنظرية مادية للإنسان – و(لو) لم تخل من صحة – رغم أنه ادعى أنه رفض الماديـة، وجادل بأن المسئولية الروحية معادلة للإصرارية "كما اقتنع بها".

(هذا) والعمل يطور محاولته الدائبة لقبس الإيجابية والمثالية الهيجيلية وتزويدها بنظرية فـي الميتافيزيقا العلمية. ورغم أن ما أراده من هذه الميتافيزيقا التي تعهدها كان التوصل إلى الأسباب النهائية للحياة ذاتها، إلا أن رؤاها الداخلية ألهمته إيمانه بالطبيعة (ثقتـه فـي وحـدة الوجـود) Pantheistic Trust in Nature [1]. كما عبر عنه في مقالات عـن "مـاركوس أورليـوس" فـي "مقالات جديدة" و"افجينيا" في "مقالات قديمة".

وعن الفرنسية في النقد كذلك ترجم أحمد حسن الزيات ويوسف كرم سنة ١٩٢٩: محاضرات في الفلسفة، "لأندريه لا لاند".

والقسم الأول من الكتاب بعنوان "دروس في التراجع" يعالج الرأي في "نظرية التطور". مـن حيث ظهورها ودلالتها في الفنون خلافًا للمعروف عنها في الطبيعة والإحياء.

وقد أزال لا لاند شبهة قصور القول في الانتخاب الطبيعي أو بقاء الأصلح على عالم واحـد (دارون مثلاً)، فقد ظهر تقريبا في وقت واحد في مواطن كثيرة، بعد أن بدأ عند سبنسر بمعنـى التباين والتكامل "أي الانتقال من المتجانس إلى المتنوع ..." مضادا لمعنى الانحلال أو الانحطاط والموت، وقد مرت بنا منذ قليل معارضة مماثلة بين "تين" وفيكتور كوزان من أصحاب الفلسفة الانتخابية المادية.

وقد تجنب لا لاند مصطلح "الانحلال" إلى مصطلح "التراجع"، ليدل بـه... علـى "الـصيغة الجوهرية" التي تظهر خلال الظواهر التي يشتد اختلافها غير أنها تسفر عن "صفة عامة" وهـي إظهار التقدم لا في نمو الفروق، ولا في تحقيق نظام قوى التضامن، بل بالعكس فـي التـشابه المطرد بين العناصر التي تؤلف كلاً كأفراد الناس في الجماعة، وفيما يبلغون مـن رقـي فـي حريتهم باعتباره الأمر في الحياة وطرف الفن مختلفًا [2]. مما يعبر عنـه فـي النقـد الحـديث بالخاصة الإنسانية العامة أو الذاتية التي تحقق للفن صفته العالمية.

ومن النقد الفرنسي كذلك ترجم الدكتور محمد مندور منهجي ج. لانسون وأنطوان ماييه فـي الأدب واللغة، ونشرهما سويا لأول مرة سنة ١٩٤٦ بدار العلم للملايين، ثُم أعاد طبعهما لاحقـا بكتابه "النقد المنهجي عند العرب" سنة ١٩٧٢ م، وقد طبعهمـا بالطريقـة الأخيـرة لاعتقـاده بضرورة الاستفادة من تجارب الغير المتقدمة، وهي لا تكون صحيحة... وواعية إلا بعد دراسة

The Encyclopedia Britancia p. 993. (1)

(2) محاضرات في الفلسفة ص ٥، ٢، ٣، ٥ وللمقولة مطرد بالدراسة ص ٣٢٢ وهامشها.

تراثنا دون أن نقحم على القدماء ما لم يخطر ببالهم، ودون جهل- أو تجاهل- الفروق الأساسية بين الأدب العربي وغيره، وما يشبهه ذلك من تفاوت في مناهج البحث [1]. ولـو أن الـدكتور مندور عاد فآثر التخلي عن استخدام جميع المناهج مؤثرا أن يزن في [2] النقد بميـزان الأديـب المنقود نفسه، وذلك في كتاب مندور "في الميزان الجديد" سنة ٧٣، آخـذًا عـن سـانت بـوف أو مقتربا من الرافعي على ما سنبين عنه في الاتجاه البياني.

والدكتور مندور إذن يريد للدارس أن يبدأ بما بدأ به النقد الفني عند العرب.

ومما سبق إليه ابن سلام من ذلك في بحث مندور اتخاذ فكرتي الزمـان والمكـان إطـارين كبيرين أدخل فيهما ابن سلام تقسيمه للشعراء على أساس من النقد الأدبي (فكرة الطبقات): عشر لمشاهير شعراء الجاهلية، ثُم عشر لمشاهير شعراء الإسلام، وبينهما ثلاث طبقات وضـع ابـن سلام شعراء الرثاء في واحدة، وخصص الثانية لشعراء القرى (المدينـة، ومكـة، والطـائف، والبحرين) ووقف الثالثة على شعراء اليهود. وقد أوسع فيها ابن سـلام لمائـة وأربعـة عـشر شاعرا[3].

وهو منهج رأى مندور الاستفادة به أيضا – دون تسليم – إلى جانب من جوانـب أخـرى – صالحة عن النقاد العرب، فضلاً عن منهج لانسون في الأدب الذي ترجمه مندور لحقًـا بكتابـه النقد المنهجي عند العرب، إلى جانب ترجمته لمنهج أنطوان ماييه في علم اللـسان سـنة ٧٢ – وكان نشره الأول لمنهجي لانسون وماييه سنة ٤٦، وقد استمد مندور أيضا من منهج ابن سلام منحاه العلمي الأخص في معالجته النقدية للفنون الأدبية كمنحاه في نقد أصحاب المراثي وتحديد الشروط التي يجب أن تتوافر للناقد مثل: الدربة والدراية، تحقيق النصوص، تفـسير الظـواهر الأدبية، تحديد أساس المفاضلة، ودعا أيضا إلى الاعتبار بما يمكن أن يكمل ذلك مما أسهم به ابن

---

(1) النقد "المنهجي" عند العرب، ط نهضة مصر، سنة ١٩٧٢، ص٣، ٦.

(2) عاد مندور فانتبه إلى الاتجاه الفرنسي في عمومه، وأعمل ميزانه الجديد هذا الذي يشبه قـضاء سـانت بوف بلا قانون في ٣٢ مقالة تقريبا، بدأ فيها مندور رافضا جميع صور النقد المتاحة فـي أدبنـا؛ ممـا أدخله في شبه معارك مع العقاد وسيد قطب وخلف ا وغيرهم، الكتاب من طبـع دار نهـضة مـصر، سنة٧٣.

(3) التدقيقات من مراجعتنا على:

- طبقات الشعراء تحقيق محمود أحمد شاكر ط مدني ١٩٧٤ (المقدمة) والمصادر الأدبية اللغويـة ط ٧٦ ص ٢٢٢.
- وأبو الفرج الأصفهاني ومصادر كتابه الأغاني – ماجستير لأحمد صابر وإشراف أيـوب وسـويد بجامعة بايرو سنة ٧٩ ص ٨٤. وقد عال العدد عند ابن سلام بسبب صعوبات واجهها في التطبيـق إلى ١١١ شاعرا.
- وانظر مصورتنا التوضيحية عن طبقات ابن سلام بملاحق الدراسة.

قتيبة، مثل التحرر من الميل إلى المتابعة لظاهر المناهج السابقة، الاعتبار بالجودة دون اعتبـار القدم والجدة (أو الطبقة ..).

ثُم ما لا بد منه مما لفت ابن قتيبة النظر إليه أيضا من ضرورة ارتباط الموضـوعات التـي يكتبها الشعراء بحياتهم، لما يؤدي إليه التقليد لظاهر الفنون من سخف. هذا رغم أن "تاريخ ابـن قتيبة" والرأي لمندور ومحض قصص ونوادر وأخبار، وليس فيه محاولة منهجية لتقسيم الشعراء في مذهب أو مدارس أو تيارات مما ذكر مندور أنها لم تخطر لابن قتيبة على بال.

كذلك يدعو مندور إلى الأخذ بما يغني فيه عبد القاهر من اتباع الطريقة التحليليـة الذوقيـة اللغوية في تدارس النصوص قبل الحكم عليها، وتبين الملاحظ الجمالية وعوامـل التـأثير فـي الأدب والحياة وفق نظرية النظم أو ما يسمى فن البيان الذي كثر الاحتفال به في بحثنا الجـامعي الحديث على أثر محمد عبده وسيد المرصفي [1].

وكذا قرر من المنطق اللغوي والاصطلاح البلاغي مما وجد عند قدامة أو غيره ممن تأثروا بالمنطق الأرسطي والفلسفة، باعتبار ذلك أدوات للنقد وليست هي النقد.

وغير ذلك من الإشارات عظيمة القيمة مما تفرق عند نُقاد العرب.

فإذا ما توفرت لنا الدراسات المتعمقة لسائر مواد التراث الأدبي بواسطة باحثين متخصصين تسنى لنا وضع تاريخ للنقد الأدبي العربي كذلك، مما يجدي فيه النظر في تجارب الأمم الأخرى.

أما خطوط هذا التاريخ النقدي العربي التي تسير في موازاة الخطط المترجمة عنده فهي:

من حيث المدارس الأدبية، فثمة مدرسة زهير والحطيئة – مدرسة مسلم وأبي تمام.

مدرسة عمر بن أبي ربيعة والعرجي – ومدرسة جميل وكُثير، ومدرسة البديع في العـصر العباسي وجماعة من بقي من عمود الشعر.

ومن حيث الفنون الشعرية، فثمة الغزل والرثاء – والمديح وما إليها.

---

(1) تدريس أسرار البلاغة في الأزهر بواسطة محمد عبده بمحضر رضا والمهدي وغيرهما، بعـد شـروع رضا في نشره، وتحقيق محمد عبده لدلائل الإعجاز ك، ط، ي أسرار البلاغة ط ٦/ ١٩٥٩م، وفي الخبر والجرجاني راجعنا أيضا "كتاب" عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني ط دار المعارف ١٩٨١ ص ٤ مـثلاً، وهو بحث للبدراوي زهران مدرس علم اللغة بآداب سوهاج، وتحكيم مندور لعبد القاهر في نقد الصورة والتعبيرات الهوميرسية مستقبل في الصفحات التالية – هذا إلى ثلاث مقالات لمندور عن الجرجاني فـي "الميزان الجديد". وللعشماوي مقارنات للجرجاني بـ "كولردج" وآخرين في قضايا النقد الأدبي والبلاغة، وللزميل أحمد الصاوي ماجستير فيه بإشراف الأستاذ الدكتور هدارة بعنوان "النقد التحليلي" عنـد عبـد القاهرة الجرجاني أودعت مكتبة كلية الآداب سنة ٧٢، ويراجع كتاب الدكتور مرزوق "شـوقي وقـضايا العصر والحضارة ص ١٤٣ – ١٥٦ وكتاب الدكتور عفت الشرقاوي "بلاغة العطف في القرآن الكريم – دراسة أسلوبية/ ٨١ بدار النهضة العربية ببيروت – الفصل الأول "نظريـة الـنظم وقـضايا الإعجـاز البياني".

ومن حيث التيارات السائدة، فثمة تيار العبث الخلقي عند بشار وأبي نواس – وتيـار الزهـد والتقشف عند أبي العتاهية، ومن نحا نحوه.

أما من حيث الاتجاه الفني، فلدينا – ابن الرومي ومدرسته– شعر الفكرة لأبي العلاء، وهكذا.

وهذا النقد المنهجي الذي وجِدَ متفرقًا عند العرب، وأفسده على متأخريهم سوء الأخـذ عـن أرسطو وغيره، يمكن أن (بل لا بد أن) تتحقق الدراية الجيدة به قبل (أو إلى جانـب) دراسـتنا للمناهج الغربية، لكي تتعمق خبرتنا بالنقد كعلم، ولكن نهتدي إلى استخدام ما يصلح منه لكل فن أو اتجاه على حدة.

أما خطة مندور في الانتفاع بالترجمة، فمنها ترجمتاه لمنهجي ج. لانسون، وأنطوان مابيه في الأدب واللغة.

وبحث لانسون (١٨٥٧ – ١٩٣٤) محاولة منه لمقاومة الأهواء التي سادت النظر في الأدب الفرنسي في وقته، ونزعة الكسل التي عاقت الأدباء الفرنسيين عن الإجادة ودفعت بالبعض إلـى الخوف من النقد.

وهو يتجنب مبالغات تين العلمية والنفسية ويستفيد من روحه كما يلم ببعض مبادئ – التحقيق الأدبي كالمأثورة عن قدمائنا [1].

فلقد أعلن أن منهجه التاريخي لا يكن بغضا لغيره من المناهج أو المذاهب بل يستفيد منها. ثُم بين لانسون العلاقة بين التاريخ العام وتاريخ الأدب ونبه إلى بعض صعوبات المـنهج، وبـين الحاجة إلى العلم بعد أن قدم تحذيره من المعادلات العلمية والتراكيب الكيميائية.

وكذلك دعا إلى أن يكون لنا ذوقان: شخصي يتخير المتع والكتب واللوحات التي نحيط بهـا أنفسنا، وتاريخي نستخدمه في دراستنا، وهو ما سماه (فن تميز الأساليب) أو تذوق كل مؤلف في أسلوبه بنسبة ما في ذلك الأسلوب من كمال [2].

ثُم بين لانسون أهمية الطبيعة والبيئة باعتبارهما مجالين يحيطان بعين المؤلفات، بل يمهـدان لها السبيل، ويعملان على تخطيط اتجاهاتها والتعليق على متونها، يبينان عـن تكـون مراحـل الانتقال بينهما وتوضيح مصادرهما ومدى تأثيرها؛ حيث إن العبقرية بنت زمانها وناشئة عنـه، إلا أن تأثيرها يبقى وبعد زمانها.

وكذلك فإن الكتاب الممتاز عادة يأتي بعد كتب أخرى لا بد أن ندخلها في حسابنا؛ حيـث إن المؤلفات الميتة نفسها ضرورية في تحقيق أصالة الكاتب الكبير وتجويدها.

---

(1) راجع "تين" فيما سبق، وانظر ص ٢٠١، ٢٠٢.

(2) النقد المنهجي عند العرب ص ٣٩٥ – ٤٠٨.

وقد بين وجه الصعوبة في البحث في المبادلات، وكيف يؤثر الأدب في إحداث (ثورة) فوهم كبير أن تعرض – دفعة واحدة – لتأثير مجموعة من المؤلفات على مجموعة من الوقائع. فتبين أوجه حقيقة تأثير الأدب في الثورة (الفرنسية) لا يمكن أن يدرك إلا عندما تكون قد رصدنا فـي صبر المبادلات العديدة التي حدثت بلا انقطاع بين الأدب والحياة لمدة (عاد بها لانسون إلى سنة ١٦٨١ وامتدت إلى سنة ١٧٨٩) ليتمكن من النظر في عدد لا حصر له من التأثيرات الجزئيـة في عدد لا حصر له من النفوس الفردية خلال أكثر من قرن وحتى تسرب هـذا الفـن الكامـل ورسب في طبقات مختلفة وبنسب متباينة في الوعي الجماعي للأمة الفرنسية، وظهر في طريقة استجابتها للوقائع.

وقد استقرأ لانسون الأخطار التي يؤْتَى من قِبلها منهج الباحث، وهـي الكـسل أو النظـرة المنطقية – أو العلاقات غير الصحيحة – أو الإسراع في تقدير الوقائع – أو الخطأ في استخدام المناهج الخاصة (يستخدم هذا فيما لا يصلح له إلا ذاك). ثُم المبالغة في قيمة العمل أو ما يـصل إليه الباحث من نتائج.

ثُم ختم لانسون ببيان طريقة تقسيم العمل وأخطاره والعناية بالعبقريات والفلتات، وقنع للمنهج بأن يثبت ويحقق، واعتبر المنهج التاريخي أداة سلام [1].

على أن مظهرا للقاء الصحيح في عقل الأستاذ الدكتور محمد مندور بين النقد العربي والنقـد الغربي قـد تجـاوز مجـرد الترجمـة والتخطـيط للتـاريخ النقـدي إلـى محاولـة تنـزع عن خبرته بالنقد المنهجي عن العرب، ويشتم منها رغبة في الاستئناس بتطبيق المعايير النقديـة العربية على بعض الأدب الغربي. ويمكن أن نعد هذه محاولة رد دين للعطاء النقـدي الغربـي السياقي الأسلوبي.

هذه هي معايير النقد الذوقي اللغوي في نظرية النظم، وقد أُحيِيت حديثًا في بعـض التـراث العربي تحت اسم علم التراكيب، وطُبقت هنا وهناك على نحو موضوعي نرى أنه خـدم النقـد العربي والمنقود الغربي في آن، ووضع علامة رئيسية على طريق الأدب العالمية.

ففي الوقت الذي كان فيه النُقاد والدارسون يتناقشون في جميع الآداب القديمة والحديثة حـول لغة الشعر وبعض الخصائص التي يميزها.. عن لغة النثر، تناول الدكتور مندور قضيتين مـن قضايا هذا النقاش أولاهما: "قضية الصفات الشعورية" على ضوء آخر ما وصلت إليه دراسـات النقاد ومؤرخي الأدب في الصفات الهوميرية.. في الإلياذة والأوديسة. وثانيتهما: قضية "التعبير الرمزي" في الشعر والحكم عليه من وجهة نظر الأصول المفردة في علم البيان.

(1) النقد المنهجي عند العرب ص ٤٠٩ – ٤٢٣.

لقد رأى الباحث أن بعض علماء الإغريقيات يسمون.. الصفات التي يصف بها هـوميروس أبطالـه "صـفات ماهيـة épithédes de nature؛ أي إنهـا صـفات دائمـة ملازمـة قـصدا أو إسرافًا كما رأى الباحث أنه قد ساد فترة طويلة من الزمان اعتقاد بأن هوميروس كان يستخدم هذه الصفات لضرورة الوزن، ويستدلون على ذلك بأنه كان يغير الصفات مـن موقـف إلـى موقف.

رأى الدكتور مندور أن الأبحاث الحديثة قد قضت على هذه الآراء؛ فالصفات الهوميرية كانت تلعب دورا بلاغيا ينم عن صناعة فنية محكمة "على نحو ما نحس مثلاً في الخطبة التي ألقاهـا أخيل في جند الإغريق بعد أن احتدم النزاع بينه وبين ملك الملوك القائد العام أجـاممنون، وقـد أخذ أخيل يحس بالخطر الداهم الذي يهدد الإغريق كلهم من جراء هذا النزاع؛ فأراد أن يـصفيه ونهض يخطب في الجند. وفي خلال هذه الخطبة لا نراه يذكر اسم أجاممنون إلا ويردفه بإحدى الصفات.. فيقول "أجاممنون" سيد المحاربين"؛ وكل ذلك لكي يوحي بالروح التي يـصدر عنهـا وهي روح المسالمة "ورأب الصدع". ومثل ذلك في شواهد الدكتور منـدور العديـدة وصـف هوميروس لأبللو على لسان أحد أبطال الإغريق بأنه أبوللو القوي وذو القوس الفضي إلخ. إيحاء لهذا الإله القوي أن يستل قوسه، وعندما يدعو إلهة الغضب إيزيس بأن تسرع إلى الانطـلاق لا يقول لها انطلقي بسرعة بل يقول انطلقي إيزيس السريعة تلطفًا في القـول ومراعـاة لمقتـضى الحال. وهذا من تقنيات علم المعاني العتيدة في العربية كما هو معروف للبصيرين.

ومن هذا القبيل وصفه منيلاس زوج هيلانة التي قامت الحرب بين طرواده وبلاد الإغريـق بسبب اختطاف الأمير الطروادي باريس لها بأنه منيلاس حبيب آريس إله الحـرب يقـصد أن منيلاس هذا كان سبب تلك الحرب ولولاه ما قامت وهكذا.

ولما كانت الرمزية في الأدب الحديث لها عدة اتجاهات[1] فإن ألصقها بفن البيـان أن يكـون التشبيه أي النقل في حالة الرمزية من مجال من مجالات الحواس إلى مجال آخر لامـع شـكلي المجالين (فحسب) بل قد يكون إنما يخدم المجاز على طريقة رمزية جديدة؛ فالسكون لا يوصف بالإشماس ولكن طاغور أراد أن يصفه بالبهجة وفقًا لمقتضى الحال في إحدى قصائده وقد ذكرنا نحن أيضا هذه القيمة في الرمزية في عرض مقارن سريع في نهاية رسالتنا السابقة.

وكالأمر في البلاغة لا يسوغ النقل أو الاستعارة إلا مع وجود وحدة الجامع أو القرينة، وعلى هذا الأساس (يقول الدكتور مندور إنه) يمكن الحكم على كل التعبيرات الرمزية التي شاعت في

---

(1) اتجاه موضوعي كالرمز بأسطورة معينة إلى قضية تشغل الكاتب، أو اتجاه يتصور فيه الأديب أحـداثًا يرمز بها إلى ما يدور في نفسه أيضا. وهناك رمزية التعبير الشعري المعروف في المجـاز (بدرجاتـه المختلفة).

شعرنا المعاصر منذ جماعة أبوللو حتى اليوم.. متى لم تتزاحم الرمزية في القصيدة أو تتنافر[1]. أي إن الدكتور مندور يريد أن نعتبر بالذوقية البصيرة الأخرى في مباحث علم البيـان العربـي أيضا.

د- ويعتبر محمد السباعي (١٩٣١ م) ممثلاً قويما للترجمة عن الإنجليزية، وفيه يتمثـل الاقتراب الصحيح بالغرب، بل إن قدره يتضح أيضا مما عرفَ عنه من مناضلته في سبيل تثقيف نفسه باللغتين العربية والإنجليزية. والثانية على الأقل قد كانـت حادثـة على التعليم في أيامه وكانت الحظوة والأولوية فـي الترقـي والابتعـاث لدارسـي الفرنسية.

وهو أول من عِني بأن يترجم من الإنجليزية طائفة من أسمى ما فـي أدبهـا "تخـرج فـي المعلمين العليا مع المازني وشكري وغيرهما مـن أعـلام نهـضتنا الحديثـة... وقـد كـان من أقدر المترجمين... وأسرعهم وأشدهم جلدا ومثابرة... ترجم مئات القصص و.... العديد من الروايات... ونقله الرائد لرائعة تشارلز ديكنز قصة مدينتين منذ عام ١٩١٢ كان زيادة حقيقيـة لهذا التيار الموضوعي". وكذلك فإن من مترجماته: الأبطال وعبادة البطولة لتومـاس كارليـل، الذي طبعته المطبعة المصرية بالأزهر سنة ١٩٣٠ وإذا نظرنا إلى ما ترجم ألفيناه من خير مـا في أدب الغرب، كما يقول الدكتور عبد العزيز الدسوقي.

"على أن قدرة محمد السباعي الحقيقية تتجلى في الدقة والأصالة؛ فهو من أكثـر المتَـرجِمين محافظة على الأصل كما يقول المازني – ومن أقدرهم أيضا على المحافظة على جزالة اللغـة العربية وجمالها ..." ففضل السباعي يتجلى في السبق، و"في حسن الاختيار، وحسن الأداء؛ حتى لكأن ما ترجم كان قد كتب بالعربية في الأصل" هذا إلى الغزارة التي أغرى غيـره بهـا فـي إنتاجه[2] ودلت كما دلت الإجادة والإصرار فيها على روح العزم والولاء التي نبـه الاحتكـاك بالغرب الطهطاوي إليها في الدين والأدب[3].

---

(1) بحث الدكتور مندور منشور في مجلة مجمع اللغة العربية جـ ١٢، مطبعة التحرير، سـنة ١٩٦٠، ص ١٩٥ – ٢٧١.

(2) بإيجاز وتصرف في الترتيب من مقال د/ عبد العزيز الدسوقي بمجلة الهلال؛ وتقديم يوسـف الـسباعي لكتاب مائة قصة – من ترجمة والده دار الجمهورية ونشر دار الفكر وسمة الغزارة في النقل والإنتـاج مما وقفنا به عند أنيس منصور أيضا ٥٧ ف ٣.

(3) رفاعة رافع الطهطاوي – أبو العزم ص ٤٩ صورته الجسمانية والنفسية ص ٤٨ – الوطن ٥٤، حـب الوطن (مصر) ٥٧ وطهطا ٦٤ وراجع فصلنا هذا ص ٤٤ وكذا ص ٤٨ – ٥٣ والفصل الأول ص ٨ – ١٠.

وقد حظي شكسبير بعناية خاصة، وإن كان الاهتمام بمسرحه قد تأخر بعض الـشيء، وقـد ترجم بعض أشعاره نثرا كل من نجيب الحداد، وخليل مطران، وسامي جريديني، ومحمد عوض محمد.. كما ترجم محمد عفت رواية "ماكبث" شعرا، وترجم أحمد باكثير "الليلة الثانيـة عـشرة" شعرا كذلك. كذلك تُرجِمت عن شكسبير عدة مقطوعات بوساطة عيسى إسكندر المعلـوف فـي "تأبين ماركوس أنطونيوس لقيصر" وعباس محمود العقاد في "فينـوس علـى جثـة أدونـيس"، وقد ترجم اسبيريدون أبو مسعود "فينوس وأدونيس وترجم فؤاد الخطيب "الدسيسة"، كمـا نظـم حافظ إبراهيم "خنجر ماكبث".

أما لغير شكسبير فقد ظهرت ترجمات عديدة أخرى، وفيها: في سنة ١٩٢٥ ما عربه أنـيس المقدسي وهو الذكرى "In memoriam" لتنسون نظما، وهي كما قال – مجموعة بشائر تقع فـي نحو ١٨٥ صفحة، وقد تابع فيها ترتيب الأدوار في الأصل الإنجليزي، واختار لجميعها البحـر الخفيف وهو أقرب الأبحر إلى الأصل.

وفي سنة ١٩٤٤ نشر عبد الرحمن بدوي ترجمة Harold لبيرون في أناشيد نثرية يتخللهـا شيء من الشعر، كما عنِي بترجمة عدد آخر من روائع الأدب الإنجليزي، أما لويس عوض فقد نقل Prometheus unbound وأدونيس لشيللي [١] كما نقل غيرهم أعمالاً لعدد كبير من الأعـلام الإنجليز [٢].

وقد حظيت الاتجاهات الوجدانية بعناية خاصة لدى أدبائنا المحدثين؛ فقد دافعوا عن مـذهبهم بما التمسوه في الأدب الغربي والعربي من شعر يوافق مثلهم الفنية. وتمثـل مختـارات العقـاد الشعرية المتَرجمة في عرائس وشياطين" هذا الضرب الناضج من فن الترجمة واستفادة تلاميـذ العقاد من هذه المجموعة يتجلى فيما ذهب إليه سيد قطب من نظريته "الفطرية" في النقد، علـى نحو ما نعرضه منها في الاتجاه النفسي.

أما الاتجاه الفلسفي فقد وجد في الدكتور زكي نجيب محمود الحاصل على درجته للـدكتوراه من جامعة لندن فارسه المجِد، فمن بين ثلاثين مؤلفًا ومترجما بعضها في عدة أجزاء لـم يخـلُ إنتاج منذ سنة ١٩٣٥ إلى مشارق الخمسينيات من اهتمام بالفلسفة والحضارة، وهو بعد من أشد المخلصين لوجهة النظر الغربية في تناوله لمسائلها بصفة عامة، ومنهـا المـسائل الاجتماعيـة والعلمية والسياسية والتاريخيّة [٣].

---

(1) الاتجاهات الأدبية لأنيس المقدسي.. ص ٢٧٩ – ٣٨٥.

(2) منهم ملتون وبايرون، وكيتس ولو نفعلو وبتار وشيللي وروزنتي ورث وتنسون وجراي وهاردي وكيلنج وماسيفيلد وتوماس مور، وسواهم.

(3) ومترجماته عن الإنجليزية – بخلاف ما تعلق فيها بالفكر اليوناني تشمل:

- الأغنياء والفقراء تأليف. هـ. ج. ولز جـ ١ نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧.

=

أما محصلة نظره لتطور التاريخ فأخذه بالتقسيم الغربي باعتبار أن الأثر السائد هـو محـور اهتمام الفلسفة، وهكذا قسم التاريخ إلى:

- عصر الأخلاق حيث سادت المشكلة الأخلاقية عند اليونان.
- عصر الدين حيث سادت المشكلة الدينية في العصور الوسطى.
- ثُم عصر العلم حيث سادت المشكلة العلمية في هذا العصر * .

بيد أن فكرة التطور لديه مشوبة بنظرية الطفرة، ومن ذلك قوله: إن ثمة "فجـوة.. تفـصل.. المائة سنة الأخيرة عما سبقها".

وبطبيعة الحال فإن هذا الرأي لا يصدر عن ملاحظة العوامل التي لا بد أن تكون سببية. في هذا التطور الذي نهضت عليه المدنية الغربية؛ أي إنه بدلاً من أن يبني على المقدمات بنى على النتائج، وهي في رأيه "زيادة.. الحصيلة العلمية، وللاعتماد على العلم في جميع المناشط الفردية

- الأغنياء والفقراء تأليف. هـ. ج. ولز جـ ٢ نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣.
- نشأة الحضارة ل ول ديورانت تأليف. هـ. ج. ولز جـ ٢ نشر لجنة التأليف والترجمـة والنـشر ١٩٥٠.
- اليابان تأليف. هـ. ج. ولز جـ ١ نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١.
- تاريخ الفلسفة الغربية لبراتراند راسل جـ ١ نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٤.
- تاريخ الفلسفة الغربية لبراتراند راسل جـ ٢ نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٥.

ومما نُشِرَ له من تعريفه بفلاسفة غربيين وأفكار وتجارب غربية في: نظرية المعرفة ١٩٥٥ – أيام فـي أمريكا ١٩٥٥ – برتراند راسل ١٩٥٦ – حياة الفكر في العالم الجديد ١٩٥٦ – ديفيد هيوم ١٩٥٨.

ومن كتبه ذات الاتجاه العلماني الغربي: شروق من الغرب ١٩٥١ المنطق الوضعي ١٩٥١ قصة الفلسفة الحديثة جـ ١ قصة الفلسفة الحديثة جـ ٢ قصة الفلسفة الحديثة جـ ٣ ١٩٥٢ خرافة الميتافيزيقا ١٩٥٣ – نحو فلسفة علمية ١٩٥٨.

وتعد ترجمته "لآثرت الحرية" للرافتشنكو" سنة ١٩٤٩ صدى متأخر للاهتمام العالمي والمحلي بقـضية الحرية. وكتيبة جنة العبيط أراد المقالة طبع ١٩٤٧.

* للغربيين للتاريخ المعروف تقسيمات أخطر من هذه، ومنها تحليلهم للتاريخ فمن ست مراحل بدل الـثلاث المذكورة:

1) The Age of Belief: The medivial philosophers: St. Augustine Abelard, St. Baranid, St Thomas Aquinas, Dunsscotus, William of ocham.
2) The Age of Reason – 17 th Century: Bacon, Pascal, Hobbes, Galileo, Descartes, Spinoza, Leibnz.
3) The Age of English terment – 18 th century: Berkeley, Locke, Hume..
4) The Age of Revolution, 1789 – 1848 (dual…: Industrial and poletical).
5) The Age of Ideoiogy – 19 th Century: Aiken–Kant Fichte Hegel, Schopenhauer, Comt Mill, Speneer, Marx, Nietzche Kirkegaard.
6) The Age of Analysis – 28 th Century: Perice, whitehead, James Dewy, Rassell, Wittgenstein, Croce, Berogson, Sartre, Santayana.

والاجتماعية .. [1] ولا نستبعد أن يكون لمثل هذا المنطق المقلوب أثره الذي منيت بـه بعـض آراء مفكرينا ممن ألمحنا إليهم، وفي التعبير تجوز على الأقل من الدكتور زكي نجيب محمـود؛ وما مر من قول روزنتال بتكامل الحضارات أصوب**.

فمنطقه هذا ليس بالمنطق الأرسطي "الثوري بطبيعته الذي ينزع إلى البحـث فـي الـسبب والسببية، وهذه السمة أو العناصر التي تحدد الكائنات (باعتبارها) لا تخرج عـن المـادة التـي تتكون منها الكائنات.. وعن الشكل الذي تتخذه وعن المحرك الذي يحركهـا، وعـن الغايـة أو السبب النهائي "الذي يحرك العالم نحو الخير، وهو قوة ا المتفردة بالكمال" [2] ولا هـو مـن منهج "تين" الذي يدابر أرسطو ليحاول أن يصل من طريق دراسـة المـادة وتحليلهـا العلمـي إلى عنصر الحياة الأول، ولا هو منهج لا لاند الذي يرى الأمر في الآداب والفنون يميـل إلـى التراجع نحو الوحدة خلافًا له في العلوم كما مر بنا، وهو بعد بعيد كـل البعيـد عـن النظـرة الخلدونية في العمران، وعن النظرية الدروانية في الأحياء، ويبدو أن الفلسفة بسبب ذلك وبسبب تأخر مجهودات تأخر للنشار وعثمان أمين وغيرهما: لم تكن الفلسفة فاعلة بالدرجة الواجبة فـي فترتنا *.

وعن الإنجليزية في النقد خاصة ترجم الدكتور محمد مصطفى بدوي مبادئ النقد الأدبـي ل ريتشاردز جـ ١/ ١٩٢٨ وجـ ٢/ ١٩٦٣ والعلم والشعر لريتشاردز أيـضا. وكـذلك تـرجم "الحياة والشاعر" "لستيفن سبندر"، وهو في علاقة الأدب بالسياسة والشعر والتأمل ل "روزبريفور هاملتون". وكتاب د. بدوي عن كولردج عبارة عن دراسة ونصوص مختـارة اسـتمدها مـن صحيفة الصديق التي كان كولردج يصدرها بالاشتراك مع "وردز ورث"، ومن كتـابي "سـيرة أدبية Biographia Literaria"، و"عون على التأمـل Aids to Reflection" ل "كـولردج" نفـسه ١٩٢٥ م.

وتكتمل بترجمته المتأخرة لـ "الفكر الأدبي المعاصر" لجورج واطسن ط ١٩٨٠ وجهة نظر له في الترجمة نوجزها في أنه قد كان هدفه منذ سنين أن ييسر للقارئ العربي الـذي لا يـتقن الإنجليزية الاطلاع على بعض المؤلفات الهامة في النقد الأدبي في هذا القرن كلما أتاحـت لـه

---

(1) نحو فلسفة علمية ط الأنجلو ١٩٥٨ ص هـ.

** راجع ص ٦٠ بالدراسة.

(2) كتاب الخطابة لأرسطوطاليس – ترجمة وتحقيق د. إبراهيم سلامة ط ٢ الأنجلو سنة ١٩٥٣ م، ص ٥، ف ٣.

* نشأة الفكر الفلسفي لعلي سامي النشار يؤصل للمنهج الاستقرائي والفكر المنـتج فـي الإسـلام، وفلـسفة الجوانية للدكتور عثمان أمين تأخرت إلى سنة ١٩٥٤. ورغم التوجه بالجوانية إلى إعلاء قيمة الضمير فإنهـا – شأنها شأن ديمقراطية خالد محمد خالد الإسلامية – لم تلقَ ما تستحقه من رجال الثورة الدين.

ظروف الحياة وغايته من تنويع مترجماته أن يمكن القارئ من تكوين فكرة متزنة عن النقد الغربي فحين ترجم لريتشاردز "مبادئ النقد الأدبي" رأى من واجبه ترجمة "الشعر والتأمل" لمعارضة هاملتون. أما ترجمته "للفكر الأدبي المعاصر" فلما في الكتاب من انتقاد غاضب على النزوع الفرنسي الدائم الحافل بالمودات [1]. أو البدع في ميدان الفن والنقد [2]. كما يتضمن هجوم واطسن على نظرية الشكلية والبنيوية التي عدها أيضا من البدع التي تدعي القدرة على تقديم تفسير شامل للأدب والحياة حين ظهرت في الخمسينيات وانتقلت عدواها إلى بعض البلاد إلى أن حالت وماتت سريعا بمجرد إعادة تشومسكي الحياة لدرس اللغة في ضوء النحو بمفهومه الصحيح.

والكتاب وإشاراتنا الموازية موعزات بالعودة لنحو من المذاهب البياني في الأدب، ولا سيما أن بالكتاب فصلاً يحاول فيه المؤلف تأكيد القيمة والجدوى في دراسة الأدب دراسة موضوعية بعيدا عن المنحى الجدلي الصرف، وذلك بالإقرار بالقيمة العملية للدراسة الأدبية دون التعالي عليها.

وقد دل المؤلف على مجالين للبحث الأدبي "يمكن للمبتدئ أن يحاول أن ينجز فيهما شيئًا، وهما مجالا تحقيق النصوص، وتعليم اللغة (الإنجليزية) في ضوء النصوص الأدبية [3] وهما مجالان لعمل أناس يرون من واجبهم أن يكونوا ذوي فائدة للأحياء، ودعا العقل النقدي أن يتبع العقل الإبداعي في هذين الاتجاهين دون الوقوف عند مرحلة الانتشاء التقارني، وذلك لما تطلبه من جعل "دراسة الأدب الإنجليزي تقوم على قاعدة فكرية عقلانية، وأن تعلن عن أهداف لها تبدو فائدتها جلية" [4].

وهكذا قد بدأت الترجمة عن الإنجليزية "بمحاولات عصامية جادة عند السباعي، ووجدناها تعطي دفعة لحركة البعث الوجدانية، كما بزغت من خلالها محاولات للنظر النقدي الفلسفي، كما تكامل فيها للنقد خطة تبدأ بالتصور الحدسي للفن وتستفيد من التحليل العلمي والنفسي كما تجعل للدرس الأدبي نفسه غايات عملية إلى جانب غايته الجمالية.

---

(1) مقدمة المترجم ص ٧ – ٩ من "الفكر الأدبي المعاصر"، ودراستنا ص ٣٠٠.

(2) فصل النقد الجديد الفرنسي ص ٧٥ – ١١٥ "الفكر الأدبي المعاصر. وراجع ملاحظتنا على أحمد كمال زكي في رسالتنا السابقة ص ١٣ (آخرها) أو الفصل الأول منها في عمومه، وكذا هجوم بابيت على الرومانسية والعلوم في شبه منحى البيان العربي في الربأ بالأدب عن ضعف المولدين وتشدد النظامين وتشديد العلماء في الاتجاه الاجتماعي (الإنسانية الجديدة): بين الطراوة والجفاف، ص ٢٨٨، ف ٤.

(3) الفصل الأول والأخير ص ١٥٧ – ١٨٦ أفكار لجدول أعمال أو ص ١٧١ خاصة.

(4) نفسه ص ١٨٦.

ولا شك أن هناك ترجمات أخرى من لغات شتى، ولا سيما الروسية وسترد نبذة عن جوركي بين أمثال له غربيين وكل ما نقل منها جميعا إلى اللغة العربية في الخمسين سنة الأخيرة (في) بابي العلم والأدب (ليؤلف) مكتبة كبيرة جدا[1].

والنمو المطرد للترجمة عن اللغات العالمية يظهر بشيء من المقارنة، فقد بلغ ما نشرته مطبعة بولاق بين ١٨٢٢ – ١٨٤٢ (٢٤٣) كتابا، كما بلغ ما جمعه أمين دار الكتب في بيروت من القصص المتَرجم من شتى اللغات ١٠,٠٠٠ قصة[2] ومع ذلك فإن الأثر الكيفي للترجمة من القصص الغربي في الأدب العربي قد كان مختلفًا عن ظاهر الكم فيها.

٣-١ لكن تقييم نقدتنا لدور الترجمة أو أثرها (الترجمة أو أثرها) في الأدب العربي الحديث يختلف ويتناقض حتى ليترك لنا مجالاً لبعض رأي نراه في ذلك.

* فقد بدت – للدكتور أحمد كمال زكي – المحاولات التي قامت مجلتا "البيان" ومن بعدها "القصور"، ومترجمات "المقتطف" المحتجبة و"الهلال" القديمة صرخات تضيع في واد، ولم تدفع أحدا إلى أن يركز على النقد فظل انطباعات متنافرة وأفكارا ملفقة تعجز في كثير من الأحيان حتى عن أن تفرق فنيا بين الوجدان والخيال وذلك إلى عهد جعل بدايته أحمد أمين حتى وضع الخولي خطته الشاملة في النقد، وظهور من أسماهم بالشبان الواعدين من تلاميذه. أما الأدب، فقد بدا للناقد كذلك أنه منذ ذلك الحين تنبه أدباؤنا إلى خطورة الوقوف عند مرحلة البلاغة التي تعني أكثر ما تعني– على حد قوله – بالشكل... على افتراض حضور المعاني [3].

- بينما بدا الأمر للدكتور لويس عوض بأنه قد كان ذا أثر قوي فعل فعله في المجتمع المصري، وحرك ثورته سنة ١٩٥٢، وهو الأثر الذي أرجعته الأستاذة بنت الشاطئ إلى عوامل أوصل رحما بالمجتمع المصري، وخاصة في ريفه، وكذلك هونت من أثر الترجمة والمثقفين الغربيين عموما، رغم ادعائهم قيادة المجتمع وتحقيق الثورة [4]. ودعمت رأيها بإحصائيات وأسانيد قوية. منها الثابت من شيوع كتب طه حسين وهيكل الإسلامية وتفضيلها على مترجماتهما.

---

(1) الاتجاهات الأدبية ص ٣٨١.

(2) نفسه.

(3) النقد الأدبي الحديث – أصوله واتجاهاته ص ٣٠ – ٣٦ ويراجع "تطور المذهب الكتابي العربي الحديث عن أصوله في التراث بدفاع عن البلاغة ص ١٢٥ ورسالتنا للماجستير ص ١٧٥ – ١٧٧، ومصورة مقارنة لذلك بملاحق الدراسة.

(4) قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر ص ٢٨٥ – ٣١٤.

- **وأما أثر الترجمة في أشكال أدبية بعينها فقد قال الزيات:**

ولو شاء ا لأدبنا الكمال من نقصه لألهم المتَرجِمين في عصر المأمون أن ينقلوا روائع الأدبين الإغريقي واللاتيني من الشعر والقصص والروايات والملاحم كما نقلوا العلم والحكمة"[1]، ورأيه هذا يدل على شعور بالنقص راود جيله حتى دفعهم إلى محاولات عديدة لسد هذا النقص كالذي فعله الزيات في كتابه "في أصول الأدب"؛ فقد ضمنه محاضراته في العراق واستفاداته من المستشرقين وغيرهم. والكتاب يعرف بعلوم الأدب المختلفة وبمفهوميه العام والخاص ويقدم تفسيرا له في ضوء الاجتماع والأديان والبيئة وغير ذلك، كما يعنَى بالتعريف بالفنون الغربية والعربية التي تماثلها أو تباينها، كما يضم الكتاب ترجمات لبعض الشعراء كما قدم تاريخًا لألف ليلة وليلة اعتمدت عليه دائرة المعارف الإسلامية ووطدت شهرة الزيات، وذلك ضمن خطة أدبية شاملة اكتملت للزيات معالمها خلال تحريره "الرسالة" و"الأزهر" فيما بعد [2].

وفي مجال التأصيل للفنون الموضوعية فإنه يُذْكر له أنه أضفى الشرعية على الملاحم الشعبية وتطبيق الدرس النقدي عليها مما فتح الباب لسهير القلماوي وعبد الحميد يونس وأحمد رشدي صالح، وساعد على تكوين تيار أكاديمي معني بدراسة التراث الشعبي وإخراجه إلى النور. ومنه ما أوردناه من دراسة عرضت حديثة للأوزان الشعبية ضمن كتاب موسيقى الشعر وغيره، ثُم إن من رأي الأستاذ الدكتور محمد مندور في ذلك، أن فن الملاحم انتقل بعد العصر القديم من الأدب الفني إلى الأدب الشعبي، ثُم انتهى به الأمر إلى الاختفاء، فلم تعد الإنسانية تبتكر ملاحم جديدة، وإن ظلت تطرب للملاحم القديمة. أما تجريب عمل ملاحم جديدة في أدبنا فإنما هو ضرب من المجازفة التي تتنافى مع حقائق الأدب المعاصر، بل حقائق النفس الإنسانية " ذلك أن الأستاذ الدكتور مندور لا يظن أن أحدا منهم يستطيع أن يهيئ في نفسه تلك الطفولة الغضة والسذاجة الساحرة التي يكمن فيها جمال الملاحم القديمة [3].

- ويرى الدكتور مندور كذلك أن أثر الاتصال بالغرب في شعرائنا المجددين من أمثال "عبد الرحمن شكري وإخوانه من رواد التجديد في شعرنا العربي المعاصر ينحصر في مجرد (أنه) ردهم إلى المعنى الاشتقاقي الخالد للفظة "شعر" في لغتنا؛ ومن هنا كان التقاؤهم.. الغريب

---

(1) مجلة الرسالة جـ ٤، ص ١٧٢٢.

(2) كتاب الزيات في أصول الأدب ط الرسالة – واعتباره قصة عنترة ورسالة الغفران ملحمتين، ودعوته لاستكمال النقص في الأدب العربي بالأشكال الغربية في ضوء الرسالة ص ط، وكذا ص ٥٣٩، وكتاب قمم أدبية للدكتورة نعمات أحمد فؤاد ص ٢٢٨، ٢٢٩ ورسالتنا للماجستير: نهجه الأدبي وخطته الأدبية الشاملة ص ٧٠ – ٧٥ و(ب) من ص ٧٣ خاصة.

(3) فن الشعر ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٢.

مع الرومانسية وسيلي قبول الرافعي المماثل لذلك، كما سيلي تقرير إبراهيم أنـيس بـطء تـأثر موسيقى الشعر بالتجديد [١].

- والواقع أن عبارة العقاد التي أوردناها صدد حديثنا عن مدرسة الديوان عن فضل النـشر والترجمة في تعريف الناشئة مزية الكلام البليغ تظهر لنا أثر الترجمة معـادلاً لأثـر الإحيـاء عندهم.

- وهو أثر استبعد منه العقاد مذاهب الهزل الأوروبية كما استبعد جديـد الأوزان والقـوافي لاستغناء العرب بما لديهم عن كل ذلك وهو مما لا يقتصر على أمة دون أمة. ثُم إنه أيضا لم يرَ المذهبية الجادة في الغرب تخرج عن حدود الطبيعة الإنسانية في كل الأمم والأجيال ولكنه ذكـر آثارا محمودة للمذاهب الغربية كما عرضنا رأيه ورأي غيره فيها في الاتجاه الاجتماعي، وهـي آثار رآها انتقلت إلى الشعر العربي وصور التعبير الأخرى منذ أواخر القرن التاسع عشر إلـى أواسط القرن العشرين، قال:

- "فإننا إذا عرضنا الشعر العربي (وذكر هذه).. لم نخطئ أن نرى فيه أثـرا جديـدا لكـل مذهب من المذاهب الواقعية أو المثالية أو الطبيعية أو الاطرادية الحديثة أو الابتداعية المتحررة، وقد تتراءى هذه المذاهب في أغراض الشعر كما تتراءى في أساليب الشعراء ومنها الأغـراض التاريخية والاجتماعية والملاحم والمسرحيات والأغاني العاطفية والأناشيد القومية. ولكل مقصد من المقاصد التي ينظم فيها شعراء الغرب، مع الفارق "(في) الزمان والوفرة. وسعة النطاق" [٢].

- هذا في مجال التأثر الأدبي بالغرب وهو من فعل الترجمة والاتصال الثقافي على العموم، أما في مجال الإحياء فقد كان الأثر مواكبا لذلك، وهذا هو الإحياء أو "الارتداد" الذي كشف عنه الدكتور عبد العزيز الدسوقي في كتاب محمد سعيد "ارتياد السعر في انتقاد الشعر" الذي نـشره منجما في "روضة المدارس سنة ١٨٧٦ [٣] مواكبا لحركة البعث الأدبي العامة [٤]. فمحمد سعيد إذن هو الذي أثار شوق الباحثين إلى التفتيش عن نقد الشعر" ولعله أول من استخدم.. المصطلح "انتقاد الشعر" قبل نجيب الحداد ويعقوب صروف والمويلحي وغيرهم من رواد نقدنا الحديث [٥].

(1) فن الشعر.. ص ٢٩، ٣٠ وراجع تفسير الرافعي اللغوي لكلمة شعر أيضا في الاتجاه البيـاني ومباينـة أنيس بين الشعر وبين الموسيقى في درجة التأثر بالغرب وبالشرق ص ٣٣٨ وتحصيله العلمي الإحصائي لظاهرة وقوع التجديد الموسيقي في الشعر الجديد في نفس إطار العروض القديم ص ٣٥٠ (آخر فقرة).

(2) مؤتمر مجمع اللغة العربية الدورة السادسة والعشرون ١٩٥٩ – ١٩٦٠ ص ٣٨.

(3) ابتداء من العدد السابع عشر السنة السابعة، وراجع الاتجاه النفسي.

(4) تطور النقد العربي الحديث في مصر ص ٣١ وراجع الاتجاه البياني.

(5) نفسه ص ٣١، ٣٢، وانظر الثلاثة المؤرخين للأدب في قائمة وافية بالاتجاه التاريخي، وراجع ترجمـة محمد سعيد عن كورني، ص ٦٣.

ولم يقتصر على الشعر، بل تحدث عن الرواية والرواة على ضوء نظرة تاريخية محددة فتحت الطريق فيما بعد – أمام الرواد الذين درسوا الأدب بالمنهج التاريخي أمثال محمد دياب ومصطفى صادق الرافعي وجورجي زيدان، بل إنه (سبق) إلى تحديد "عملية الإبداع الشعري وربطها بالمحيط الاجتماعي والإطار الثقافي".

- ومعنى هذا كله أن الترجمة كانت من عوامل بعث القديم والتذكير بفضله في إطار حركة الإحياء العامة شأنها في ذلك شأن معظم عوامل الاتصال غير القسرية بالغرب، ولو أن حفيفها كان يغطي على بعض أصوات عربية حية عذبة ويحجبها في بعض الأحيان، ومما لا شك فيه أن الأثر الرومانسي كان كبيرا، وكان قد بلغ مبلغ الخطورة حتى تُصدي له بفكرة الشعور "العربية"، لكن أضرار التقليد لبعض الأدب الواقعي الغربي وعراك الشعوريين للرومانسيين مستقبلان في البحث.

ه- لكن الأمر يزداد غموضا وغرابة عندما نجد سيد قطب يكاد يدين بالفضل للترجمة عن الأدب الوجداني الغربي في معاونته على إدراك دقائق وظلال الجمال الفطري في القرآن الكريم، ذلك الجمال الذي ذكر أنه يندر في الأدب العربي كله، ما أوضحنا في تنظيمنا لآرائه في صورتها التكاملية التي أوردناها عليها في بحثنا لمجهوده النقدي في الاتجاه النفسي.

- ويحوجنا الأمر إلى الخروج من الدائرة المصرية هنا أيضا لكي نلم برأي محدد للدكتور أنيس المقدسي في أثر اللغات الأجنبية في الأدب العربي الحديث، فقد رأى أنه حقًا قد نشأت في بعض البيئات العربية طبقة تكاد تنقطع الصلة بينها وبين لغتها.. وتاريخها.. فلم تساهم.. في حركة التجدد القومية التي يمتاز بها عصرنا. ولكنه قد قام بهذه الحركة فريق آخر جلهم من الذين قرنوا دراساتهم للآداب الإفرنجية بتوفرهم على درس أدبهم القومي والمحافظة على أساليبه اللغوية، وذكر أن التجدد نما نموا سويا، له في النثر وللشعر ظواهر عامة أهمها:

في النثر: تجدد الأسلوب الإنشائي.

تطور الفنون الكتابية.

فن الشعر: التصميم الفكري أو المحافظة على الوحدة في النظام والتسامي الخيالي أو توخي الروعة البيانية.

حرية الإخراج أو التفنن في أساليب التعبير.

- وفيما مر من مدلول الارتداد أو الإحياء وكيفيته عند أدبائنا المصريين تخصيص للعموم البادي في قوله "تحدد" و"وحدة" وغير ذلك. ولكن قوله: "تطور الفنون الكتابية" و"حرية الإخراج" إذا كان يقصد به ما استعير من أشكال في التعبير الأدبي الغربي كالقصة و"الرواية والملحمة مما قد لا ينَازع طويلاً في نسبته إلى الغرب فإن المنازعة إنما تثور حول المدى الذي بلغه أدباؤنا

من الإتقان في الأثواب المستعارة سيما وأن الإقبال على الثقافة الأدبية الغربية قد حـاف علـى بعض جوانب من الثقافة العربية، حتى في نفوس الدينيين بها (1).

- وقد مر بنا قول الدكتور مندور بفشل أدبائنا في محاولات إنشاء الملاحم، فما مدى توفيقهم في اصطناع الشكل القصصي الحديث، وما مدى قربه أو بعده من فنـون العـرب القصـصية المعروفة؛ مقامات ورموز حكوية ورسائل قصصية ونحو ذلك؟

و- إن ثمة بحثين للماجستير في جامعة القاهرة، يظهران مدى الاهتمام بفنـي المقامـة والتعلق بها في البحث النقدي الجاد. الأول سجله أحمد محمد الـريس فـي ٢١/ ١/ ١٩٣٨ بعنوان "نشأة المقامات – بحث في المقامات الذبيانية والحريرية، أشرف عليه عبد الوهاب عزام. وقد أُجيز في ٤١/٤٠/١٢/٢٢.

والبحث الثاني سجله مصطفى الشكعة في ٢٦/ ٤/ ٥٠ بعنوان "بديع الزمان الهمذاني تاريخه وأدبه" أُجيز في ٥١/٧/٢ بتقدير جيد جدا بإشراف الأستاذين أحمد الشايب، ومصطفى السقا *.

ولقد ظلت المقامة تتجاذبها وتترافعها أيدي النقاد، وتتعرض أثناء ذلك لسخط الحانقين عليهـا ولغيرة الباخلين بها، وكانت تلقى نصفة وشيئًا من الغبن من فريق وسط وفي جميع ذلـك كـان الجدل يدور على أسلوبها في المحل الأول، ثُم على أفكارها في المحل الثاني، ووجدت الصحف في ذلك مادة لحرب أدبية جديدة ولكنها باردة في أيامنا.

أما اتجاه الأستاذ الدكتور مصطفى محمد الشكعة فيعد المقامة قصة قصيرة ويعد العرب بهـا سابقين للغربيين شأنهم في ذلك شأن آثارهم التي أحصاها في موسـوعته "الأدب فـي موكـب الحضارة الإنسانية" في الشعر والنثر.

ومما نشرته الصحف مؤخرا للدكتور الشكعة "أن المقامات التي كتبها بديع الزمان الهمـذاني هي عبارة عن قصص قصيرة"؛ وبذلك سبق العرب الغرب في كتابة القصة القصيرة "وهو رأي رد عليه الدكتور سيد حامد النساج فقال بأن "القصة القصيرة فن غربي حديث، لم يعرفه العرب من قبل، وأن المقامات ليس قصصا قصيرة بالمفهوم الحديث".

وفي حلقة ثانية عرضت الصحيفة الرأي على ناقدين آخرين. وأولهما الأستاذ الدكتور زكـي نجيب محمود، ولا بد أن القارئ يتوقع رأيه؛ لما سبق عن بياننا اتجاهه فـي طريـق الفلـسفة الغربية. لقد عد المقامة "أدنى إلى أدب المقالة"، ثُم عاد فتساءل لماذا لا نجعل المقامـة العربيـة جنسا عربيا خالصا"؟ ثُم فرق بأن "القصة القصيرة إنما تدور حول حدث واحد، رئيس، تنبثق منه إشعاعات أو نتائج كلها تدور حول ذلك المحور، وأما المقامة و.. من صفاتها الرئيسية "هندسـة

---

(1) المعركة بين طه حسين والرافعي حول أسلوب في العتب ص ٣٩٨ + ويتابع حيف الأثر الغربي علـى المقامات فيما نستقبل.

* سجل رسائل الماجستير والدكتوراه بآداب القاهرة.

الكلمة" (وعد) كاتب المقامة.. بمثابة من يزخرف آنية من النحاس أو يزخرف جزءا من مبنى أو مسجد.

ولم يعد الدكتور زكي محمود تشريفًا للمقامة أن يقال إنها قصة، وكرر بأنه ليس تـشريفًا أن أدرج ما عندنا في مقولات غربية سواء في ذلك مقولة قصصية المقامة أو ديمقراطية الإسـلام. وفي الثانية ذكر أن للديمقراطية حدودا معروفة على مدى التاريخ الغربي؛ وهو قـول مخـالف لتطور الجهاد الفكري الغربي نفسه نحو الديمقراطية في صورها المتعددة على نحو مـا مـسه بحثنا هذا في مواطن منه، وكقوله: ليست تلك الحدود هي التي تمثل في الديمقراطيـة العربيـة الإسلامية.

وواضح أن الفكر الفلسفي كما تمثل في الدكتور زكي محمود لا زال يتحسس طريقـه مـن النظر العام إلى الخصائص الفنية المحدودة، وأن رأيه في طبيعة المقامة أو قيمتها لم يتبلور بعد.

فالمقامة عنده معدودة في المقال مرة وفي الزخرفة أخرى، وفنًا بذاته كرة ثالثـة؛ وتعريفـه للقصة القصيرة لا يحيط بأنواعها وقد كثرت كثرة مفرطة. كذلك فإن عده الرأي المخـالف لـه مفاخرة سواء صح أو لم يصح يدل على عقدة نفسية قد لا تزال قائمة فينا مـن أثـر الـصراع أو المنافسة بين حضارتنا والحضارة الغربية.

أما الرأي الثاني فللناقد الأستاذ علي شلش، ولست أدري أيرجع دقة تحليله وموضوعيته إلـى كونه قد جاء آخِرا في النقاش بحيث استفاد من تردد سابقه، أم لأنه هو ناقد فنـي موضـوعي، ومهما يكن فلقد عمد الناقد إلى السمة القصصية فوجدها شركة في الفنـون العربيـة والغربيـة "والقاسم المشترك الأعظم بينها هو السرد أو القص أو الحكي" [١].

ثُم إنه نظر في ميراثنا القصصي العربي فوجده غنيا "بلا شك"، وهـو ينقـسم إلـى أخبـار وتواريخ ونوادر وملَح وطرائف ولطائف ومقامات وسير وملاحم شعبية، وذكر أن عناصر ذلك الميراث القصصي الفني لا تزيد كثيرا على أية عناصر أخرى في أي ميراث قصصي في أيـة لغة أخرى.

أما الفارق بين القصصيات العربية والغربية فمكمنه التطور كما أن مكمن التطور في الخبرة الحضارية، وهذه ظاهرة صاعدة هابطة أو متبادلة بين الحضارتين، فقد أخذت أوروبا نفسها من

---

(1) هذه السمة كانت ولا زالت أهم مقوم في القصة، وعليها عولت جراد تـشارلز Charles Girda فـي اختيارها ما اختارت من جميع قصص الإنسانية في مجموعة لها. بل الجم الغزير من التراجم القصصية ولا سيما من الشرقيات في جميع لغات العالم والغرب ومجموعة Great short stories of the world – spring books – 1967، ومنهجها في الاختيار مما رأته من السمة الأساسية حـديثًا بدرجـة فـوق العادة من القصص المصري القديم، ومن غيره من لدن اليونان إلى الرومان والمصادر المسيحية فـضلاً عن الهندية والفارسية وجنوب أمريكا والولايات المتحدة إلخ ص X وXI.

العرب في العصور الوسطى، وقبلها الكثير من العناصر الثقافية والحضارية من العـرب، كمـا أخذ العرب من أوروبا الشكل القصصي الذي طورته حديثًا.

كان الأوروبيون- في قوله كما كان العرب- يسمون القصص "حكايات" أو صورا وصفية أو صورا مسلية، بل كانوا يسمونها أحيانًا مقالات، ولم يميزوا بين القصة القصيرة وغير القـصيرة إلا سنة ١٨٨٥ (في تحديده).

أما دافع التطوير عندهم فلم يكن مجرد الهواية أو النزوة، إنما كان ذلك في ظل عـدد مـن العوامل، مثل ازدياد التعليم وحرية المرأة والتقدم الـصناعي، وظهـور المطبعـة، والـصحف والدوريات المختلفة – قال ولو ظهرت عندنا هذه العوامل قبل ظهورها فـي أوروبـا لطورنـا ميراثنا القصصي قبلهم.

وكالذي حاولناه وحاوله ناقد آخر سيلي ذكره من بيان أثر الأسلوب القصـصي القـديم فـي القصص الحديث عندنا في بداياته عند المويلحي ومحمد السباعي، ولمسناه في بعـض أعمـال نجيب محفوظ أيضا، وجد شلش أنه "لا يمكن تجاهل أثر ميراثنا القصصي فيما توصلنا إليه مـن قصص عن طريق الاحتكاك بأوروبا، ومثل بالحالات التي أوردناها عن إبـراهيم سـلامة، وإن كان شلش قد عد بصمات المقامات والأسلوب القديم في رأيه قد تمثلت "فـي سـجع المقامـات والاهتمام بالخبر لا بالشخصية، والاعتماد على السرد دون الحوار" [١] وهو قول يناقـضه مـا تبيناه من أهمية الرمز والشخصية والحوار والقيمة ونزعة الفن للفن في المقامات فـي المطـرد التالي:

وعادة ما يظفر الغرب من التراث الشرقي برموزه الخالدة ثُم هو يتصرف في البنـاء كيـف يشاء ذوق عصره.

ومن أثر ذلك كانت قصة الثعلب المكار The Gunning Fox لرومان دي رينارت "في القـرن الثاني عشر إلى قصص" "كانتري" لـ "تشوسر"، فضلاً عن "جين دي لافونتين" في أمثالـه فـي القرن السابع عشر، فقد مزج لافونتين مادة كليلة ودمنة بنزعة سينكا وأكسبها طعما نقديا لاذعـا [٢] وقد حاول شوقي رد ذلك إلى العربية في رابع شوقياته. ونعتبر رواية استيفان رفـاييج (٢٤ ساعة في حياة امرأة) استحياء لـ أو مثل رمز الحمامة المطوقة في أدبنا [٣].

---

(1) أخبار اليوم ص ١٢/ ١٨/ ٣/ ١٩٧٨ م، "القصة القصيرة فن عربي أم فن غربي".

(2) هذا تأثير ممتد من ق ١٢ على ق ١٧ كما ذكر، وقد ازداد بترجمة توماس نورث "كليلة ودمنة Kalila wa Dimna لأول مرة في الإنجليزية سنة ١٥٧٠ مجلة أهلاً وسهلاً السعودية المطبوعـة بالإنجليزيـة والعربية – عدد ٩ سنة ٧ ربيع أول ١٤٠٤/ ١٩٨٣ وسينكا رواقي مسيحي مـن القـرن الأول ضـمن الرواقية. ويرجع فيهما إلى المادة Stoicism وsynicisam.

(3) استيفان زفاييج/ ٢٤ ساعة في حياة امرأة، روايات الهلال، العدد ١٦٨، ديسمبر ١٩٦٢ م.

=

لكننا وجدنا القيمة التعليمية أو النقدية تقع اتفاقًا حتى في الآداب التي تنزع إلى التعويل علـى المذهب الخاص في التأليف أو حتى على اللامذهب في الكتابة.

ومن ذلك أن "جان بول سارتر" عاد إلى تكرار القول في الغرض من اصطناع القصة والبدء بالبحث فيها عن عالمه الوجودي أو عالمنا البرجوازي.

ففي قصة الغثيان لا يبوء بطلها المثقف الميسور والمنقطع الجذور "أنطوان روكنتان" من حياة الرحلة والفراغ والتسكع في الشوارع البرجوازية والفقيرة، والجولان فـي العـالم والمغـامرة ومضاجعة "سيمون" صاحبة مطعم "رند يفودي شامينو"، وغيرها، كما لم يرجع من حبه وفلسفته الكلامية مع حبيبته المتوقحة "آني" وزميله العصامي المواظب على غشيان المكتبة ذي العقيـدة الشيوعية والتفكير الإنساني الناقص الموبوء الفم الذي افتضح شذوذه في المكتبة ذاتها – لم يبـؤ "روكنتان" من كل هذا إلا بالغثيان والعبثية.

ولم يكن تداوي روكنتان بالاستماع إلى الموسيقى والغناء يجديه إلا قليلاً حتى عدم الـشعور بجدوى مراسيم ومظاهر العبادة وعمليات الإصلاح الاجتماعي والمادي والسياسي.

وإذ يعجز عن أن يبرر "كينونة كائن" يجد الوسيلة المؤثرة في التأليف (لنوع آخر من الكتب) يجعل الناس يحدسون خلف الكلمات وخلف الصحفات المطبوعة "بشيء فوق الكينونـة" حكايـة مثلاً.

والحكاية في رأيه "ينبغي" أن تكون جميلة وقاسية كـالفولاذ، وأن تجعـل النـاس يخجلـون بيكونتهم ويفكرون في حياته، ويقولون: "إن أنطوان روكنتان هو الذي ألفها، لقد كـان شخـصا أحمر الشعر، يتسكع في المقاهي، ويفكرون في حياته كما فكر هو في حياة زنجية، كـان يجـد بعض سلواه في غنائها كشيء ثمين ونصف أسطوري.

ومع أنه يدرك أن كتابه "لن يكون" أولاً إلا عملاً مضجرا ومتعبا فإنه يعلم أنه لن يمنعه مـن أن يكون، وأن يحس بأنه كائن وهو واثق أنه ستأتي لحظة يصبح فيها الكتاب مكتوبا يسقط شيئًا من نوره على ماضي المؤلف ويجعله في كهولته يتذكر عبره حياته من غير اشمئزاز، ويـنجح في قبول نفسه[(1)].

لقد نجح "أنطوان روكنتان" في أن يجعل لنفسه مقاما كمقام "الحارث بن همام" وهدفًا كهدفـه. وهو عين الهدف الذي يستهدفه أصـحاب الواقعيـة الكاشـفة الـذين نـوردهم فـي البحـث -ولن نستثني من ذلك مدرسة الفن للفن- هو هدف الكشف والاعتبار بتعبير عيسى بـن هـشام

- ومن المستفاد العائد مع الترجمة كذلك "العيون اليواقظ في الأمثال والحكم والمواعظ لمحمد عثمـان جلال (١٨٢٨ – ٩٨) شعرا عاميا، عن خرافات لافونتين أيضا.
- وانظر الاستلهام الموفق للرافعي في قصيدته المنثورة (اليمامتان) وسائر القصة ٢٢٤ – ٢٢٨.

(1) الغثيان تأليف سارتر ترجمة د. سهيل إدريس، ط دار الأدب، بيروت، ص ٢٥٠.

بطل المويلحي [1]، ولكن في الفنون الغربية والعربية الحديثة أضحى يستعمل الأسلوب البسيط والتحليل المسبب الموجب للتطويل بدلاً من الأسلوب الموقع.

وفي قصة من قبيل الفيلسوف لمحمد السباعي نجد أن الموضوع واحد رئيس أيضا يحفل بوصف تجربة لشاب يتعاطى الثقافة من الكتب. وهو صورة للمؤلف ابن القاهرة نفسها، وهو إذ يقع في حب جارته في بيئته المحافظة مطلع القرن العشرين يلجمه الحياء، ويأخذه نزوع رومانسي حاد بسبب الفقر والكبت أو العجز الذي أضافه الاحتلال الإنجليزي المهين للبلاد إلى نوازع التأثم والتواري التي زادت في طباع المصريين تحت الحكم العثماني.

ولكن محمد السباعي يعرف كيف يتغلب على كل هذه المشكلات النفسية والاجتماعية باصطناعه أسلوب المقامة الفَكِه الرصين الساخر ضمنه ما شاء له التضمين، والقبس الموفق من شواهد أشعار هي مواقف ومواجد حية أسعفه بها التراث القديم؛ وهكذا كانت قصته الفيلسوف مزاجا من الأسلوب البديعي في المقامات والمنحى الغربي في بناء الرواية، فجمع السباعي الكبير بذلك بين بساطة الموضوع وغنى الأسلوب، وعالج من مشاكل مجتمع القاهرة الخجول الهياب الحديث بمجتمع الحجاز السمح الفقيه معا.

وصحيح أن يوسف السباعي لم يسر على حرفية فلسفة والده الفنية، وقد أخبرنا في جرأة وظرف أيضا أنه سأل زوجه في ذوقها لشواهده من الشعر في قصصه فأفتته بأنها تتخطاها في القراءة إلى سياق القصة النثري، ولكنه هو لم يحرم على نفسه غير محرم في الفن الجميل وإن اقتصد في ذلك لا غير:

جعل محمد السباعي من ابن أبي عتيق (عبد ا بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق) وكان من أفاضل زمانه علما وعفافًا، وكان أحلى الناس فكاهة وأظرفهم مزاحا. ومن عمر بن أبي ربيعة شاعر الحجاز الإسلامي الميسور الغزل إبان الحكم الأموي للإمبراطورية – جعل السباعي منهما في هفو نفسيهما للشعر والنشاط به وإليه، وجعل من تقدير ابن أبي عتيق للعاطفة عنصر إلهامه ومحور الهيامة، بل جعل من ذلك حجة على عصرنا ممثلاً في "عم محمد" خادمه الصديق أو صديقه الخادم في الرواية؛ أورد السباعي له قول عمر المصور لحاله ولشأنهما معا:

قال لي صاحبي ليعلم ما بي ... أتحب البتول أخت الرباب
قلت وجدي بها كوجدك بالما ... ء إذا ما منعت برد الشراب
أبرزوها مثل المهاة تهادى ... بين خمس كواعب أتراب
وهي مكنونة تحدر منها ... في أديم الخدين ماء الشباب
ثُم قالوا تحبها قلت بهرا ... عدد الرمل والحصى والتراب

---

(1) تُنْظَر مقامات الحريري، ط باريس، ص ٣، وكليلة ودمنة، ط التجارية ص ١٤٣، والمقامة ٣٥ للمويلحي (في باريس).

قال (الراوي) السباعي: "إذ لما بلغ أبي ربيعة البيت الأخير صاح ابن أبي عتيق قائلاً: "إياي أراد وبي هتف، ونوه، لا ذقت طعاما أو أشخص إليها وأصلح ما بينهما (واقتبس):

"قال مولى لبني تميم فنهض ونهضت معه، ثُم خرج إلى السوق فاستأجر راحلتين فركب واحدة، وركبت أخرى، وأجد السير، فقلت: ارفق بنفسك، فقال: ويحك! أبادر حبل الوصل أن ينقطع، وما أفلح الدنيا إذا تم الوصل بين عمر والثريا".

فلما بلغ الثريا قال الفقيه: "يقول لك ابن عمك عمر: ضقت ذرعا بهجرها والكتاب. وعلق السباعي يثير نخوة صديقه ويلين من جموده ويلقنه دروسا بعد أن أذاقه فنونًا وفنونًا: "فهكذا النبل وهكذا المروءة .." وحمل صديقه رسالته إلى جارته، وكان في أثناء ذلك ومن ورائه مواقف ومهازل، ولكن تم زواج البطل وانتصر فيه تدبير الإرادة على عجز الفلسفة النظرية [1].

وبمثل هذا الأدب وهذا الفن اطردت الصلة بين الوجدانات العربية القديمة والحديثة أو الحجازية والقاهرية كما قلنا.

ولم يحدث ضرر كبير من تأخر النقل الكامل أو الموثق لمثل هذا الأدب العربي من الأدب اليوناني كما ذكرنا قبل أيضا، ذلك أن دور ابن أبي عتيق ونحوه في البيئة الحجازية أو دور البطل الثاني في فيلسوف السباعي هو تجسيد لدور "إيروس" إله الحب في التعبير اليوناني الذي وصفه الطهطاوي بالإفراط في العبارة تجنبه المسلمون ولكنهم لم يرفضوا مؤداه – بأساليبهم.

"وإيروس" في دراسة الدكتور محمد غلاب المطبوعة سنة ١٩٥٢ "هو الذي يصل علائق الجنسين ويربط بين قلوبهما "رأي الباحث أنه" كأنه هو الذي ألهم بشار بن برد:

لا يوئسنك من مخدرة قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ما جمحا [2]

لكنه في عصرنا أيضا لقيت المقامة من ازدراء بعض النُقاد وعابتهم ما يناقضه أخذ كتاب مشهود لهم بأسلوبها كما تبين. وليس بيرم التونسي بأقل خطأ من السباعي في النجاح والإبهار باصطناع مزيج من أسلوب المقامة ومنحى الأدباتي الشعبي في عامية مفصحة. وإذن فإن ما رآه طاهر أبو فاشا "معاظلة" لدى البديع والحريري – وذكر اليازجي [3] – إنما مرجعها إلى أن

(1) قصة الفيلسوف أو ص ٢٩٨ – ٣٠٠ من ط الشركة العربية للطباعة والنشر.

(2) الفكر اليوناني والأدب الهيليني.. ص ٩٢.

(3) تقديمه لكتاب مقامات بيرم التونسي آخر ص ٣١ نشر مكتبة مدبولي – ٧٣ واليازجي عند ناصيف (١٨٠٠ – ١٨٧١) مذكور صدد مقامته "مجمع البحرين" ص ١٧، باعتباره أقرب إلى الحريري من جميع الذين نسجوا على منواله.



المقامة في أي عصر تصور جوانب أو تجارب ومواقف مله – وهي فن تعليمي استماعي. فإذا أريد النظر إليه مكتوبا فلا معدي عن بذل الفرق ما بين قوتي السمع والبصر الحاستين من قوة من جهد القارئ، ولو أنه فن ترفيهي ناجح أيضا، وأبو فاشا يعد رائدا في نقل المقروء من تراثنا إلى أسماع الجمهور عبر المذياع عبر الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من هذا القرن، ولو أن ذلك كان بما عكف عليه من ألف ليلة وليلة خاصته، وهو ما نتبين صلته بمحاولات العقاد وطه حسين والحكيم في الاتجاه النفسي بعد.

وللمقامة غاية اجتماعية – إن لم تكن كما هو الشأن في كليلة صريحة في القصد إلى تهذيب الحكم بالحكمة في المحل الأول – فإنها بعد تحتاج من الدارس الحديث إلى شيء من الصبر والوقت والاستعانة بدراسة تاريخية لا بد من توفيرها قبل الشروع في الخوض فيها بله الإسراع إلى الحكم عليها. ويجوز تبسيطها أو التصرف في بنائها تبسيط المقامة على نحو ما يصنع الأوربيون حين تُدرَّج القصص في المستويات لتلائم أجيال القراء وأعمارهم صنيع تشارلس لام بقصص شكسبير أو على نحو ما صنعت بنت الشاطئ برسالة الغفران وطه حسين باللزوميات، وكما أملت بنت الشاطئ أن تفعل بالصاهل والشاحج التي يلي التعرف بها.

أما علي السباعي وبيرم فقد لهج نقادنا بالثناء لتمرسهما بالقديم ونجاحهما في مخاطبة المعاصرين بأسلوب بليغ، وإن كنا نرى أن من عوامل رواج الكتابات الحديثة ما تتضمنه من ملاحظة عامية، وما يستعان لها به من الرسوم المعبرة، إن كان الرسم قد اصطنع في تقديم كليلة ودمنة والمقامات إلى العامة منذ القديم – فضلاً عن كون الموضوعات المعالجة عند السباعي وبيرم موضوعات معاصرة، ولو أن مقاماتنا الحديثة لم تنجُ من بعض الإسفاف والابتذال الذي عصِمت منهما المقامات الأولى.

ولم يستطع النقد المنحى على أدب المقامات وكذا أدب الرسائل أن يصرف الجادين من الأدباء والنقاد عندنا عن هذا المعين الإنساني الخصب، وإن افتقر طويلاً إلى التحقيق والإخراج الحديث. ولقد سرى أسلوب السباعي في ابنه المرحوم الأستاذ يوسف السباعي فوجدناه بسمة وحكمة ما فتئتا تلازمان أسلوبه، رغم ما أصبح يفتعله من وراء أبيه من حيل رومانسية ومسايرة للسياسة في قصصه المفرط في الكثرة؛ وهي كثرة أو إفراط لم يجد مؤلفنا الحديث بدا منهما لتعويضنا عن التكثيف والثراء المركز القديم في المقامة والرسائل.

وتلتقي رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري مع قصص كليلة ودمنة في الحديث على لسان الحيوان الأعجم – ذلك المنحى في التعبير الذي وجدته الأستاذ عائشة عبد الرحمن شائعا

في "دواوين شعراء الجاهلية وصدر الإسلام من "قصص على ألسنة العجماوات أو حوار بينهـا وبين الشعراء" (1). مما هو سابق في الأدب العربي على كتاب ابن المقفع (٢).

وقد رأت أنه "غير بعيد عن هذا التمثيل لمنطق الحيوان الأعجم ما يحفل به ديـوان الـشعر العربي من قديم مناجاة الشعراء للنوق والحمام والظباء ووحش الفلاة ومخاطبتهم البوم والغربان في شؤم تعيبها المنذر بخراب الديار وتصدع الشمل وفراق الأحباب" ومما أوردته من نص خبر سليمان وما علمه ا تعالى من منطق الطير "في الآيات ١٨ – ٢٣ من سورة النمـل (٣) ممـا يمكن أن يضاف إليه الكثير من قبيل القصة الفلسفية العالية المغزى "حي بن يقظان" لابن طفيـل في إسبانيا الموحدية ق ٦ هـ (٤) وقصة جزيرة النساء فضلاً عن القصص الملحمـي الـشعبي العربي المعروف.

وقد عقدت الأستاذة الكبيرة مقارنة بين قصص كليلة ودمنة ورسالة الصاهل والـشاحج فـي "مدخل موضوعي" منها لدراسة "عالم الإنسان في منطق الحيوان بين كليلة ودمنـة والـصاهل والشاحج" (5)، فوجدت أنه من حيث "الصياغة الفنية لمنطق الحيوان" قد كانت "قـصص كليلـة ودمنة تلقى بأسلوب الحكاية في مجلس سمر الملك؛ حيث يتخيل "بيدبا الفيلسوف" قصصا شـتى من عالم الحيوان، لا تربط بينها وحدة زمان أو مكان، سوى مسامرة الملك بها في هذا المجلس، كما لا يربطها بعالم الإنسان – في رأيها – سوى ما تقدمه من عبرة صريحة ومواعظ مباشرة، لما رأته الباحثة من أن "كل حكاية منها يؤلفها بيدبا الحكيم المعلم لتعطي عبرتها بتوجيه سؤال – الملك عن مثل بعينه، فيسوق بيدبا في القصة المتخيلة مضرب هذا المثل (٦).

وإذن ففي الأدب العربي القديم صنعة قصصية، وقد نجح بعض كُتابنا المحدثين "في المـزج بين القديم والحديث"، كالذي صنعه محمد السباعي، ومحمد المويلحي، وحافظ إبراهيم، والرافعي وكثيرون قد صاغوا التاريخ صياغة قصصية واقعية أو انطباعية *، ولكن الأدب بعد مروره في العالم العربي الحديث بالمراحل البيانية والتاريخية والرومانسية والواقعية وما إلى ذلك تطور إلى

---

(1) رسالة الصاهل والشاحج تحقيق د. عائشة عبد الرحمن ص ٣٦.

(2) نفسه ص ٣٦ – ٣٨.

(3) نفسه ص ٣٨.

(4) الفكر العربي ومكانه في التاريخ لديلاس أوليري ص ٢٥٧.

(5) الصاهل والشاحج ص ٣٣.

(6) الصاهل والشاحج ص ٣٩.

* نموذج للقصص التاريخي من منظور انطباعي لدى الرافعي ونمط من الشعر المنثور له يرد في الاتجـاه البياني بالدراسة.

صنعة قصصية أكثر تعقيدا أو تركيبا في الهندسة والمعمار الفني بما جعل القصة تتسع لضروب الفكر والسلوك في العصر الحديث، وتتنوع تنوع مشكلات العصر القائمة [1].

د- غير أن منحى أدبائنا الروائيين خاصة في احتذاء الصنعة القصصية في نمطها الغربـي الأخير قد تفاوت حظه من الفشل والتوفيق بحسب تفاوت حظوظهم من الثقافة والدراية بفلـسفة البيان وبأصول الصنعة الروائية والقصصية وقيمها الإنسانية العامة.

ولقد مر بنا التجريب الناجح لمحمد ويوسف السباعي ونجيب محفوظ في منحاهم التأصـيلي القصصي، ويمكن أن تسير مع تيار الصنعة القصصية في جانب آخر غاب عليه التأثير بالصنعة القصصية الغربية في نوعين من التأليف الروائي في فترتنا. وقد سار أحـدهما (وهـو البنـائي المعماري) في طريق النمو والتركيب الصناعي المناسب وسقط الآخر وهو الواقعي الكاشف في شبهة التجارة والدعارة لسقوط الأسلوب الفني الملائم لذلك من أيدي من حاوله مـن كُتابنـا ولا سيما إحسان عبد القدوس في النظارة السوداء، وتوفيق الحكيم في الرباط المقدس، ونحـو ذلـك في تناول لـ "فتحي الإبياري" [٢].

كان المعمار الفني في "زينب" بسيطًا يقيم خطًا رئيسيا لحدث يأخذ في التصاعد حتى يـصل إلى ذروته. وتتشعب عن هذا الخط بعض الخطوط البسيطة ليصب فيه من جديد. وبعض هـذه الخطوط يفيد الرواية وبعضها يحذَف أو يمكن حذفه لثانويته، ولكن المعمار في عمومـه بـسيط ومتماسك. ومطرد هذا التناول للشكل في تعبير فتحي سلامة، مع بعض مداخلتنا فيه مقنع لهـذا المبحث.

فمع التطور نما البناء عند العقاد على خطين أو دار على محورين لشخصيتي هند الفلـسفية وسارة الواقعية، ودار حولهما همام (كأنه أبو الحارث القديم) وهو يمثل العقاد نفسه في روايتـه "سارة"، ثُم نما مرة أخرى عند طه حسين في مثل "دعاء الكروان" التي أشرك فيهـا المؤلـف – مستفيدا من فكرة العقاد في ديوانه هدية الكروان – ذلك الطائر المصري الصداح لحوادث قصته الرومانسية التي لم تخلُ من سمة واقعية ونزعة إلى المغامرة والثأر. إلى أبنيـة أكثـر تنوعـا وأوسع مجالاً وأكثر تعقيدا من ذلك لدى نجيب محفوظ وثروت أباظة وهكذا *.

ز- وبعد ما بينا من نجاح أثر الترجمة في إحياء وإخصاب مناهج البحث. خاصـة ومـا باين ذلك من آثارها في بعض الأدب الواقعي، فإننا نذكر أننا نرى أن النجاح والعمق قد تسنى للترجمة أن تظهرها في فني القصة القصيرة والشعر خاصة... ولم يمتلـك

---

(1) من حديث الشعر والنثر، ط ١٠، دار المعارف، ص ١٥.

(2) تُراجع مجلة الأدب، عدد ٣/ يونيو ٦٤، السنة ٩، ص ١٥٦– ١٦٤.

* تناول بالعرض والتدقيق لدرسي الإبياري وسلامة القيمين بكتيبنا الأدب البياني والقصة العربية، مؤسـسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٩ م.

ناصيته التعبير الفني في الرواية من بعد محمد السباعي إلا أساتذة النقد وفلاسفته من أمثال طه حسين، وجميعهم قد وسعهم الاتجاه البياني بعد تفرق.

بيد أننا نرى أن التوفيق الذي أحرزه الكُتاب المصريون وما لم يحالفهم فيـه التوفيـق فـي الرواية خاصة إنما هو ظاهرة يمكن تعليلها بسببين معقولين: أولهما أن العصر في الفترة التـي بدأ فيها الإنتاج المصري من القصة الطويلة كان قد تخطى فن التأليف الروائي الطويل ولم يبـقَ ما يبرر استمراره إلا وسائل العرض المستحدثة ولا سيما السينما وتلك معتمدها على الـصورة الحسية ومنتشرها تجاري في الغالب، والسبب الثاني عكس السبب الأول؛ أي إن ملاءمة شـكل القصة القصيرة لعجلة عصر السرعة من ناحية ولما في خزانة الأدب المصري القديم والعربـي الوسيط من هذا الفن البسيط فقد جعل الاتصال بالقصة القصيرة الغربية عن طريق الترجمـة أو القراءة المباشرة يؤدي إلى إخصاب ملكات أدبائنا وتنشيط دافعهم إلى الإنتاج. ولعل فـي ذلـك وفيما ذكرناه من مزاج الشعب المصري وفيما عرضناه من دور محمد السباعي الرائد في المزج له بين أسلوب القصص القديم والحديث. بله ما اتجه إليه النقد مـن الاعتـداد بـالقيم العمليـة والتعليمية في الأدب، وكذا فيما سلمنا به من نجاح لأدبائنا في الجانب البنائي من الفن الروائـي دون الجانب الفني الأسلوبي، ضوءا يهدي الباحثين إلى أصول أدبية منشودة لنهضة في القـصة العربية بعد فطمها عن القصص الغربي وصولاً إلى الأسلوب الأمثل لمخاطبة الشعب والارتقاء بذوقه وتحقيقًا للمستوى الإنساني العالمي من هذا الطريق المحلي نفسه.

* * *

ح- ولكنه قد تحصل لنا من أثر الترجمة في الأدب العربي حتى الآن أنها ربطـت الأدب العربي عند الخاصة في مصر بالآداب الإنسانية شرقيها وغربيهـا. وقـد عـززت الآداب الشرقية النزعة الغنائية والفلسفية في الشعر والقصة بصفة عامة وبرز أثـر الاتصال بالفكر الفرنسي في بعث روح البحث ومناهجه عند العرب مدعمة بإضافات الغرب الهامة وتجاربه في هذا السبيل، كما كان للأسلوبية الرومانسية الفرنسية أثرها في المنفلوطي والزيات وغيرهما.

- وقد كان أثر الأسلوب القصصي الغربي في مجال القصة القصيرة أثرا بينا لما رصد لـه من خبرة خام وتاريخية في البيئة العربية. أما في مجال القصة الطويلة فقد تطورت قصصنا من صورتها البيانية إلى الصورة المعمارية، ولم يكتمل حظ أدبائنا من فقه البيان القـديم ورمـوزه القصصية وقيمة العقلانية؛ ومن ثم سقط من أيدي كُتابنا المحترفين أهم ما ينبغي لهم من نوعهـا الواقعي كما تخطى العصر محاولاتنا الملحمية.

- ولقد أخذ الأدب العربي يعطي مقابل الأخذ، وإن وقفت في سبيله في الغرب مفاهيم جائرة أخذت في التراجع.

٤- الترجمة من الأدب العربي إلى الآداب العالمية:

أ- ولتطور اهتمام الغرب بالعرب وثقافتهم والترجمة عنها إلى اللغات الغربية دراسات مفصلة. وقد أوردنا منها فيما مر أطرافًا من الاستشراق الألماني والمتجه للبحث في الساميات من خلال العربية والعالم العربي. غير أن منها في جامعة الدول العربية بحثًا استعرض مراحل هذا الاهتمام من المرحلة الثقافية الخالصة التي أقبلت فيها أوروبا في العصور الوسطى للتعليم من العرب في الأندلس وصقلية ونابلي وغيرها، إلى المرحلة الدينية التي استهدفت التبشير بالمسيحية والرد على المسلمين (ولا سيما في مقولة البعث بالأرواح دون الأجسام التي أسيء نقلها عن الشروح الرشدية وغيرها من الأفكار والعلوم الغربية واليونانية التي حركت تياري المسيحية الورعة والعلمانية المادية على السوية ضد الشرق) إلى المرحلة الاستعمارية المعروفة.

تلك المرحلة التي ارتبطت بإنشاء الجمعيات والدوريات الاستشراقية المشهورة [١].

وقد أوردت الدراسة من أسماء ملوك أوروبا وقسسها ومبشريها ٢٧ اسما، وبينت مما نقل إلى اللاتينية من العربية ثلاث منوعات في الشعر وأربعا في التاريخ، وإلى الفرنسية ٨ في الشعر و٧ في اللغة والأدب و٦ في التاريخ والجغرافيا، وفي الإنجليزية والألمانية حوالي ذلك، فضلاً عما أجملته الدراسة من ذكر تراجم القرآن المتعددة التي سنقف على بعضها في البحث.

وقد قُدر البحث المخزون من التراث العربي في مكتبات الغرب ٢٥٠,٠٠٠ مجلدا [٢] غير أن ختام البحث يضيف جهدين آخرين للاستشراق تمثلاً في عقد المؤتمرات والإجازة على الأبحاث في العروبة، ومن ذلك مؤتمر استكهولم ١٨٨٩، ودعوته إلى تأليف كتاب في تاريخ الأدب العربي يحفل بالكشف عن عناصر الامتياز في العنصر العربي ومقوماته الأدبية والحضارية التي مكنته من فتح بلاد أعرق منه وأقوى في وقت وجيز، ونحو ذلك، وما كان من إجازة علامة العراق محمود شكري الألوسي كتابه بلوغ الأرب في أحوال العرب في مجلداته الثلاثة. وسيلي وضعنا له في سياق طوفان من التأليف في تاريخ الأدب العربي في الاتجاه التاريخي.

وبحث الألوسي بعد قد عد في قول باحثي جامعة الدول العربية دافعا لتعزيز ثقة العرب بأنفسهم وتاريخهم وإن كان الغرب أراد به أصلاً فصل العرب عن الترك؛ لإضعاف الخلافة

---

(1) في الاستشراق والجمعيات والدوريات المتعلقة به رجعنا أيضا إلى مثال Orientalism and Orientalists – Arab Islamic Bibliography – the middle east library Committee Guide. وفهرس لها بتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان جـ ١ أيضا.

(2) قدرها معهد المحفوظات العربية التابع لجامعة الدول العربية ١٩٥٧ بثلاثة ملايين مؤلفًا في نشرة نشاطه من سنة ١٩٤٧ – ١٩٥٧ م، ص ٣ (هي الصفحة الأولى بعد صفحتي الغلاف).

العثمانية التي مثل العرب ثلثي سكانها، وهو استنتاج صحيح في عمومه، وهو يبرر ما ذهبنا إليه من القول باستحواذ التبشير والاستعمار على طاقة الثقافة العربية وتقييدها في حدودها السامية.

ومع ذلك فللبحث ولنا دور في إثبات أدوار ممتازة مخلصة جادة لبعض المستشرقين الـذين توخوا الموضوعية، وقد أوردنا منهم عددا في البحث.

والواقع أنه من اليسير تصور عظم دور الاستشراق بالنظر في الجموع التي اشـتملت علـى أعمالهم، ومنها دائرة المعارف الإسلامية، وكتاب نجيب العقيقـي "المستـشرقون" ذو الأجـزاء الثلاثة الكبيرة، فضلاً عن تاريخ بروكلمان وفهارسه، وغيـر ذلـك، وترجـع أهميـة نقـول المستشرقين إلى لغات أوروبا من التراث العربي في العصر الحديث -كما سيتبين- إلى القيمـة التاريخية والحضارية الأولى لهذا التراث، ولما له من قدرة على الكشف عـن طبيعـة الـشعب العربي للغربيين، فأما أن الغرب تذوق البيان العربي ولا سيما القرآن فـذلك أمـر آخـر ولـه مواضعه في البحث، كذلك ليس الأمر أن الغرب قد أعوزه شيء من أدبنا الحديث لنهضته فـي العلم أو الأدب فليس الأمر بهذا وأسبابه يمكن تلخيصها فيما يلي:

- أن العرب أنفسهم لم يتموا جمع تراثهم فضلاً عن درسهم له وتقديمه للبشرية فـي ثـوب جديد، وتقييمهم لأدبهم وتاريخه لا زال تقييم العجلان بصفة عامة.

- أن اتجاههم كان إلى الأخذ عن الغرب في العلم وحتى في الأدب نفسه، وربما كانت لهم- كما يقول "بروكلمان"- جولات في هذا وذاك بين جدران المدارس، وأنهم بعد لم يتبوءوا المكانة العالمية التي كانت لهم في العصور الوسطى والتي هي كائنة للغرب الآن، ولو أن هذا تقييم عام لا يمنع من وجود عناصر كمال عديدة في بعض الأعمال ولدى بعض العبقريات ولا سيما فـي مجال الشعر الغنائي والقصة الجمالية الطويلة والقصة الواقعية والقصيرة، أو فـي فـن القـول وصناعة البيان، أما عطاؤهم في العلم المادي فسيتأخر إلى الثمانينيات [1].

- أن اصطناعهم الأساليب الغربية هبط عن المستوى الأوروبي وافتقـد المـستوى العربـي الممتاز بالوضوح ونضوج الشخصية والصحة الجسمية والعقلية البدوية العربية القديمـة، كمـا صرفهم عن استثمار البيان القرآني في الأدب والعلم والحياة إلى وقت إعادة النظر على الأقل.

---

(1) اكتشف عالم سعودي دواء وصِف بأنه أفضل لمرض السكر من نبات بري في الجزيرة العربية وسجله في بريطانيا في شهر نوفمبر ١٩٨٣. واسم العالم السعودي الدكتور جابر سالم موسى وهو عميـد كليـة الصيدلة بجامعة الملك سعود. وقد أطلق على الدواء اسـم "سـعودي" .Ahlan Wasahlan – Saudia Dec. 1983, p. 49. وأذيع خبر اكتشاف الدكتور محمد الفار من جامعة المنصورة علاجا يـشفي مـن السرطان في ثمانية أيام، وأنه سجل الدواء في جامعة كاليفورنيا – ووصِف الاختراع بأنه معجزة حقيقية – (عن راديو القاهرة سماعا في نيجيريا مارس أو إبريل ١٩٨٤.

وربما عد سببا جامعا لذلك كله ما تبيناه من حيلولة الفكر الاستعماري الإنجليزي والفرنـسي دون انتفاع العرب بفلسفات القوة والاستنارة الغربية ولا سيما الألمانية على وجهها فضلاً عـن توجيه الغرب للعرب أو دفعهم إلى الدوران في الدائرة السامية وتحريك متناقضاتها.

ولقد لخص مترجم كارل بروكلمان، فيما أوردناه له في الاتجاه التاريخي، نحوا من هذا الفهم، وليس يخفى أننا مستفيدون من بروكلمان ومن المفكرين الألمان استفادتنا مـن غيـرهم ممـن استعرضناهم في اتجاهات الترجمة ومن استعراضنا للتاريخ السياسي المصري الحـديث ومـا سبقه، فضلاً عما استفدناه من استعراضنا لاتجاهات النقد ومدارسه.

ب- ومع ذلك فالترجمة من العربية قد دلت على الدور الخاص الذي تقوم به العربية بين شتى لغات الأرض، ولقد سار التأثر بها في الغرب شوطًا إلى أن تحولت أوروبا. من إكبار الثقافة العربية إلى التصدي لها بفعل الثقافتين الفرنسية والإنجليزية ثُم حصرها في الدائرة السامية، ولكن الترجمة من العربية إلى الثقافات الأوروبية عـادت مـرة أخرى – منذ أربعينيات هذا القرن– تمثل ظاهرة ثقافية.

وقد بلغ ما تُرجِم منذ سنة ١٩٤٨م إلى ١٩٦٨ م (٢٠٠٠) كتاب: منهـا ١٠٠٠ فـي الأدب، و٥٠٠ في الدين، و٥٠٠ في الموضوعات الأخرى [(١)] عدا ما ألف في اللغات الأجنبية مباشـرة عن الفكر المصري والعربي، ومنه كتاب الدكتور زكي نجيب محمود المطبوع في لندن SELF DETERMINATION وكتابه MODERN EGYPTIAN THOUGHT الذي طبعتـه المطبعـة الأميرية، وغيرهما من الكتب.

ج- وقد كان يوجد من الغربيين من يتحمس لبيان فضل العرب والمسلمين في مجال العلم والأدب والحضارة كالذي كتبه "سديو" و"دوزي" في مؤلفاتهما مـن العلـوم والآداب والفنون والصنائع المنسوبة إلى العرب، وكالذي نجده في كتـاب الباحثـة الألمانيـة "سيجريد هونكه" "شمس ا على الغرب" الذي ترجمه فؤاد حسين وطبعته النهـضة، وكالذي أبان عنه "ماسينون" من فضل الأدب العربي على الآداب الإنسانية جميعهـا من حيث الكيف [(٢)]، وما أبان عنه "نالينو" من فضل نظام الكتابة والحروف العربية على غيرها من لغات العالم باعتبار الحروف العربية أنسب للعصر الحـديث لميـزة

(1) الأهرام – مقال للدكتور زكي نجيب محمود في ٧٦/٥/٦ ص٧.

(2) الأهرام في ٢٦/ ١/ ٤٩ ص٤٣ – ١، ٢، ٣ – مقال "الثقافة العربية بالنـسبة إلـى المدنيـة العالميـة" دوريات دار الكتب – القاهرة – وهو بعد مشار إليه بفهرسها جـ ١ رقم ٢، ١١ عن المدة مـن ١٩٢٤، وعن المقال اقتبس الدكتور علي عبد الواحد وافي "فقـه اللغـة"، ط ٣، ص ٢٨، ٢٨١ وط ٤ ص ٢٤٣ واقتبس منه كذلك علي عبد العظيم لمجلة الأزهر – نوفمبر ١٩٧١ ص ٢٧٢، ٧٧٤، وكذلك فعلنا فـي رسالتنا للماجستير ص ٢٧، ٢٨..

الاختزال غير المخل فيها [١]، هذا فضلاً عن الأبحاث التي كشفت بالمقارنـة عـن وشائج لبعض الآداب الغربية في الأدب العربي القديم أو تأثير واسـع فـي علومـه الغربية، وفضلاً عن الدور الذي قام به العلماء الألمان وعوقه الاسـتعمار عـن أن يؤتي أُكُله في البيئات العربية الإسلامية عند بروكلمان وروزنتال وغيرهما.

د- بيدَ أنه من المبالغة القول بأن الترجمة من العربية إلى اللغات العالمية في هذا القـرن قد عاد لها ما كان في إبان النهضة الأوروبية الحديثة، أو أنها – باستثناء بينـا لـه في القرآن – قد كانت ذات أثر فعال في هذا العصر نظرا لشيوع الفكر الاستعماري وحجبه الرؤية أمام المثقف الغربي. حقًا لقد شهد الطهطـاوي بـاعتراف غـربيين باستفادتهم من العرب، وحقًا استطاع الأفغاني والشبان المـسلمون فـي بـاريس أن يدفعوا رينان إلى تعديل بعض آرائه في الإسلام، ولكنه ما كاد يسدل الستار على هذه الرواية المثيرة حتى أعيد تمثيلها بين مسيو "هانوتو" والإمام محمد عبده وفي جميعها لم تكن ردود المسلمين واهنة، لكن أقوى منها كما قال أحمد أمـين؛ رد المـسلمون عليها بتبوئهم مكانة عليا في العلم والفلسفة [٢] ثُم رأينا الرواية تُمثل بحذافيرها مـرة ثالثة بين كرومر والشيخ علي يوسف الذي كان هو أيضا مـن بـين مـن تـصدوا لروزفلت[٣] وكذلك بين قاسم أمين والدوق داركور [٤].

ولازالت لنا وقفة مع ألفريد جيوم وعدد من المستشرقين في مبحثنا "في محاولات نقد القرآن وترجمته في العصر الحديث" في عقب هذا المبحث، ووقفة أخرى مع ديلاسي أوليري وغيـره في مؤلفنا قضايا النهضة والقومية يتضح بها هذا الدور التعصبي الذي لم يـدم ضـد العـرب والمسلمين كما بينا.

ولقد سبق رينان إلى المحاضرة في "السربون" علماء حاضروا في فـضل العـرب بيـد أن أصوات المدافعين أخذت في الخفـوت، وبعـد ذلـك تـصاعدت أصـوات العـداء والتنكـر مع تصاعد الطموح الاستعماري، حتى تطوع رؤساء الدول للإفتاء فيها صنيع روزفلت رئـيس

---

(1) الاتجاهات الوطنية جـ ٢، ص ٢٨١ ط بيروت ١٩٧٠ - عـن الهـلال ١/ ٣/ ٣٦ سـطر ٢٤ ص ٥١٧، ص ٥١٩.

(2) زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص ٩٣ ف ٢، ٣ وص ٨٨.

(3) أدب المقالة الصحفية في مصر جـ ٤ ص ٢٧٧ و ص ١٢٢ – ١٤٤ ورسالتنا السابقة ص ٦٨.

(4) قاسم أمين – بقلم وداد سكاكيني – نوابغ الفكر – ط دار المعارف بمـصر سـنة ١٩٦٥ ص ٣٠، ٣١ وملخص معركة الجدل من رينان والأفغاني إلى قاسم أمين وداركور به أيضا مـن ص ٢٩ إلـى ٣١، ويلاحظ الباحث السياسي من اشتراك روزفلت رئيس أمريكا وهانوتور (وزير خارجية فرنسي) وكرومر مندوب بريطانيا على مصر في هذا المخطط الدعائي الضعيف.

الولايات المتحدة مجاملة لمضيفة لورد كرومر الذي مهد له جولته في المستعمرات البريطانيـة، وأخذ روزفلت يطعن الإسلام والمسلمين بلسان حاد في الخرطوم والقاهرة والإسكندرية وغيرها إلى أن وجدنا بعض شبابنا المتعلم يلفظ ما يلفظ به المستعمرون في أمـر الثقافـة والاجتمـاع الإسلامي والعربي.

ولا يزال شيء من مثله يعلَق بآراء ومواقف لبعض أدبائنا وناقدينا ومنهم من يمر بنا ذكـرى في أثر الترجمة وغيرهما.

وهو منحنى أدبي وسياسي بلغ إحدى ذراه سنة ١٩٥٦ م في موقف برناردشو الغيور علـى الحق الإنساني للفلاحين المصريين ضد السلطة الاستعمارية، وما عتم المحنى أن هبط إلى قرب مستوياته الدنيا سنة ١٩١٩ م حين اضطر الوفد إلى اكتراء بعض الأقلام الفرنسية- ومنها قلـم "أناتول فرانس"- للدفاع عن حق مصر القانوني والإنساني في الاستقلال.

وكذلك قل حظ الأدباء الأوربيين المحدَثين من الاطلاع على الأدب العربي، فلم يتعد ما قرأه "مورافيا" مثلاً بعض الشعر العربي والفارسي الذي تفسده الترجمة في رأي الأديـب الإيطـالي نفسه، وكذلك لم يعد علمه بالأدب المصري ما وصفه بأنه صفات الفلاح المصري وهو ما لا بد أن يكون على النحو الذي أوردناه من هيكل فيما مر، أو على النحو الذي صوره الحكـيم غفلـة وبلها في "يوميات نائب في الأرياف"، أو عبادة الأرض والصبر للإقطاع كما في الأرض لعبـد الرحمن الشرقاوي إن – جاز أن يكون لهذا الأخير أثر أيضا في الغرب. والأولى عند الحكـيم والشرقاوي متأثرين بالماركسية في عمليهما ذين.

ولم يعد ما قرأه الأديب السويسري "دورينمات" ألف ليلة وليلـة وبعـض مقـالات الأميـر أرسلان، وأما "سوميرت موم" فقد دعا العقاد إلى تجهيله لقول "موم" بأنه لم يسمع بالعقـاد. وإن كان أنيس منصور – وهو من أجرى السؤال حول هذه القضية بين هذا العدد من الأدباء – قـد أيد مورافيا في قوله بمسئولية العرب عن جهل الأوربيين بهم [1]، ولا يستطاع بالطبع الادعـاء بأن ما تُرجِم عن طه حسين والحكيم وغيرهما إلى اللغات العالمية في الفن القصصي قد أحـدث حدثًا في الآداب الغربية، من الجائز أن ما ترجمه أمين الريحاني عن المعري لم يعد ذلك نظـرا لما رأينا من أثر استعارة الأشكال الغربية في مستوى الأسلوب عندنا.

هـ - وربما جاز في أمر الإنسانيات أن يلتبس الأمر على النُقاد ولكنه في مجال العلم يكـون بينًا واضحا فإننا نستطيع أن نرجع إلى دائرة المعارف البريطانية ونقرأ مادة العلم مثلاً لكي نرى أن الكاتب ما يكاد يسبقه لسانه إلى أن يفتتح المقال بقوله بأن "كافة مظاهر الحـضارة والتمـدن الحديث في الغرب قائم على أساس الحضارة الإسلامية"، حتى يعود إلى التخبط والتحيز ليـسلب

---

(1) حواء العدد ١٣٣١ – ٢٧/ ٣/ ٨٢.

العرب معظم فضلهم في هذه الحضارة ذاتها. وهو أسلوب غالب يعمد فيه المؤلفون إلى إظهـار الموضوعية والانتفاع بسمة التراث العربي ليروج بيعهم له، ثُم يعمـدون إلـى إفـساد الأثـر الانطباعي العام عن هذا التراث نفسه؛ حتى لا يخرج القارئ بشيء من جدواه العلميـة بعـد أن يكون قد سلب الثمن أيضا على نحو مما بيناه في دراستنا عن ترجمات القرآن وصدد حديثنا عن جيوم والإسلام أيضا. وحقًّا حمى القرآن نفسه من ذلك كما سنبين ولكن الطريقة مخنوسة وقـد نجحت في رأينا في إعقام تأثير الاستشراق الأدبي غالبا حتى بعد ترجمته دائرته الإسلامية فـي مصر[1].

ورغم أن من المعاجم الإنجليزية ما لا يزال أمينًا في شرحه للأعـداد وصـورها العربيـة ARABIC NUMIRALS، وطريقة الحساب العشري، وعمليات الجمع والطرح التـي لا تـزال تسير من اليمين إلى اليسار، وعلى الرغم من الغزارة المدهشة التي يفاجأ بها كل من يـتفحص محصوله اللغوي الإنجليزي أو غيره لعدد المفردات العربية في هذا المحصول فـإن الغـرب- ويتابعه في ذلك الرأي مواطن نفوذه الأخرى- يجري في العادة على تحميل العرب والمـسلمين خطايا غيرهم مجاراة للسياسة في الجور والغلو حتى كأن الترجمة من التراث العربـي أو مـا يعرض منه خلال الألسن الأجنبية قد كانت له آثار مقلوبة، وقد مر توسع لـ "روزنتال" في هذا.

و- غير أنا نجد من آراء الغربيين في الأدب العربي بالإضافة إلى ما وقفنا عليـه مـن دور أوليري العنصري آراء الذين خدموا في جيش الاحتلال أو بعض مكاتبه في الشرق ومن هؤلاء المعقولان "مسيسون" و"دورم"، خلافًا لـ "جيوم" الذي نكتفي في هذا الـسياق بـإيراد ترجمتـه لبعض مبادئ المسلمين في نقد الحديث كما نقلها عن ابن خلدون باعتبارها من مظاهر الترجمـة من الثقافة العربية إلى اللغة الإنجليزية ويتبين مكانها بين ما ذكرنا من قواعـد النقـد ومنـاهج البحث التي عددناها من أثر حركة الترجمة ثُم ليستبين لنا كيف استخدمها "جيوم" كحقيقة مقلوبة في مضادته للحضارة التي أنتجتها.

وقد قدم لها جيوم بقوله: "إنها لفرصة سعيدة أن نجد ابن خلدون – وهو كاتب عربي عظـيم من كُتاب القرن الرابع عشر ظلت كتاباته في تحليل فلسفة التاريخ لزمن طويل تعتبر ذات قيمـة دائمة – قد كتب بعض فقرات ثاقبة في نقد تاريخ الحديث مما يعيننا على الاهتداء فـي البحـث التاريخي".

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية مطبوعة بالإنجليزية في ليدن، وقد بدئ في ترجمتها في مصر سـنة ١٩٣٣ م بتشجيع من الأمير عمر طوسون؛ باعتبارها بعد دائرة البستاني ودائرة وجدي دعامة لدائرة عربية كبرى "يتحرق الناطقون بالضاد شوقًا إلى ظهورها" – مقدمتها ص ٦ و٥ (ظهرت الموسوعة العربية الميـسرة سنة ١٩٥٩ م).

أما ترجمته الطريفة فقد بسطها في هذه السطور:

"Since it is of nature of tradition to incorporate false statement we must exmine the causes which propduce them. They are:

a) Attachment to certain poinions and schools of thought. Now if a man's mind is impartial in receiving tradition he examines it which all due care so that he can distinguish between the true and the false; but if he is provided by attachment to any particular opinion or sect he immediately accepts any tradition which supports it; and this tendancy and attachement cloud his judgement so that he is unable to criticize and scrutinize what he hears, and strait away accepts what is false and hands it on to theirs.
b) Over confidence in the probity of those who hand on the tradition.
c) Ignorance of the real significance of events, for many traditions, now knowing the significance of that they saw and heared, record events together with their own interpretations or conjectures and so give false information.
d) Belief that one has the truth. This is underspread and comes generally from over confidence in narratos of the past.
e) Ignotrance of the circumstances surrounding an ovent indueced by antiquity or embellishment. The harrator hands on the story as he understands it with these misleadings and false elements. Is Iam p. 20, 21.

والنص السابق لا يمثل ترجمة دقيقة بل تقريبية لما أمكن لـ "جيوم" أن ينقله من إطاره الخلدوني الخاص في طبائع الأحوال في العمران [1] و"قواعد الجرح والتعديل" مما استغنى جيوم عن نقله بوصفه بأنه:

SOME PENETRA TING PARAGRAPH

وقد رأينا في ردنا على "جيوم" ومقدمي ترجمات القرآن الكريم في كتاب آخر لنا كيف استغلها "جيوم" في غير ما تدل عليه من قيمة الفكر النقدي الإسلامي والعقل العربي معا واللذين بلغا تمامهما على أيدي متأخري المجتهدين كابن تيمية وابن القيم والسيوطي وابن خلدون وغيرهم.

فبدلاً من مراجعة ابن هشام أو صاحب "زاد المعاد" استقى من الثعلبي، دون الذين تناولوا السيرة بالتحقيق والتمحيص من العلماء، وكان ما فسره أو نقده من القرآن مسيرا بخطة عسف غريبة متناقضة فضلاً عما أقر به من عدم فهمه لبعض النصوص أو خاص فيه من الأحكام وإن

(1) مقدمة ابن خلدون – الكتاب الأول – في حقيقة العمران في الخليقة ص ٥٧ – ٦٢ جـ ١ دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٩ م.

لم يتهم في ذلك نفسه. وجلي أن هذه القواعد النقدية الإسلامية قد تكررت في جانب أساسي مـن القواعد التي وقع عليها واضعوا المناهج الغربيون ولا سيما ما أوردناه ضمن منهج لانسون عن الأخطاء التي يؤتَى من قبلها منهج البحث" [١].

(1) راجع الترجمة عن الفرنسية فيما سبق، وفي المناهج الإسلامية أيضا يراجع روزنتال فيما أوردناه عنـه في الترجمة عن الألمانية وإشارة تالية لـ "موافي"، فضلاً عن كتاب المرحوم الدكتور النـشار "منـاهج البحث عن مفكري الإسلام طبعته دار المعارف سنة ١٩٦٠ م، وتعويل الإسلام على العقل – رغم تحقق المعجزات فيه – في هامش تالٍ ومن ألصق الأمور في ذلك بمجال مناهج البحث التي نحـن بـصددها ما استقرأه د. محمد غلاب الذي مر بنا دوره في الترجمة للتراث اليوناني: وما استقرأه هذه المرة هو في كتابه "هذا هو الإسلام" من طرق النظر التي شرعها الإسلام:

- طريق النظر إلى ملك السماوات والأرض، وهو مراحل ودرجات.
- طريق الأسباب والمسببات.
- طريق الشعور الباطني.
- طريق المعقولات المحضة (طريق الفارابي).
- طريق التنسك. (هذا هو ا لإسلام، ط الشعب، ص ٣٧، ٤٦).
- وانظر اعتبارنا تناول جيوم وبعض مقدمي ترجمات القرآن الكريم وغيرهم نقدا منهم للقرآن وللإسـلام ككل: تقديما منهم له على طريقتهم، واجهناه نحن بتقديم منا على أصولنا في كتابنا "في محاولات تقـديم القرآن وترجمته "عرض وتقييم وتقويم"، مراجعة مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة يوليو ٢٠٠٥ م.

الفصل الثالث

في التنور المصري الحديث

محصلات مجملة على أصعدة

(التعليم والإحياء والصحافة والترجمة والسياسة والاقتصاد)

- الإطار التاريخي.
- معالم التنور المصري على صعيد التعليم.
- معالم التنور المصري على صعيد الصحافة.
- معالم التنور المصري على صعيد المذهبية السياسية والاقتصادية.
- معالم التنور المصري على صعيد الترجمة.

١- الإطار التاريخي:

* أوضح الإطار التاريخي السياسي الذي وضعنا تصورنا للنقد في الربع الثاني من القرن العشرين كيف احتدم الصراع والتناقض الحضاري ليطرد بالبلاد اتجاها إلى تكوين شخصية وطنية وسطية في إطار الثقافة العربية والتاريخية والوعي الإنساني المعاصر.

أ- لقد وقعت البلاد في الفترة التي ندرسها، كما وقعت في التي قبلها بين تسلط المحتلين الأجانب وبين تحكم والٍ أو سلطان اسمي أو ملك مستبد، كما عانت لأواء حربي العالم الحديث الفادحتين. وهب عليها رياح فكرية متباينة فجرت بها قضايا احتاجت إلى المواجهة العلمية والحسم بالمواقف والأدلة.

ب- قد أوقفنا بحثنا في علائق المصريين بالترك، وفي علائق المصريين بحكامهم المستخلفين والمتغلبين على ثلاثة أسباب لمحنة المصريين: تجنيد الترك عليهم – إهمال العلم المادي – الغرب الاستعماري، وعلى مكانين للأرضة التي أوهت هذه العلائق قطعتها، وهما نظام الحريم وعجز المسلمين عن وضع نظام الشورى النظري الصالح لديهم موضع التنفيذ في العمل السياسي. فبسبب من هذين المرضين اطردت نزعة الفتك إلى غير حد من قبل ومن بعد بين المماليك في مصر وغيرها، وزكت الفردية ونما التصوف العزوف، وأصبحت الولايات الإسلامية شأنها في العصر العثماني شأنها في العباسي وفي حكم الإسكندر فريسة سهلة لمن يهزم الحكومة المركزية، وقد جاءت الهزيمة هذه المرة تركيا وحليفتها ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٩.

- لقد كان تمسك العثمانيين بالحكم المركزي في مقابل اتجاه الغربيين إلى حكم الدول القومية منذ القرن الخامس عشر كافلاً الصمود والضغط على هذه الدول، ولكن هذا الحكم المركزي نفسه كان المسئول عن إضعاف الولايات العثمانية ومنها مصر.

- وقد كان تنصيب المصريين للولاة في بعض مراحل التاريخ – كما كان الشأن مع محمد علي – واتخاذهم التعليم الأزهري نواة للتعليم المدني، ونجاحهم في دفع شريف باشا إلى تأليف حكومته لدى توفيق على أساس مسئوليته أمام الشعب، ودعوة عرابي إلى إنشاء جمهورية: دلائل على نفاذ الذهنية المصرية إلى صميم معنى النظام والحرية، كما دل عداء الإنجليز له وتدخلهم المستمر في الشئون المصرية لتكريس الاستدانة والضعف والتخاف ومحاربة التعليم أدلة على ضعة في الخلق الاستعماري، ومنازع استغلال وابتزاز قصير النظر ناقضت دعاوى التمدين الغربية وفلسفتها الأساسية.

* * *

ج- لقد دهم الغزو الغربي المصريين وهم شبه عزل من التعليم والتسليح، وظل مضادا للأمرين اللذين تنبه المصريون إلى عوزهم إليهما، وإلى خطر الغرب عليهم بطبيعة الحال منذ حملة نابليون (١٧٩٨ – ١٨٠١ م). وقد غر مستعمرهم منهم – فضلاً عن مظاهر الضعف المادية – سيماء من الوداعة والتهيب عن طلب المناصب أُشربوها من بعض تراثهم المتورع القديم. بيدَ أنهم سرعان ما بادروا إلى تقييم النُظُم الأوروبية الحديثة، وإلى اختيار حاكمهم، وحاولوا التمسك بضمانات الشورى، كما اندفعوا إلى تحديث البلاد بالعلم والفكر والصناعة، غير مفرطين في أصول حضارتهم.

- وقد عرفت البلاد أشخاصا بذواتهم تمثلت فيهم عبقرية الأمة، فخشنوا للحاكم وللمستعمر، وتصدوا للمناكد مضحين بمتاعهم الشخصي وبأمنهم أو مداورين مستوعبين حركة التاريخ وعبره. كما لم تعدم البلاد في معظم الأحوال التي اتضحت فيها المناقضة: القائد والكاتب أو السياسي المفوه الذي يحدث مواطنيه بلسانهم مفْصِحا عن وجدانهم، كما لم تعدم التنويري والمنَافح العقدي.

- ولقد ضربتهم في هذا العصر ثلاث غزوات استعمارية طامعة، كان أولها غزو الإنجليز منذ سنة ١٨٨٢ م، وهبت بها ثلاث ثورات خلال سبعين عاما: فدح الأمة نكبة الأولى، إلى أن استردت وعيها وشموخها في الثانية على ملكة البحار، ولكن أتلف منها المستعمر نفسه والقصر كما أتلفا من الأولى، ومثلت الثالثة بدء عهد جديد، وإن كان أفعم بالحماسة الفائرة إلى انتكاسة سنة ١٩٦٧ م في عهد لاحق. ولعل ثورة المصريين في مجالات التعليم والأدب إحياء وترجمة وإبداعا كانت أنجح ثوراتهم، فبما تمكن المصريون منه في ذلك تكون الأساس الذي تكسرت عليه محاولات المستعمر لتغريب البلاد أو جعلها عالمية، أو إخضاعها للابتزاز المستمر بحسب موقف الغرب من تركة الرجل المريض. وقد ثبت كذلك أن هذا الأساس المصري القومي كان سندا وحصنًا ضد التتريك نفسه في مصر والشام وغيرهما.

- وقد احتفظوا بقيم الاعتداد والتشامخ في مواجهة القوى المتغلبة عليهم في العصر الحديث من جهة حكامهم المتوارثين، ومن جهة أعدائهم المحتلين، حتى اعترف الغرب بحظهم من التحضر، حتى في إطار الخلافة التي استتركها، وإن عاملتهم إنجلترا كمتخلفين مجترئة على ثوراتهم ومطامحهم ولم تفلح إلا في بعض مراحل سيادتها (١٨٨٢ – ١٩٣٦ م) كما أومأنا.

- وقد كان أسلوب التدرج والتوفيق في المجتمع المصري والإسلامي في عهود التخاف، كما كان أسلوب التنوير الذي عالجوا به مشكلات الأسرة عاملين عالج بهما المصريون مشكلات الحريم في الأسرة المصرية المتركنة؛ فنحوا إلى مفهومين للأسرة لا ثالث لهما: فالأسرة العائلة، والأسرة الوطن. وقد زودهم التراث بزاد في ذلك منذ رفاعة.

- أتيح للبلاد وتجريب شورى أو ديموقراطية خاصة منذ ألبس العلماء محمـد علـي خلعـة الولاية بأيديهم، وتمسكوا به حتـى ضـد إرادة الـسلطان، ثُـم مـا لبـث عرابـي أن طمـح إلى استخدام نزعة الحل والعقد الأصيلة في التراث والمشجعة بالفكر الـديموقراطي النظـري وبمواقف بعض محالفين غربيين: في إقامة نظام جمهوري، بيد أن هذا الطموح المحبط – سواء أكان هو المستفز الأول لتوفيق لمحالفة الغزاة أم أن دكتاتورية توفيق هي الأصل في ذلك – هذا الطموح المصري سرعان ما اتجه في ظل الكبت الاستعماري والعلوي إلى التحزب.

- وقد ظل الاستقلال وما إليه مضادة امتيازات للأجانب والتدخل الأجنبي، كما ظل الدستور وما إليه من ضمانات ونزاهة حكم وعدالة أمل المصريين بجميع أحزابهم في الغالـب وبجميـع طوائفهم، وقد أومأنا إلى أن حرية المصريين كانت مثار نقمة الإنجليز والقصر، كما كانت أموال الأوقاف معدى لـ "فؤاد" مثلما ظلت ثروات البلاد وطاقتها غرضا لإنجلترا. ومنذ اليـوم الأول للاحتلال استغل جنرالات إنجلترا المنتدبون هذا الوطن أسوأ استغلال نهبا وابتزازا وسخرة.

- وقد أدى مطرد دعوات الإصلاح الشرقية، بما في ذلك دعوة الثـورة الـشاملة الأفغانيـة وموافقات الفكر الغربي الصالح إلى انتهاج المصريين منتهجات إصلاحية: اتقافية عند رفاعة أو توفيقية مداورة عند محمد عبده، وسياسة تعليمية عند سعد والأحرار الدستوريين، وتشبثوا بتعليم أولادهم، ونجحوا في إقامة نواة استقلالهم السياسي والاقتصادي في إطـار الحركـة الوطنيـة بدرجات ربما تكون أكبر بكثير منها لو أنها كانت مدينة لتحول النظام الرأسـمالي إلـى لونـة اجتماعية بعد الحرب الثانية فحسب.

- وكذلك عرف أبناء البلاد أساليب التخطيط في التعليم والاقتصاد والجيش، وإن ظل نظامهم الإداري محصورا في الأشكال التنظيمية الغربية: شأنهم في اصطناع الأشكال الأدبية الحديثة.

* * *

د- ومن المؤكد أن الإنجليز لم يستطيعوا توريط المصريين في الحرب العالمية الثانيـة بالدرجة التي ورطوهم بها في الأولى، كما لم يكن الدرس الجديد بدون مكاسب عددنا منها إلغاء الامتيازات.. والكلية الحربية وغير ذلك، بل قد أمعن بعض المصريين في مضادتهم بالهتاف لمقدم الألمان، وكذا الاتصال بهم. وقد نجح المـصريون بالفعـل في زحزحة المستعمر إلى هامش بلادهم، وأتبعوهم بالمقاومة العسكرية الشعبية، وهم معبئون بكراهية الأجنبي الغازي والحاكم العاجز هذه المرة، وإن لم يحرم الوطنيون من فضل تأييد بعض من يمت إلى الإنجليز أو إلى القصر. ويذكر اسم لامبير بإزاء العرابيين ضد كرومر أحيانًا، وفي فترتنا خاصة لم يهمل البحث لفتـات مـن هـذا القبيل: نصحا بتغذية التلاميذ قدره هيكل في وزارته للمعـارف، أو رأيـا بتطـوير الجيش صدر عن المستشار الإنجليزي وأهدره المعتمد البريطاني نفـسه وعوضـه المصريون بجعل الجامعة حكومية سنة ١٩٢٥م وهكذا.

- ومع فضيلة لا تُجحد للحياة الحزبية في التجارب البرلمانية في الدول المستقرة، فإن مؤرخًا منصفًا لا يستطيع أن ينكر فضائل ومعايب في التجريب الحزبي في مصر، بيدَ أننـا يمكـن أن نقف في التجربة الحزبية عندنا في تلك الفترة على ظاهرتين: الأولى مؤداها إلى الائتلاف كمـا حدث بمنزل محمد محمود مضادة لحزب الملك المعطل للدستور ١٩٢٦، وكما حدث في التجمع لإلغاء الامتيازات، وتوقيع معاهدة ٣٦ رغم نقائصها، إلى صور أعم للجهود الوطنيـة الـشعبية الاجتماعية والاقتصادية في مواجهة النفوذ الأجنبي، وهكذا.

- أما الظاهرة الثانية، وإن كنا جعلناها مرتبطة بالاحتلال والملايينين له، فإنها غير بعيدة عن التحزب، وهذه هي ظاهرة العنف والغيلة السياسية في مصر، بدءا من اغتيـال غـردون فـي السودان ١٨٨٤، إلى اغتيال ناظر النُظار ١٩١٠، وسائر من عددنا من فئات حزبيـة ووطنيـة شتى، وإلى محاولة اغتيال رجل الثورة ١٩٥٤ إلخ، ولكن التجربة الحزبية بلا ريب قد كانـت، ولعلها لا زالت مفسلة بأشياء منها في تلك الفترة النص الدستوري على أن ذات الملك لا تُمـس، وقد أعقم منها الاحتلال نفسه بطبيعة الحال فيما أعقم من التجربة الشورية والبرلمانية منذ وزارة شريف، حتى سرت عدوى التحاقد والتحاسد، وعدل عنها الشباب المثالي إلى العنف والاغتيال.

- وكما لم يقدم فريق من حكام مصر لغدهم بتشجيع الحرية لم يقدم الاستعمار لغده بإنصاف الأحرار إلا قليلاً، بل ربما اتخذ المستعمر الأهواء باسم الديمقراطية، كما حـدث مـن لجـوء بريطانيا إلى فرض النحاس على فاروق في حادث ٤ فبراير المعروف، وهو الحادث الذي تحول بـ "فاروق" كلية إلى أبيقورية كاملة أودت به بعد.

- ويمكن أن يقال: إن هذا الصنيع من وقوف الأجنبي في صف الشعب فـي الظـاهر كـان علامة من علامات ساعته، فأثر توقيع معاهدة ٣٦، وانسحاب قوات الاحتلال إلى قناة السويس، ونشوب المعارك في فلسطين، وبتحول فاروق إلى الاشتراك فيها في حكومة النقراشي ٤٨ اندفع المصريون إلى حربين: الأولى في فلسطين في السنة المذكورة، والثانيـة فدائيـة ضـد قـوات الاحتلال في القناة.

- وأثر تنكيل الإنجليز بقوة الأمن المتواضعة في الإسماعيلية وغيرها تمرد شرطة القـاهرة، وعاث العامة في منشآت الأثرياء والأجانب في الغالب؛ وتلاهما النكبة في فلـسطين، وحريـق القاهرة مع ما عرفَ من طابع الملكية والسلطنة والخديوية وما إلى ذلك في مصر كـان قمينًـا بتحريك أبناء الطبقة المتوسطة التي نمتها الظروف للثورة الناجحة ١٩٥٢ م؛ وبهذه الثورة بـدأ عهد من التفتي المصري الجديد الذي ألمحنا إلى بعض خصائصه أيضا.

٢- معالم التنور المصري على صعيد التعليم:

* الفصل الأول من هذه الرسالة حاول نظم التطور التعليمي والعلمي لمصر في الفترة التي نضطلع بدرسها مع مظاهر التطور الأخرى للبلاد: سياسية واجتماعية ونحو ذلك، في نسيج واحد. فإذا أردنا أن نخلص سداة ذلك من لحمته لنستخلص مواد التطور العلمي وحدها، ونعرضها دون إملال، فإننا يمكن أن نلخصها فيما يلي:

- إن مركزية الحكم العثماني، بالإضافة إلى مبدأ فرض الكفاية في التعليم الإسلامي للفقه، والموقف الزائد على ذلك في التربية المسيحية في مصر في القرون الثلاثة السابقة للحملة الفرنسية قد حد من نبوغ المصريين في مجالات العلم الرياضي الذي كان للفقهاء تضلع فيه إلى القرن الثامن عشر.

أ- ومقدم الحملة الفرنسية في خواتيم هذا القرن إلى مصر – وإن أنهكتها البطولات الفردية وسياسة الكر والفر المملوكية وأثخنها تدمير الإنجليز لأسطولهم في أبي قير ونحو ذلك – فتح عيون المصريين على الشُقة الفاصلة بين علمهم المادي الذي أهملوه وبين خبرة الفرنسيين التي نمت بها منذ مطالع نهضتهم ونهضة الأوان القومية على ما أشرنا في القرن الخامس عشر [1]، متأخرين في ذلك هم أيضا قرنين من الزمان عن العمران المغولي والأيوبي.

- نظر المصريون في الحضارة الطارئة بعين الخبرة القديمة، فقبلوا منها بعض نظمها الإدارية والقضائية، وفضائل العلم الرياضي التجريبي، الذي رأوه راضعا من لبان الإسلام، غير مفرطين في شيء من أصول عقيدتهم ودون أن يستطيعوا التخلص من خلق الحرية المهتاج فيهم تحت الضعف الطارئ والوداعة المصرية الظاهرة، ناظرين بعين الاهتمام القديم في التراث الغربي الأدبي أيضا لما رأوه منه شاربا مشرب اليونان.

ب- لقد بدأت النهضة المصرية الحديثة بداية علمية منظمة، وكان الفضل في ذلك لعلماء الدين الملمين بالعلوم الرياضية والعلمية، مثل الشيخ الجبرتي الكبير، والشيخ حسن العطار (١٧٦٦ – ١٨٣٥)، وتلميذه رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ – ١٨٧٣): نموذج المصري الجديد الذي ابتعث وأدار دولاب حركة الترجمة الثالثة في التاريخ الإسلامي إلى جانب حركة التحرير الصحفي والتعليم في مؤسسات الدولة الجديدة كمدرسة الألسن، وصحيفة الوقائع المصرية، وروضة المدارس ونحو ذلك في مصر والسودان؛ مما كان له أثره أيضا في نهضة حركة تعريب علمية وترجمة رابعة

---

(1) الإشارة إلى كتاب الأمير بفصلنا الأول ص ٩ وصدد ألمانيا وفرنسا يراجع الكتاب نفسه في الإنجليزية ص ٦٧.

شحذها الحكم العربي الفيصلي في الشام بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨، واستمرت سنة ١٩١٩، لتمثل هذه الثورة العلمية العربية ظهيرا للنهضة العلمية المصرية والثورة السعدية بطريق غير مباشر، ولتسهما في التسكين أو الحد من خطر بلجرة الغرب للأردن وصهينته لفلسطين.

فضلاً عن إفشال الملْنَرة في مصرة، والمرونة في لبنان، والفَرنَسة في الجزائر، وما إلى ذلك.

ج- استعجل المصريون بناء هرمهم التعليمي الحديث مقلوبا، فبدءوا بإنشاء معاهد للطب والهندسة، ونحو ذلك. وفي عهد إسماعيل أُعِيد تنظيم المجالس الأعلى للتعليم، وعدل هرمه ففُرشت قاعدة البلاد بالمدارس الابتدائية في القرى وبنيت المدارس الثانوية في المدن والعواصم الإقليمية، كما غزيت المعاهدة العليا في العاصمة أيضا.

د- وقد شمل التطور الكيفي التعليمي أيضا؛ فأُفتُتِحت مدرستان ثانويتان حكوميتان للبنات، وأُنشِئت دار العلوم لتخرج معلمي اللغة العربية على الأسس التحليلية الحديثة، وأُنشِئت مدرسة المعلمين الخديوية، ونُظم الاطلاع في مكتبة عامة، بدل الاقتصار عليه في المساجد ودور العظماء وجردت مطبعة بولاق وزودت بمصنع للورق، فضلاً عن إنشاء مطابع أهلية أخرى.

ه- وقد ظهر أثر ذلك كله في إحياء التراث ومنه المعاجم الميسرة كما سيلي، والنفع بالمتَرجم في نمو الصحافة وازدياد البعثات، وتطوير القضاء، وإلغاء السخْرة، وتكوين نظام للشورى، كل ذلك وغيره تم قبل الاحتلال – وربما أُعتُد طفرة – مما أشعل ثورة العسكرية الوطنية المصرية بقيادة عرابي والبارودي، إلى أن نجحت سياسة التربص البريطانية الموتورة بهزيمتي رشيد والحماد سنة ١٨٠٩في احتلال مصر سنة ١٨٨٢.

و- كان الاحتلال نكسة للتعليم كما كان مهينًا للمشاعر، فقرا ومرضا للبلاد بما تركه من إذلال في النفوس، وبما انتهبه من خيرات البلاد بدعوى الديون وحرية التجارة، وبما جره أيضا عليها من أوصاب وضحايا في الحرب العالمية الأولى والثانية.

أغلق المستعمر سنة ١٨٨٢ جميع مدارس التعليم الثانوية الحكومية وسلط على الحكم كُتابه الماليين من أمثال كرومر ومستشاريه النكدين من أمثال "دنلوب"، وبدأ النضال الوطني يستبسل لإنقاذ النبوغ، كما كان يدعوه المصريون، في أبناء البلاد، واطرد ذلك مع الحزب الوطني وعلمه الشاب "مصطفى كامل"، ثُم "قاسم أمين" فـ "سعد زغلول"، فضلاً عن "محمد عبده" وأهل الخير المتبرعين بالجهد والمال، فكانت محاولة بعد محاولة لتدريس العلوم العلمية في الأزهر ومعاهده وترقية الدراسة العربية فيه بتدريس الأدب والبلاغة إلى جانب علوم اللغة ودروس الفقه العميقة فيه ونحوها.

وقد درست اللغات الأجنبية في بعض مراحله وعرف التخصص، وبدئ في التفكير في إحداث إصلاح فوق الإصلاح تمثل فيما بعد في إنشاء الجامعات الجديدة والمجامع وتأليف المعاجم ونظريات النقد والبيان.

ثُم كان من أثر ذلك إنشاء الجامعة المصرية الأهلية رغم المستعمر سنة ١٩٠٨، وأُستُؤنف تعريب التعليم ونشطت حركة البحث العلمي في الطب وغيره، واقتدى الشام بمصر في ذلك أيضا، وقامت عليه الثورة العربية في التعليم والتعريب إلى مدى أوسع وأبعد كما بينا في الاتجاه العلمي، والتف المثقفون على اختلاف اهتماماتهم وثقافاتهم وتخصصاتهم، حول زعامتهم السياسية؛ فأُنشِئت الجامعة كما مر، وأحبطت محاولات تبديد الجهد العلمي في العاميات والحروف اللاتينية، خلافًا لما تم من ذلك في تركيا ونيجيريا وغيرهما [1].

وتبنت الدولة الجامعة سنة ١٩٢٣، وضمتها إلى معاهدها الرسمية سنة ١٩٢٥، واطرد في ظل دستور ١٩٢٣ الذي لم يحفل المصريون فيه بغير وجوهه الإيجابية غالبا، فأتلفت للبلاد حكومة وسِيرَ شوط في طريق لا مركزية الإدارة، وطُبق الإلزام بالابتدائي، وطُورت نُظُم التعليم وتجدد طبع مبسطات المعاجم [٢].

وفُرض إشراف الدولة على المدارس الأجنبية، وفُرض عليها تعليم اللغة العربية وتاريخ مصر وجغرافيتها، ومادة التربية الوطنية، وبدأ العنصر الأجنبي يبدي آراء نافعة، كذلك اعتنى بالإذاعات المدرسية إلى جانب المكتبات، واعتنى بالتغذية وبالترفيه وبالفنون والرعاية الصحية والنفسية، مما أوجد مددا للتعليم العالي؛ فافتتحت جامعة فاروق الأول (جامعة الإسكندرية) سنة ١٩٣٩، فضلاً عن المجمع اللغوي ومؤسسات الدولة المالية والاجتماعية والمدنية والعسكرية الأخرى.

ز- حتى إذا أشرف الربع الثاني من القرن العشرين على الانتهاء. وأحس الشبان المصريون سنة ١٩٥٢ من أنفسهم مثل نهضتي عرابي ١٨٨١ وزغلول ١٩١٩

---

(1) عمد الغرب إلى تغريب تركيا خوفًا وتشفيا بكتاب "أرنولد توينبي" العدائي الصريح "الإسلام والغرب والمستقبل" على ما أشرنا في البحث ص ٤٣ ونحو ذلك.

(2) من تلك مختار الصحاح (من تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري أبو نصر إسماعيل ت ٣٩٣/ ١٠٠٣) والمختار منه لمحمد ابن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ت حوالي ٦٥٠ هـ - وأول طبعات المختار الحديثة طبعة بولاق بتهذيب محمود خاطر (١٢٨٧ – ٨٩) إلى ثماني طبعات ذكرها بروكلمان في جـ ٢ ص ٢٦٢، ٦٣. ومن هذه المعاجم المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للمقري الفيومي ت. ٧٧ هـ عن.. أوجز منه للرافعي ونحوهما محيط المحيط وقطر المحيط لإميل البستاني، والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لعبد الباقي عن فلوجل (ت ١٨٧٠ م) إلى معاجم المجامع العربية ومعاجم جامعة الدول العربية ونحوهما. تراجع في هوامش الاتجاه العلمي (ص ٣١٦ – ٣١٨).

ومثل نهضتي محمد علي ١٨٠١ وفيصل ١٩١٨ ثاروا وعجلوا بغروب شمس الاستعمار، وبدأ العهد المصري العربي – وإن غلب عليه الحماس في العهد الجديد.

٣- معالم التنور المصري على صعيد الصحافة:

أ- وقد كان للصحافة دورها في نشر المادة العلمية والتوعية بها في مصر منذ بداية النهضة. اعتبرت روضة المدارس التي صدرت رسمية سنة ١٨٧٠ الأم الأولى للمجلات الأدبية في البلاد المصرية (واعتبرت) الجريدة "الأم الثانية لجميع الصحف الأدبية. ولقد كانت البنت البكر لهذه الأم الثانية.. صحيفة السياسة الأسبوعية (التي عِنيت بالتجديد في الأدب والفكر والنقد جميعا.. وكان لهذا آثاره الطبيعية في كل بلاد العالم العربي".

ب- لم تكد تخبو جذوة صحيفة السياسة حتى خلفتها على عرشها سنة ١٩٣٣ مجلة الرسالة، إلى أن خبت هي الأخرى سنة ١٩٥٣، وقد مثلتا في صعودهما وهبوطهما حظ الأدب في مقابلة العلم من اهتمام القُراء، بالإضافة إلى الصوارف الأخرى التي صرفت القُراء عن التفرغ للاطلاع الأدبي الخالص *.

ج- ولقد كان للصحافة التي أدارها الشوام – باستثناء حالات لها، وباستثناء المقطم الاستعمارية دور صالح في الحركة الوطنية المصرية. لكن دور المقتطف (العلمية) التي صدرت في بيروت سنة ١٨٧٦، ثُم انتقلت إلى القاهرة سنة ١٨٨٥ يعتبر تركيزا لدور المجلات العلمية السابقة في الشرق (1).

د- وقد عرفت مصر عدة صحف تركية أوقفها المحتل، وكان بعضها مخصصا للجيش وبعضها للزراعة وقد صدرت الهلال في مصر ١٨٩٢، وصاحبها المؤرخ.. والعالم المشهور "جرجي زيدان" (ت ١٩١٤)، ثُم مجلة البيان الصادرة في القاهرة سنة ١٨٩٧ لصاحبها إبراهيم اليازجي إلى أن خلا الجو إلا من الهلال التي أشبهت الأهرام في النجاح وطول المدة (٢).

---

* افتتاحية عدد الرسالة الأول ١٨ رمضان ١٣٥٠/ ١٥/ ١/ ١٩٣٣.

(1) كانت حركة إحياء التعليم العربي والاستعانة له بالترجمة والبعثات في مصر عهد محمد علي قرينة نزعة الاستعراب التي غلبت على ابنه إبراهيم وهو يكتسح جيوش الخلافة العثمانية في الشام هذه الحركة العلمية للتأليف والترجمة ولا سيما في الطب أساس سابق لاتجاه الشيخ "نصيف اليازجي" وأمثاله من أدباء النصارى في الشام ولثالوث معهد الجامعة الأمريكية "فنديك وبوست وورتبات" قبل تغربها وأثر هؤلاء جميعا ظهر في الثورة العربية إبان الحرب الأولى وفي العهد الفيصلي في الشام سنة ١٩١٨ وما بعدها إلى اليوم، كما ورد في البحث.

(2) الصحافة المصرية في مائة عام ص ١١٨، ١١٩.

ولم تكن تخلو إحداهما من مقالة أو نبذة في العلم ونحو ذلك.

هـ- ثُم إنه بخلاف ما اضطلعت به الوقائع المصرية (ديسمبر ١٨٢٨) من دعاية واسعة لمحمد علي وإبراهيم وجهودهما في سبيل الإصلاح والاستقلال والاستعراب في البلاد، قد كان لها دور رائد لدور المقتطف الشامية سنة ١٨٧٦ م ولغة العرب الكرملية في العراق سنة ١٩١٢ في الاهتمام بالعلم والأمور العصرية. وقد كان من واجبها نشر البحوث العلمية التي احتاجت إليها مصر في نهضتها الحديثة في المال والزراعة أو الصناعة أو التعليم [1].

ودور رفاعة وتلاميذه ودور علي مبارك مذكور في ذلك.

ولقد كان للطب صحيفة في عهد إسماعيل هي "يعسوب الطب"، كما كان للأمور العسكرية مكان في جريدة "أركان حرب الجيش المصري"، وكانت "روضة المدارس" تنشر فصولاً تتألف منها كتب في الطب والهندسة والجغرافيا والتاريخ والكيمياء والفلك والنبات والأدب والإنشاء والألغاز والأحاجي والنوادر، كما كانت تشجع الناشئة على الكتابة، فقد كانت "روضة المدارس" (مجلة أدبية علمية ثقافية ولا صلة لها بالأمور السياسية والاجتماعية" [2].

و- ولا ريب أن الطابع السياسي والأدبي قد غلب على الصحف المصرية في ظل الاحتلال البريطاني إلى سنة ١٩٢٢ على الأقل؛ حيث حصلت البلاد بعد ثورتها السعدية على تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، وقد أتاح لها دستور ١٩٢٣- كما بينا- قدرا من الاستقرار، أتاح لصحيفتي الحزبين البارزين في ذلك الوقت إخراج ملاحق أدبية وثقافية لقُرائهما، وأعني بها صحيفتا السياسة وصحيفة البلاغ، واعتُني فيهما بالفن الصحفي وخطى فيه خطًى نحو الإتقان والتشويق والتنويع والعناية بالمراسلين والمحررين. وقد كان العقاد كاتب البلاغ الوفدي الجهير الصوت، وكانت عكاظ دافعته إلى العنف في الديوان كما هو معروف.

شارك الدكتور محمد حسين هيكل في ذلك في صحيفة السياسة والدكتور حافظ عفيفي في صحيفة البلاغ، ووجدنا هيكل ينشر في السياسة الأسبوعية فصولاً من كتبه "ثورة الأدب" و"في أوقات الفراغ" و"حياة محمد"، إلى جانب ما نشره كبار الكُتاب مثل إبراهيم عبد القادر المازني، وعبد العزيز البشري، وطه حسين، وعلي عبد الرازق، والأخير هو صاحب الكتاب الذي مر بنا بعض ذكره وتاريخ نشره، وعنوانه "الإسلام وأصول الحكم"؛ وهو الكتاب الذي ناقش فكرة

---

(1) نفسه ص ١٣ مع الزيادة.

(2) نفسه ص ٢٠ – ٢٢.

الخلافة الإسلامية، وأثار عليه الرأي العام المحافظ في مصر والشرق [١]. وتسبب في إسقاط وزارة التحالف الرجعي بين الأحرار الدستوريين وحزب الاتحاد [٢].

وللمازني نشرت السياسة الأسبوعية مقالات قصصية كانت نوعا جديدا في فن المقال، وللبشري نشرت صورا كريكاتورية إقليمية لكثير من الشخصيات البارزة في الأمة المصرية، جمعت بعد في كتابه "في المرآة".

ز- غير أنه بسبب ما صار للصحف من سطوة في المجال الأدبي لم يخلُ الأمر من مصادمات ومناقضات اصطلح على تسميتها معارك، كما ذكرنا صدد معركة الأسلوب في الاتجاه البياني بين طه حسين والرافعي. وكما اتضح فيما أوردناه في مدرسة الديوان وجماعة أبوللو، وكما سيثبت في الاتجاه العلمي بين إسماعيل مظهر والرافعي من جهة والعقاد وغيره من جهة أخرى.

ح- بيد أن التطور سيحوز هذه المتناقضات ويحتويها في حدودها الجدلية الأدبية الصرفة ولا سيما بما اتجه إليه التيار من نزعة التخصص في الفن الكتابي، وكذلك صار الكُتاب الكبار أنفسهم مراقبين بواسطة كُتاب كبار آخرين متخصصين في الفروع الفلسفية والاجتماعية والدينية؛ وبذلك قل اللجاج، وأمكن جني ثمرات جديدة لغراس السابقين العلمي، وزاد الاقتراب والتكامل في الكتابة العلمية والنقدية، مما عزز تيار إعادة النظر والتأصيل في الفكر والنقد بعد الحرب العالمية الثانية.

وفي الأمور الدينية الدقيقة والتربية العامة على السواء تخصصت مجلات الأزهر ١٣٤٨ هـ ـ ١٩٣٢ م والرابطة الإسلامية ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٩ م ونور الإسلام، وغير ذلك.

وفي المجال العلمي والفلسفي والعملي عاشت المقتطف ١٨٧٦ – ١٩٥٢ م، ونشأت العصور لناقدها الفلسفي إسماعيل مظهر منذ سنة ١٩٢٧، وعاد للجيش مجلة ١٩٣٩ – ١٩٦٣، ونجمت صحيفة التجارة والصناعة ١٩٤٣ – ١٩٥٠ وملحقها للتجارة الخارجية ١٩٤٦ – ١٩٥١، ومجلة علم النفس ١٩٤٥ – ١٩٥١، والمجلة التاريخية المصرية (سنوية) ١٩٤٨، ثُم مجلة مصر المالية (أسبوعية) ١٩٤٩ – ١٩٥٢، بالإضافة إلى ما ذكرنا من مجلات الدكتور أبي شادي العلمية في تربية النحل والدجاج، وما إلى ذلك مما ذكرناه في جماعة أبوللو.

كان هذا النشر الصحفي العلمي والصحافة الأدبية تزداد في العدد والعدة، والخبرة ومنها الهلال المطردة من سنة ١٨٩٢ م، والسياسة الأسبوعية منذ شهر ٤/ ١٩٢٦ والبلاغ الأسبوعي ثُم الرسالة ١٩٣٣ – ١٩٥٣ م وأبوللو ١٩٣٢ – ١٩٣٤، والضياء ١٩٣٦، والثقافة ١٩٣٠ –

---

(1) انظر ص

(2) كان عبد العزيز فهمي رئيس الأحرار الدستوريين وزيرا للحقانية، ولما لم يفصل المؤلف من القضاء بعد إدانته من هيئة كبار العلماء أقيل فهمي وانسحب، وانسحب زميله – هيكل والسياسة، ص ٥٤، ٥٥.

١٩٥٣ (للزيات) والأدب للخولي، وجماعة الأمناء ١٩٤٠، ومجلة الثقافة لوزارة الثقافة ١٩٤١ – ١٩٥٢، ثم ١٩٦٣ – ١٩٦٥ فضلاً عن الجهاد والبيان والكاتب المصري والكتاب وغير ذلك ضمن ما هو مبين في الجدول الملحق.

٤- معالم التنور المصري على الصعيد السياسي والاقتصادي:

* ذكرنا أن من عوامل تعقب المصريين للاستعمار وثورتهم الثالثة إلمامهم عن طريق التعليم والإعلام والترجمة بتطورات الأوضاع والأحوال في العالم: سياسية واقتصادية وغير ذلك.

أ- والواقع أن الحركة الوطنية المصرية أخذت لتنورها وجهادها من شتى المصادر، وسخرتها حتى في الغرب نفسه على نحو ما فعل مصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهما. ولم تهدأ أو تستسلم لردود أفعال الوسائل الاستعمارية ومبادراتها. وإزاء ذلك وأمام اتضاح المنازع الوطنية والعروبية بحسب ما بينا كان يمكن للمستعمر أو لغيره أن يفتح لنفسه طريقًا إلى الناس بواسطة الدفاع بالأفكار والتقنيات المقبولة بادئ ذي بدء، ووفقًا لهذا كان يتم الدفع بأفكار الخلافة والسلطنة والوطنية والجامعة الإسلامية والعربية، وهكذا. كما كان يمكن عرض النظريات والمذهبيات الأدبية والسياسية والاقتصادية وهكذا.

ولم يعن ذلك في مصر عداء مطلقًا للمذاهب الغربية أو جمودا متعصبا دائما لمذهبية أو أخرى، ولا سيما في المذهبيات الغربية. فعلى الرغم مما اقترن بالمذهبيات المختلفة في الغرب من غلو أو صراع حولها كانت – ولا سيما السياسي منها – مورطة لأمم الشرق بالتبعية؛ فإن من هذه المذاهب ما وجد صداه لموافقته تراث الأمة، وربما وجد أبناؤها أنهم أولى بها، وقد كان ذلك يساعد أبناء الأمة على حرب عدوهم بأسلحته، ومنها الفكر الفلسفي والحزبي والتقني.

ب- وربما كانت الفكرة الوطنية أعسر الأفكار هضما على المسلمين في بعض الأحيان، ولكن تأصيلاً كالذي وقفنا عليه للفكرة عند الطهطاوي كان يدعم بمستنيرين جدد تصدوا لحل مشكل الانتماء كالذي تبناه لطفي السيد وفتحي زغلول وغيرهم، وكما ثبت في سنة ١٩١٩ م ومن قبل في الجمعية التشريعية سنة ١٩١٠ م لم ينفذ المستعمر إلى أغراضه بين عنصري الأمة، كما لم تستطع الكتابات المسطحة أن تثبت في الميدان مغربة كان أو مسلمة، كالذي رأينا من سلامة موسى وعلي عبد الرازق. وكذلك لم تصمد أفكار طه حسين الخديجة عن يونانية مصر، ولا مجهودات كرومر لجعل مصر عالمية بما أملى به بين ١٨٨٣ و١٩٠٧ من دعم للأجانب على حساب المصريين [1] وأما الجامعة العربية فلم يفلح الغرب نفسه في جعلها وحدة

(1) تطور النقد والتفكير الأدبي في الربع الأول من القرن العشرين لمرزوق ص ١٤ – ١٦.

عملاء وحسب، وإن كان نجح بالفعل في استغلال عاطفة العروبة في تدمير الخلافة التركية وتقسيم الشعوب العربية بـ "سيكس بيكو"، واقتطاع فلسطين [(١)].

ج- وقد مكن تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ م رغم غيوبه "للرأسمالية المصرية أن تتنفس سياسيا، وأن تقوم ببعض الأعمال التي أدت إلى سيطرتها على السلطتين التشريعية والتنفيذية، وإلى مشاركتها في الحكم وتجميع ثرواتنا في مواجهة الاحتكارات الأجنبية، فتطورت الرأسمالية المصرية بين الحربين، وإن تباينت أدوارها قربا وبعدا من خط الولاء الوطني العام [(٢)].

وتُعتَبر الانتخابات النيابية الأولى سنة ١٩٢٣ م علامة على تطور ملموس في اتجاه وطني مستنير كأثر لهذه العوامل العالمية والاقتصادية، وكذلك لعوامل الثورة والنبوغ الفردي الذي وسم الفترة التي عاشتها مصر ابتداء من مطلع القرن العشرين إلى نهاية الربع الأول منه تقريبا [(٣)].

د- وقد كانت التكنولوجيا الغربية وأعمال البنوك والاقتصاد تسلسل قيادها للمصريين، وزاد عدد المتعلمين، ونشأت في المدن والقرى طبقة من أبناء الفلاحين والحضريين ترشح نفسها لولاية الأعمال العامة والمشروعات القومية التي كانت حكرا على الأيدي الأجنبية[(٤)]، ومن التحق من أبناء هذه الطبقة بالكليات العسكرية، ولا سيما منذ سنة ١٩٣٦ م قد مثلوا طليعة الثورة سنة ١٩٥٢ م. وقد استفادوا من التجارب الوطنية السابقة، مندفعين بأنفة طبقتهم من الحكام المتتركين، أو ناقمين معاناتهم في السودان وفلسطين، ويعتبر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ م، والتوجه إلى الائتلاف في الحكومة منذ سنة ١٩٢٦ م، وانتخابات ودستور ١٩٢٣ م، ثُم معاهدة ١٩٣٦ م وإلغاؤها ١٩٥١م، وقيام ثورة ١٩٥٢م مطردا سياسيا مواكبا لمطرد الوعي الاقتصادي والاجتماعي بصفة عامة.

٥- معالم التنور المصري على صعيد الترجمة:

يتضح لنا مما سبق أنه في العالم العربي خاصة ومن دون سائر المستعمرات لم يمكن تغيير اللسان القومي لمجموعة الشعوب الناطقة بالعربية اصالة. وبدلاً من تغيير اللسان كله أو رسم الكتابة فقط نهضت الترجمة كما نهضت للعرب في عصورهم الوسطى المستنيرة بدور وسيط

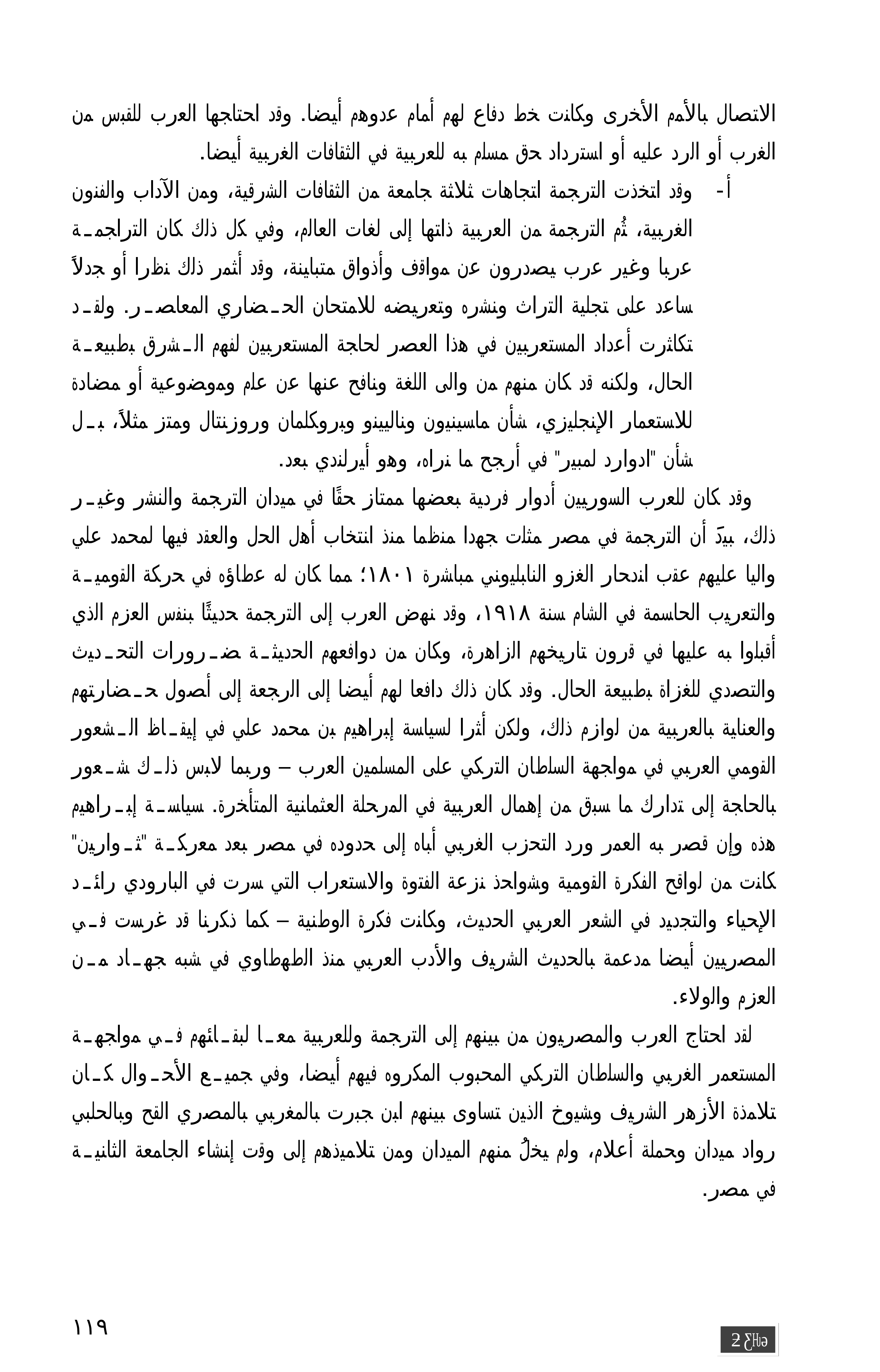
---

(1) الجهود البلاغية ص ٦٢ – ٦٨.

(2) محمد السروجي/ محاضرات في التوعية السياسية، مديرية أمن الإسكندرية، ط ٦٧، ص ٣٨.

(3) مرزوق/ تطور النقد.. ط١/ ٦٦ القسم الأول، وراجعنا ص ١٦، ٢٣، ٣٤.

(4) رسالتنا السابقة، ص ٦٦/ ٦٧، عن عباس محمود العقاد في: نظام الإقطاع في مصر عبر القرون، مقال بمجلة العربي، عدد يوليو ١٩٧١ م، ص ٤٤.

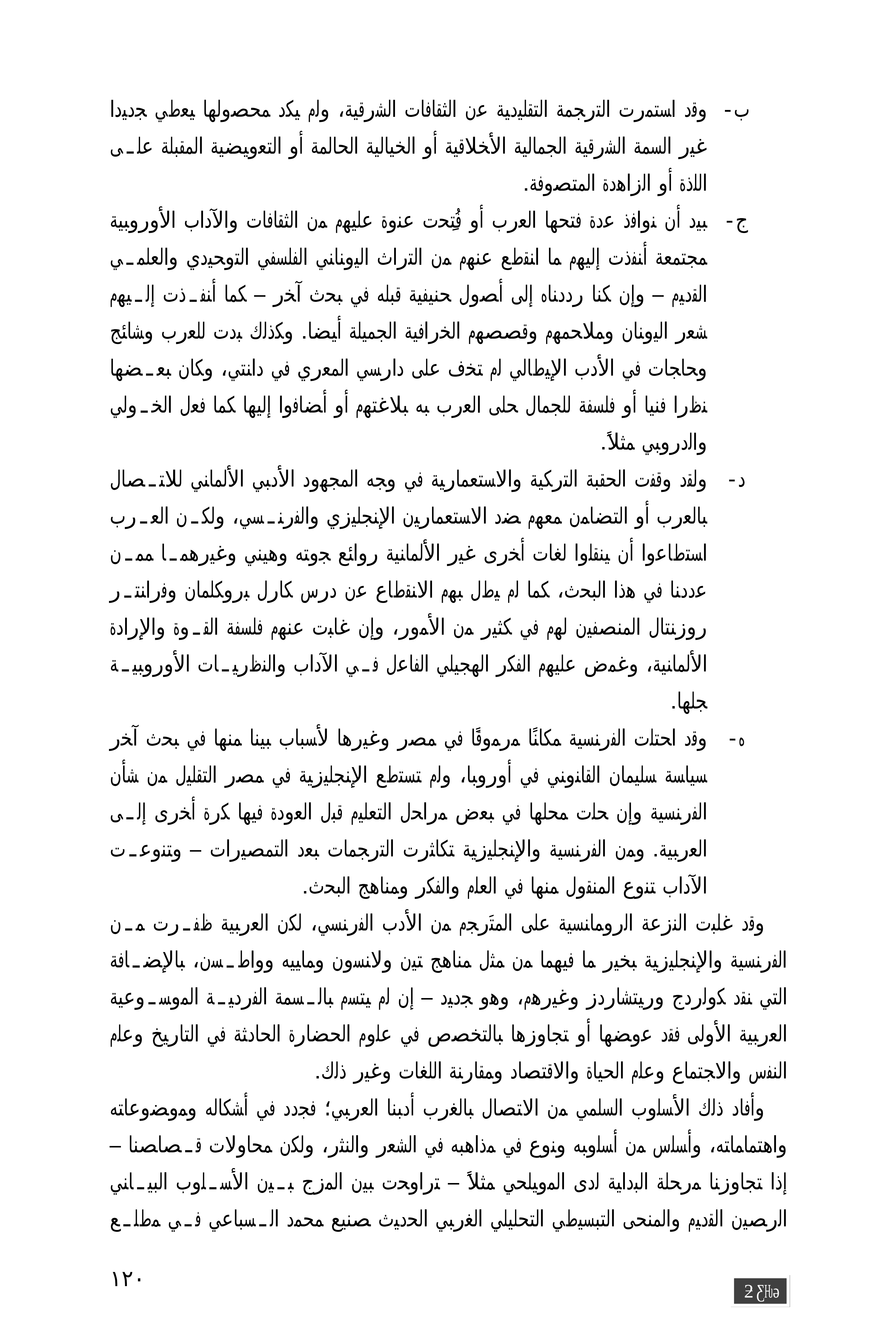


الاتصال بالأمم الأخرى وكانت خط دفاع لهم أمام عدوهم أيضا. وقد احتاجها العرب للقبس من الغرب أو الرد عليه أو استرداد حق مسلم به للعربية في الثقافات الغربية أيضا.

أ- وقد اتخذت الترجمة اتجاهات ثلاثة جامعة من الثقافات الشرقية، ومن الآداب والفنون الغربية، ثُم الترجمة من العربية ذاتها إلى لغات العالم، وفي كل ذلك كان التراجمة عربا وغير عرب يصدرون عن مواقف وأذواق متباينة، وقد أثمر ذلك نظرا أو جدلاً ساعد على تجلية التراث ونشره وتعريضه للامتحان الحضاري المعاصر. ولقد تكاثرت أعداد المستعربين في هذا العصر لحاجة المستعربين لفهم الشرق بطبيعة الحال، ولكنه قد كان منهم من والى اللغة ونافح عنها عن علم وموضوعية أو مضادة للاستعمار الإنجليزي، شأن ماسينيون ونالينو وبروكلمان وروزنتال ومتز مثلاً، بل شأن "ادوارد لمبير" في أرجح ما نراه، وهو أيرلندي بعد.

وقد كان للعرب السوريين أدوار فردية بعضها ممتاز حقًا في ميدان الترجمة والنشر وغير ذلك، بيدَ أن الترجمة في مصر مثلت جهدا منظما منذ انتخاب أهل الحل والعقد فيها لمحمد علي واليا عليهم عقب اندحار الغزو النابليوني مباشرة ١٨٠١؛ مما كان له عطاؤه في حركة القومية والتعريب الحاسمة في الشام سنة ١٩١٨، وقد نهض العرب إلى الترجمة حديثًا بنفس العزم الذي أقبلوا به عليها في قرون تاريخهم الزاهرة، وكان من دوافعهم الحديثة ضرورات التحديث والتصدي للغزاة بطبيعة الحال. وقد كان ذلك دافعا لهم أيضا إلى الرجعة إلى أصول حضارتهم والعناية بالعربية من لوازم ذلك، ولكن أثرا لسياسة إبراهيم بن محمد علي في إيقاظ الشعور القومي العربي في مواجهة السلطان التركي على المسلمين العرب – وربما لابس ذلك شعور بالحاجة إلى تدارك ما سبق من إهمال العربية في المرحلة العثمانية المتأخرة. سياسة إبراهيم هذه وإن قصر به العمر ورد التحزب الغربي أباه إلى حدوده في مصر بعد معركة "نڤارين" كانت من لواقح الفكرة القومية وشواحذ نزعة الفتوة والاستعراب التي سرت في البارودي رائد الإحياء والتجديد في الشعر العربي الحديث، وكانت فكرة الوطنية – كما ذكرنا قد غرست في المصريين أيضا مدعمة بالحديث الشريف والأدب العربي منذ الطهطاوي في شبه جهاد من العزم والولاء.

لقد احتاج العرب والمصريون من بينهم إلى الترجمة وللعربية معا لبقائهم في مواجهة المستعمر الغربي والسلطان التركي المحبوب المكروه فيهم أيضا، وفي جميع الأحوال كان تلامذة الأزهر الشريف وشيوخ الذين تساوى بينهم ابن جبرت بالمغربي بالمصري القح وبالحلبي رواد ميدان وحملة أعلام، ولم يخلُ منهم الميدان ومن تلاميذهم إلى وقت إنشاء الجامعة الثانية في مصر.



ب- وقد استمرت الترجمة التقليدية عن الثقافات الشرقية، ولم يكد محصولها يعطي جديدا غير السمة الشرقية الجمالية الأخلاقية أو الخيالية الحالمة أو التعويضية المقبلة على اللذة أو الزاهدة المتصوفة.

ج- بيد أن نوافذ عدة فتحها العرب أو فُتِحت عنوة عليهم من الثقافات والآداب الأوروبية مجتمعة أنفذت إليهم ما انقطع عنهم من التراث اليوناني الفلسفي التوحيدي والعلمي القديم – وإن كنا رددناه إلى أصول حنيفية قبله في بحث آخر – كما أنفذت إليهم شعر اليونان وملاحمهم وقصصهم الخرافية الجميلة أيضا. وكذلك بدت للعرب وشائج وحاجات في الأدب الإيطالي لم تخف على دارسي المعري في دانتي، وكان بعضها نظرا فنيا أو فلسفة للجمال حلى العرب به بلاغتهم أو أضافوا إليها كما فعل الخولي والدروبي مثلاً.

د- ولقد وقفت الحقبة التركية والاستعمارية في وجه المجهود الأدبي الألماني للاتصال بالعرب أو التضامن معهم ضد الاستعماريين الإنجليزي والفرنسي، ولكن العرب استطاعوا أن ينقلوا لغات أخرى غير الألمانية روائع جوته وهيني وغيرهما ممن عددنا في هذا البحث، كما لم يطل بهم الانقطاع عن درس كارل بروكلمان وفرانتر روزنتال المنصفين لهم في كثير من الأمور، وإن غابت عنهم فلسفة القوة والإرادة الألمانية، وغمض عليهم الفكر الهجيلي الفاعل في الآداب والنظريات الأوروبية جلها.

ه- وقد احتلت الفرنسية مكانًا مرموقًا في مصر وغيرها لأسباب بينا منها في بحث آخر سياسة سليمان القانوني في أوروبا، ولم تستطع الإنجليزية في مصر التقليل من شأن الفرنسية وإن حلت محلها في بعض مراحل التعليم قبل العودة فيها كرة أخرى إلى العربية. ومن الفرنسية والإنجليزية تكاثرت الترجمات بعد التمصيرات – وتنوعت الآداب تنوع المنقول منها في العلم والفكر ومناهج البحث.

وقد غلبت النزعة الرومانسية على المتَرجم من الأدب الفرنسي، لكن العربية ظفرت من الفرنسية والإنجليزية بخير ما فيهما من مثل مناهج تين ولانسون وماييه وواطسن، بالإضافة التي نقد كولردج وريتشاردز وغيرهم، وهو جديد – إن لم يتسم بالسمة الفردية الموسوعية العربية الأولى فقد عوضها أو تجاوزها بالتخصص في علوم الحضارة الحادثة في التاريخ وعلم النفس والاجتماع وعلم الحياة والاقتصاد ومقارنة اللغات وغير ذلك.

وأفاد ذلك الأسلوب السلمي من الاتصال بالغرب أدبنا العربي؛ فجدد في أشكاله وموضوعاته واهتماماته، وأسلس من أسلوبه ونوع في مذاهبه في الشعر والنثر، ولكن محاولات قصاصنا – إذا تجاوزنا مرحلة البداية لدى المويلحي مثلاً – تراوحت بين المزج بين الأسلوب البياني الرصين القديم والمنحى التبسيطي التحليلي الغربي الحديث صنيع محمد السباعي في مطالع

القرن، ثم بين التقليد التاريخي والرومانسي والواقعي الغربي صنيع شوقي والجارم وطه حسين ونجيب محفوظ وإحسان وتوفيق الحكيم، ومن الأخيرين على الأقل سقطت محاولات تقليد روائع الأساتذة الغربيين في الأدب الكاشف، مما ارتد عنه أفكار تعين على إنشاء فلسفة خاصة للقصة العربية وصار على البيانية العربية الأولى معولها في ذلك، ولا سيما بعد ظهور اتجاه في النقد الغربي يدعو إلى نحو من ذلك كما تمثلناه في جورج واطسن، وغير ذلك من النظريات الغربية التي نبهت إلى صلاح المنحى النقدي العربي البياني أو (النظمي) ووجهت الجهود إلى دراسة الجاحظ وعبد القاهر ومن إليهم، وأعانت على إيقاف تيار الافتئات على البلاغة القديمة؛ مما أدى إلى الكشف عن فلسفتها، وحتى في ضوء من البنيوية الأسلوبية الغربية.

وما من شك أن الرواية والقصة العربية الحديثة قد أفادت من الآداب الغربية، ولا سيما في البناء أو المعمار واطردت بها الاستفادة منذ محاولة محمد حسين هيكل العصامية في زينب إلى نحو من الحبكة والصناعة عند محمود تيمور والمحاولات التاريخية والواقعية والفنية المستكشفة عند طه حسين وإلى مرحلة الصنعة البنائية المتقنة في العربية على القوالب الغربية كما عند الشرقاوي وثروت أباظة وغيرهما.

ولقد نشأت عن ذلك كله أو مهدت له ثورات تُسمى معارك في ميدان الشعر والأسلوب النثري، وأسفرت عن عدد متمايز من الأساليب والمذاهب الأدبية درست باعتبارها مدارس، أو لدى مطران وأصحاب الديوان وجماعة أبوللو – ومن إليهم من أصحاب دعوة الشعر الحديث – وجميعهم ساهم في إثراء الأدب العربي وتعميق الإحساس الوجداني العربي؛ إذ جعل وحدة الإحياء والاستعارة معا. هذا إلى تطور تيارات الأدب والنقد، سواء السياقية الأسلوبية أو السياقية الخارجية إلى اتجاهات أوضح وأكثر استقرارا في المنظور التاريخي والاجتماعي والنفسي، متكاملاً في العلمي والبياني.

و- لقد كان من التراجمة مستشرقون ترجموا إلى لغاتهم أدب العرب وعلقوا عليه أو حكموا بأذواقهم وأهوائهم، وبعضهم لم يخفِ علينا عمده إلى خدمة أغراض المستعمر، ولكن بعضهم قد أثبت استقلاله ووفاءه للغة وإخلاصه للحقيقة والموضوعية، ومع ذلك فلم نجد فيما تُرجِم من العربية إلى اللغات الأوروبية في هذا القرن ما يمكن أن يمثل عطاء لجديد ينقص الغرب في القصة والشعر الحديثين خاصة، بيد أن ما درج عليه كثيرون من المستشرقين من ترجمة التصوف الإسلامي والتصوف الغالي والقرآن الكريم مثل لنا أهم ظاهرة في اتجاه الترجمة من اللغة العربية إلى لغات العالم، ويكاد يذكر في فعاليته بما نقله الغرب قديما من تراث العرب العلمي ورموزهم الأدبية الخالدة.

ولقد حمى القرآن نفسه من التحريف الخطير في ترجمة نصه حقًا، لكن نظرة المتَرجِم الغربي كما نضجت بها المقدمات والهوامش في هذه المترجمات للقرآن الكريم قد مثلت تشويشًا

على القارئ الغربي اللسان، ولكن هذا التشويش كان يأخذ في الخفوت كلما تقـدم بنـا البحـث في الترجمات من لدن جورج سال (ت ١٧٣٨) إلى "ن. داوود، "فآثر آربري"، و"الفرد جيـوم" (ت ١٩٦٥) وغيرهم ممن درسنا في البحث ومنهم مرمدوك بيكتال الإنجليزي المسلم "و ت. ب ارفنج" الكندي المسلم، بله محمد أسد، وغيرهم، وخلالهم جميعا تطورت نظرة الغرب إلى كتاب المسلمين الأدبي والعقدي المقدس من الاستهانة والاحتفال الكسول إلى شيء من الحيدة والاجتهاد ثُم التفنن المأخوذ بحلاوة القرآن القريبة لا غير، وغير ذلك من التراجم التي اضطلع بها غيـر المسلمين مما لا يمكن أن تغني عن تراجم المسلمين المتقنين للمعاني والإعجاز، بما في ذلك مـا جد من اكتشاف معاني الحروف الفواتح وعملها في السور التي وردت فيها، مما عنـى عـوزا في تراجمهم العصامية القيمة إلى مزيد من الإتقان وحسن العرض والإخـراج، بـل التـسويق والدعاية التي يتفوق فيها دعاة عقائد أخرى.

والمتَرجم عن القرآن بعد والمثار به لدى المفكر الغربي يمثل أهم عطاء للترجمة من العربية إلى اللغات (الإنجليزية في درسنا) وأما العطاء البارز الآخر للترجمة في الأدب العربي نفسه من اللغات الغربية فغير منكور في الشعر والقصة، ولكنه بحسب ما تبين لنا كنا أعظم مـا يكـون في مناهج البحث التي هي سبل النهضة المنظمة بلا ريب.